رواية
طريق الجحيم
عباس مدحت البياتي
عباس مدحت البياتي

طريق الجحيم

رواية

طريق الجحيم

عباس مدحت البياتي

إهداء

"أُهدي روايتي لكل من تسوّل له نفسه هجر الوطن وانتقاص قدره، ولكل من انزلق في دروب الهجرة، ليجد نفسه غارقًا في متاهات المذلة

داخل دوائرها المعقدة. إلى أولئك الذين لم يدركوا معنى الإنسانية الحقيقية التي يتشدقون بها، ولم يلمسوا وجع المعاناة، بل استمرّوا في الكيل بمكيالين وهم يتدثرون برداء السياسة الخارجية، يلوّنون به منظماتهم التي تفتقر للرحمة. لقد خُدعنا ببريق صورٍ واعدة، ما كانت سوى أوهامٍ زائفة نسجها خيالنا، فخدّرت وعينا، وأثقلت قلوبنا، ونهشت أرواحنا."

المقدمة

لم تكن هذه الرواية مجرّد حكاية تُروى، بل صرخة مكتومة في وجه أولئك الذين زيّفوا بريق المنافي، وزخرفوا أوهام الهجرة بألوان الخلاص. أُهديها إلى كل من سوّلت له نفسه أن يهجر وطنه، لا بحثًا عن أفق، بل هروبًا من ظلاله. إلى أولئك الذين غاصوا في مستنقع المذلة، وعلّقوا آمالهم على أنظمة ما ادّعت الإنسانية إلا قناعًا لسياسات باردة. لقد كانت الحقيقة أقسى من الحلم، والوهم أثقل من الواقع... ونحن ضحاياه.

في تلك الليلة التي لم يكن فيها القمر حاضرًا، سمعتُ العالم يهمس لي من بين الشقوق الضيقة في قلبي... لم تكن مجرد ليلة، كانت بداية الشرخ الذي أعاد تشكيل ملامحي. ما سأحكيه ليس خيالًا، وإن بدا لكم كحلمٍ غريبٍ مرّ من بين السطور، فاعلموا أنني عشت الأحداث بحذافيرها من الألف إلى الياء، وتحمل ذاكرتي نكهته المُرّة والحلوة.

الفوض

من أين أبدأ....

من أين أبدأ...؟

ترى من أين تُبتَدأ الحكاية عندما تعجز الحروف عن وصف ما اقترفَه الغموض؟ ها أنا غارقٌ في لجّة الحيرة، أُنازل ضجيجًا داخليًا يطوي الروح بطيات من العُقد، يعقِد لساني بصمتٍ مكلوم، ويكسو البصيرة بغيمة وجع لا تمطر سوى سخطٍ وعناء. لم تكن العاصفة متوقّعة قط؛ وُلدت من رحم الظروف، اقتحمت الزمن على حين غفلة، أوكلت مصائرنا إلى رتابة تصمّ وتبكم. صارت الحياة مادة للسخرية المرة والفوضى القاسية، فبعثرت الأحلام ومحت معاني الحياة من ذاكرتنا.

الاختناق بين السؤال والخوف

كان الخوف قد نَشِب مخالبه في أعماق نفوسنا، حاصر أرواحنا بين رياح الأسى وسُحب القلق. أما العقل، فظل متخشبًا في كهوف أسئلته الحارقة: من أنا؟ إلى أين المصير؟ كيف الخلاص؟ باتت أيامنا تتسرّب كسراب من بين الأصابع،

لا أمـس يحنـو، ولا غـد يُؤمَّـل... غـدونا نحتمـي بالصـمت، وطنًـا مؤقتًا بللته دموع الشجن الصامت.

فـي ظـل ظـرف أعسـر كانـت الـروح قـد نضَّـتْ رغباتهـا وهـي مسومة بـالعجز والخـوف. الأنـا تائهـة فـي خضـم أحـداث متقلبـة، تخـاف مزاولـة لعبـة التفكيـر تحـت سـقف العبوديـة المراغـة فـي مرافـئ الفكـرة، لا تسـتطيع تغييـر جدليـة الحالـة القائمـة أو التـأثير عليها أو تبديلها بالأحسن..

إنهـا بدايـة طريـق... تلـك التـي لا تقـود إلا إلـى قـاع الجحيم، حيث لا رجعــة، ولا يقــين، ســوى أن الحكايـــة لثقلهــا لا تُــروى، بــل تُعاش بحذافيرها تحت وهج النار حتى الاحتراق.

من أين أبدأ؟

الحيـرة المـرة أغشـت ذهنـي، غمـرت ذاتـي بسـليل العقـد، أسـرت هواجســي، كبلــت لســاني بالصــمت فــي زوايــا الحيــرة المُــرّة، الـروح تكبلـت بسـخرية الانتظـار. مثلمـا غصـت الأنـا فـي مسـتنقع تلـك الـدور المسـماة بالـ"كمبات"، فـي بـلاد الغـرب، فهـي ليسـت إلا ســجونًا معاصــرة مفتوحــة، تُغلفهــا حريــة زائفــة، تــذيب الأحلام في لجج الإجراءات البيروقراطية المعقدة.

تجمــع الجنســيات مــن كــل أنحــاء الأرض تحــت ســقف واحــد، يجمعهـم الألـم والانتظـار، لا يُنصـفهم قـانون، ولا يحنـو علـيهم نظـام. فـالمظهر نظـامي، لكـن البـاطن قيـود ناعمـة تمـتص الحيـاة وتُقيّـد الحركـة وتبـث الفرقـة بـين أبنـاء الأسـر. أمـا الملفـات التـي

شُمّعت على الرفوف، فتُدار بتوصيات تلبس قناع التحيّز الجنس والدين.

فترة الانتظار الطويلة لدى دوائر الهجرة تحوّل الزمن إلى عبء، وتُبقي المهاجر معلقًا بين الماضي الذي فرّ منه والمستقبل الذي لا يزال في طي الغموض. هي ليست مجرد إجراءات بيروقراطية، بل امتحان طويل للصبر والكرامة والهوية قد تمتد لأكثر من عشرة سنوات دون أن ينصف المهاجر.

لا تُبذل الدوائر جهدًا حقيقيًا لإنهاء الملفات، بل تُفرض شروط عبثية تصل أحيانًا إلى مطالبة البعض بتغيير دينهم مقابل الإقامة، كما حدث مع الصليب الاحمر بممارسة الضغط ضد المسلمين من أجل قبول ملفاتهم. {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ...} صدق الله العظيم.

الاغتراب داخل الأسرة

كثيرون يجدون أنفسهم يواجهون مشاعر الوحدة والتهميش، وربما يندثر الأمل مع إجراءات الروتين المعمول بها. المشكلة هي فترة الانتظار المفتوحة لدى مسؤولي دائرة الهجرة لمراجعة ملفات المغرر بهم، هؤلاء الباحثين في جوف العتمة عن ثلم نور يضيء دروبهم، عن فرصة تعينهم على مزاولة الحياة الطبيعية كبقية البشر دون المساس بكرامتهم.

ما يحدث ليس مجرد تأخير إداري، بل سياسة ممنهجة تُغرِق النفوس في دوّامة من الملل واليأس، وتزرع في العقول بذور خيبة يصعب اقتلاعها مستقبلاً. تلك المماطلة لا تُعطل الإجراءات فحسب، بل تُجهض الأحلام وتُقوّض القدرة على التخطيط لحياة أسرية مستقرة، سواء على المدى القريب أو البعيد.

كل صباح نفتّش عن بصيص أمل يصلح ما كسرته الأيام، نحاول أن نصبر أنفسنا، أن نقتنع أن الديناميكية قد تعود، وأن الحياة تركن خارج هذا الجمود الملم بنا. على الأقل تجدد حيواتنا المنحلة، خاصة نحن نعيش في ثيمة من الرجاء، عالقون في روتين معقّد، في طوية من التيه الممل، صنعه وطنٌ تآكل من الداخل، وساسة لا يرون أبعد من مصالحهم الضيقة. منذ أن بلغنا أرض هذه الدول "الإنسانية"، التي لم نرَ من إنسانيتها سوى الشعارات لا توازي حقيقة الافعال.

ما يُسوّق على أنه "استقبال إنساني" ليس سوى حاجة ديموغرافية واقتصادية. هذه الدول تعاني من الشيخوخة السكانية، تبحث عن أيدٍ عاملة لسد الفجوات. فالمهاجر هو الأمل الضروري، حتى وإن أنكرت ذلك تحت أقنعة البيروقراطية.

تحمّلنا تلك القيود لأجل أطفالنا، لفرصة تعليم، لتأمين صحي، لنظام أكثر استقرارًا مما تركناه خلفنا. لكن الثمن؟ حياة معلقة على حافة الغربة، تُختَرَق فيها العائلة من الداخل، وتُغذّى النزاعات باسم الحرية والمساواة.

ما يعيشونه من تفكك أسري واجتماعي في مجتمعاتهم، يحاولون إسقاطه على أُسر المهاجرين الوافدة، فيزرعون الفتنة داخل البيت، ويُحرّضون الزوجة على زوجها باسم الحرية وبذريعة المساواة بين الرجل والمرأة. ويبدو أن هذا التعامل يستهدف بشكل شبه ممنهج – الأسر المسلمة خاصة، ربما بدوافع من الحقد أو الكراهية. دون أي اعتبار للأثر الأخلاقي والأسري أو ما سيؤول إليه حال الأطفال مستقبلاً من اضطراب في التربية والتوازن.

بمجرد إقرارنا على تفعيل البصمة في مكاتب الهجرة؛ كان قد فلت زمام الامر من بين أيدينا. فيما بقيت دائرة الهجرة تمط بإجراءاتها وتماطل بمواقفها المخلة، تلوك الظرف وتدعس على مصل الحياة، تهين ذواتنا وقامة رجائنا دون أن تنظر لنا بعين الاعتبار، دون تحسن وضعنا النفسي وتبعيات الظرف السيء وتداعيات المحن التي لحقت بنا..

في هجرتنا، كأننا انتقلنا من مستنقع آسن إلى آخر أشد نتنًا، أكثر قسوة ومهانة. كأننا أخطأنا طريق الرجاء حين ظننا أن الفرار من طوق الموت في أوطاننا سيقودنا إلى النجاة في بلاد الغرب، فإذا بنا نُساق إلى هاوية أخرى، تحمل ذات العقد التي نخرت أرواحنا.

كأننا انتقلنا من الوطن إلى المنفى... رحلة ألم لا تنتهي

ومنذ وطأ المحتل أرضنا، لم تُعَد لنا ملامح الحياة. سُرقت آثارنا- كانت المانيا قد سرقت باب عشتار وشارع الموكب

البابلي فيما بريطانيا وفرسنا حدث ولا حرج، أكثر من نصف آثارنا في متاحفهم، أخيرا تبعتهم أمريكا بعد الاحتلال، نُهِبت خيراتنا، واغتُصبت مؤسساتنا الثقافية والعلمية والصحية.

لم يكن الاحتلال وحده من دعس على الشعب، بل تحالف مع المفسدين والقتلة وسارقي الوطن. قسّموا البلاد كما تُقسم الغنائم، وطحنوا الشعب في مطحنات البؤس اليومي في الطائفية والقومية الشوفينية

منذ أن دنّس المحتل تراب أرضنا، أصبحت الكآبة لجا نسكن بها، واليأس صفة لازبة للذات، يعتلي الوجوه البريئة كقناع. وذلك لما تعرضنا له من قسوة بدنية ونفسية وفكرية تعلقت بأربطة الذاكرة وقيافة البدن والروح والوطن، تلونت أوضاعنا بلون الحيرة المتقلبة بين الصفرة والصفرة، تلك التي التصقت بسماتنا وثيابنا، رقعت الظن بسواد الشجن، أدمغت جوارحنا بصفة العجز والذم..

بقيت تلك المرارة العالقة تلوك لساني، تمحو المعاني من ذهني، وتغلي الهمّ والغمّ في قلبي. جعلتني أعيش الألم لا كذكرى، بل كحاضر دائم. لقد علمتني الغربة قيمة الوطن. وأن الوطن ليس فقط ترابًا وهواءً، بل كرامة. لا دولة بديلة، ولا هوية مستوردة تُغنيك عن الجذور أبدا.

صرنا نعيش الألم لا كذكرى، بل كواقع دائم يسكن في الصدر، يُرافقنا كأنفاسنا، ويحرّك ذاكرتنا كلما ظننا أن الحياة قد تهدأ. ما خسرناه لا يُعوَّض، وما فُقِد لا يُستعاد، وما جُرِح

في القلب سيظل ندبة تذكرنا أن الصمت أحيانًا... هو أبلغ من الكلام.

لقد ترسخت العذابات في النفوس، أضحت الحالة شبه طبيعية، كما هيَّ الكروموسومات الجينية العالقة في البدن، كما هي آثارنا المسروقة المتجولة بين متاحف العالم، تلك التي حين تراها تترك غصة في النفوس وهي خارج أماكنها الحقيقية

عندما حل المحتل؛ جاء بشلة الخبث من لصوص ومجرمين وقتلة، فلم تسلم جرة الوطن من عبث الخونة والماجورين قط، الذين تعاضدوا مع المحتل وتغاضوا عن إدارة شؤون الوطن أثناء قسمة كعكة العراق بينهم.. ذبحوا الشعب ودعسوا على الشرف، جردوه من مقومات الحياة النفسية والعملية والعلمية، دمروا مؤسساته الإدارية والثقافية والتربوية والاقتصادية والصحية، أجهزوا على المرافق الصحية والأمنية والإدارية والبنوك ومؤسسات الجيش والشرطة؛ بحيث لم يَدَعوا مرفقا أو مؤسسة إلا وأفرغوها من محتوياتها ومؤنها ومقومات الأخرى وأسس قوامها تماما.

لم يكن الاحتلال لوحده العابث بمقدرات الشعب، أنما أشترك في تدمير البنية التحتية والنفسية للفرد طبيعة نظام الحكم الدكتاتوري نفسه الذي صنع الفرص لهؤلاء المجرمين من فتق صرة الوطن. ذلك النظام الذي تصرف بعنجهية ضد الشعب وضد دول الجوار دون أن يفكر بما سيجره على هذا الشعب المسكين من ويلات.

منذ العام 1980، لم تهدأ عواصف الموج في وطني. أيقظ الأعداء البراكين الخاملة، فغذّت الفوضى صغار العقد المنهَكة، وراكمت الأحداث حتى فاضت بالدم والخوف. لم تهدأ دائرة الريح في الأجواء إطلاقا، شرعت الأوضاع تركب تقلبات الفِكَر، وارتفع منسوب الخطر فوق حدود التوقع، وتجاوزت الأزمات أسوار الأمان.

ما برحت ضِيقت علينا ممرات الحياة الطبيعية. أصبنا بظلف العيش وعسر التنفس، أرهق كاهل البدن، تاه الذهن في شوارد الأزمات، تحت ظل سقف أمان صوري من الداخل وعبثي جدلي من الخارج، كانت قد وضعت أطره الحكومات المتعاقبة على مر الزمن دون اهتمام بهموم الشعب قط.

شرع الاستسلام يدك منتجعات الصبر بعد أن دك المحتل مسامير غله بلوح الوطن، شرع القرار يفلت من زمام اليد بعد أن تفسخت تفاحة الوطن، طالت بكتريا العفن أنوف القانتين خلف أسيجة تلك الفوضى- بات الخطر يلوح في الأفق، يدك هاجس الفرد ومشاعره أينما وجد، وأينما حل، ما أنفك بات يتنقل في الأزقة والأحياء كوباء عبر الألسن وبين قدحيات العيون، تسلل الينا عبر النوافذ والجدران كشيطان أخرس، لا تشعر بوجوده إلا وهو متمكن منك كفايروس قاتل.

تحوّل الخوف إلى مقيم دائم، نحت له زاوية في الذاكرة، وسكن العقول كفكرة متجذرة. غذّته الطائفية، وضعف الإيمان، وسوء المعاش، حتى أصبحت الفوضى ملاذًا لكل

انتهـازي. ومـع كـل بركـان عبـث، ازداد تمـدّد الخـوف، سـرق مـن الناس الأمل، حتى تفاقم الوضع السيء وبلغ السيل الزبى...

كنـا قـد ركبنـا مركـب الخـوف عنـوة، بنينـا لـه وكـرا فـي الـذاكرة، أضــحى كالعــث وســخام الشــياط يليــك جــدران الحيــاة لا يمكــن محيــه بســهولة. جــاث فــي العقــول كفكــرة، تغــذى علــى التفســير المغـــالط والطائفيـــة والقوميـــة وضـــعف الإيمـــان وشـــحة الأمـــان وسعة الفوضى والفقر الذي زرعته الحكومات..

مـع انفجـار بركـان العبـث، شـرع الخـوف يكبـر فـي النفـوس، شـق طـــرق فجـــة ومزاغـــل للترقـــب، جردنـــا مـــن هـــوس الأفكـــار والتبصــر فــي بَســطِ حالــة الرجــاء والصــفاء للغــد الآتــي، دخلــت الصـراعات علينـا مـن فتحـات النوافـذ الضـيقة التـي لـم نكـن نتوقـع سـخطها أبـدا، كتـداخل الهبـاء المنبـث مـن الكـوة الصـبح.. صـار المــوت يترصّــدنا، يطــوف فــي الأســواق. لغــزارة فيضــه أضــحى ســلعة بيــد العـــابثين والـــدجالين والفاســـقين والمـــاجنين، يبـــاع ويشــترى بــه، يــوزَّع فــي الاحتفــالات، ويتســلّل إلــى الأزقــة وإلــى الأســواق والمهرجانـــات والمحافـــل والتجمعـــات العامـــة والخاصـــة والمـــولات - تفجيـــرات وأحزمـــة ناســـفة وســـيارات مفخخـــة امتهنـــت تمزيـــق الأجســـاد والأحـــلام. وتحوّلـــت الفوضـــى إلـــى مسرح للانتقام، يغلفه الغياب الأمني، وسط سلطة متآكلة.

فالغـد الـذي كنـا نتأملـه خيـرا صـار وبـالا يأتينـا بأسـوأ مـن سـابقه، وهكذا هلم جرى..

أصبحت الفوضى مجالا واسعا وناجحا لفرض أبجدية الانتقام هنا وهناك. هناك من يود أن ينتقم من شخص ما لغرض دفين أو تنافسي على الرزق، أو على مراكز حساسة يبتغيها، أستغل تلك الفوضى بتنفيذ مآربه دون ملاحقة أمنية تمنعه من ذلك، في الوقت الذي به تبخرت المراكز الأمنية بقواها من مواقعها مع دخول المحتل الوطن. هناك من ود الانتقام من عائلة ما لأنها فيما سبق رفضوه كزوج لأبنتهم، وهناك من ود أن يغتني بسرعة البرق فأستخدم طرق الابتزاز والخطف والقتل كوسيلة لذلك، وهناك من تسلق الجدران وعرف من أين تأكل الكتف، فاستطاع أن يلتف على رقاب الشعب ومصافحة المحتل بخيانته ودَجَلهِ. ناهيك عن جرائم المداهمات واجتثاث وانتقام التي أحدثتها القوات المحتلة وطوائف الميليشيات الوقحة المرافقة لها بحجج طائفية أو قومية لفرض سيطرتها على الوضع العام وسرقتها المال العام..

كبرت المقابر، وضاقت المدينة. تاه الأمن، وشرّع الغضب للانتقام. انفلتت الأمور من عقالها، ونشأت الميليشيات على أنقاض الدولة، يتغذّى كل منها على دعم خارجي أو تبعية طائفية، بينما استوطن الفساد جسد البلاد بلا رادع.

بتنا نعيش في غابة لا يصلح فيها البقاء إلا للأقوى، أصبح الوسط ملائم لتنفيذ الجرائم البشعة بشتى الأنواع بعد أن تجاوزت أعداد الأحزاب والميليشيات حدود الثمانين حزبا

طائفيا ومذهبيا وقوميا.. كل يستند على مساند وثيرة ومتينة مدعمة من قبل دول الجوار أو المحتل..

صارت المادة المحور الذي تتمحور حوله الصراعات، كل يريد أن يرفع من شأنه وقدره بها، صارت قدرا ومقياسا لحجم الجريمة، وسلما للمراكز والمناصب.. توسعت مفاهيم السرقة، غدت مبدأً مباحا وعرفا ونهجا سائدا، مبنيا على مبدأ البقاء والوجود، فالفوضى العارمة شملت كل أطياف الشعب بذات القسمة والنصيب، جمعت حظ الأعمى والبصير ببطاقة نصيب واحدة. استقوت الشوفينية القومية والمذهبية، وصار المدفع لغة الجميع. وما عاد للمواطن البسيط خيار إلا الاحتماء بالرماد، أو الهروب من وطن أكلته فوهات البارود..

*****

من أين أبدأ؟...

هل أبدأ من أمسي الطويل الذي أسدل ستاره كظلٍ لا ينتهي ليله؟ أم من يومي الذي تناء عن ذاتي ورغباتي وتعلق بأذيال أمسي، حتى صارا معا وجهين لعملة واحدة، فهما متقاسمان المضمون والقيمة ومختلفان في الشكل والصورة، أشبههما أحيانا بوجهي السارق والمرتشي، فلا فرق بينهما سوى باختلاف وقع المكان والزمان عليهما...

أمسـي صـورة مشوشـة مـن العنـف، مطـرّزة بالقسـوة المباشـرًة، متخفيًـة خلـف سـتار العـادة. ويـومي مـرآة مكسـورة تعكـس شـظايا الأمـس، كـأن الـزمن لا يعـرف سـوى إعـادة جـرح أمسـي بصـور اليـوم. فـي الحـالتين الـذات العفيفـة غابـت. كأنهـا لـم تكـن سـوى طيفًـا هشًـا تبـدده ريـاح القسـوة الموروثـة. العنـف لـيس مجـرد صـراخًا، بـل همسًـا مـتغلغلًا فـي العظـام، ذلًا يتسـلل بـبطء، جفافًـا داخليًـا، فراغًـا أجـوف، رميمًـا يتـنفس. مكـور مـن مجموعـة عقـد ومركبات كيميائية تصب في الذات البشرية.

دعنـي أبـدأ مـن أمسـي الغـارق فـي لـج المـوت، والـذي حـول ذاتـي الابيـة لمقبـرة تشـيع الخـوف فـي الارواح، أمسـي ذاك لـم يكتـفِ بمـا فعـل، بـل تسلح بسـلاح خصـمي ليغتـال يـومي ويطـاردني فـي ظنـوني، فـي مـداري وقبيلتـي، فـي الأزقـة الضـيقة وحتـى فـي قلب بيتي

أمسـي الـذي حصـد سـنابل الخضـر قبـل أن تنضـج بـذور الأمـل، تكنـى بالسـفاح والقاتـل والمجـرم، الموصـوف بالعابـث والمنكـد والبـائس والـنحس، حتـى صـرنا لا نعـرف حقيقتـه هويـة المقابـل ولا مضـمون شـكله الملـيء بالفوضـى والاخـتلال والاضـطراب والزَعْزَعَـة والضَوْضَـاء وفقْـدان التَّـوازُن... صـرنا لا نعرفـه عـن قـرب، بعـد أن جَعَلَنـا نظـل طُرقنـا ونتيـه فـي ظـل فوضـى عارمـة وهائجـة خلـف قـدم المحتـل، ذلـك الـذي بـرم المـوت بمغـزل مصـنوع مـن أرواح الشـهداء، حتـى مـزج خـيط الأسـود بالأبيض دون رحمة.

الإنسان بطبعه يميل إلى الهدوء والاستقرار والسكينة، تلك الأحلام السادرة ظلت تراود مخيلة الفرد العراقي سنين عمره، ظلت تتنفس تحت جلده كهموم حية، يعجز عن إيقاد شمعة حب تحت وقع الضغوطات الداخلية والخارجية التي أرهقت كاهله.

أضحت تلك الأحلام السادرة أضغاث أحلام، لم تعد تعشعش في مخيلات الفرد العراقي، تبخرت مع شدة ظلف القسوة والزمن ونار الحديد، تماهت خيالا بعد أن تجاوزت الفوضى حدود المعقول واللامعقول في مد منسوبها، غطت ببشاعتها حقول المشككين والعقلاء ممن حاولوا تجنب حدود الفوضى والتنحي بعيدا عن مساراتها.

لم تنفك هواجسنا من الهرج والمرج حتى ونحن خارج حدود الوطن بعيدين عنه، ظلت تلاحقنا الأخبار المأساوية بعربة الضمير الذي لا يأبى أن ينفك عن دكة الوطن. حيث لم تمر على العراق حقبة سوداوية أشد من حلكة الاحتلال وما تلاها، أنها أشد قسوة وإيلاما من قسوة التتر، وأكثر عجرفة من الحروب الصليبية وأشد غلا من وقائع الحرب العالمية.

كنا أشبه بالحمائم الساكنة في قمم أعشاشها، نعتلي الأغصان الباسقة، نمرح بأيامنا، نأكل ونشرب والطمأنينة غطاء ورداء تظللنا. نطير في أجواء صافية مع النسائم العابرة فوق خضرة البساتين والجبال دون خوف أو وجل، حيث الماء والكلأ منتشر في البقاع، حيث المحبة وسائد تحت رؤوسنا، نجتمع بالفرح والحزن على الفِكَرة، نعتضد على بساط السَمر وألفة،

كان الوطن شامخا، باسقا في أعيننا وأعين الحاسدين كنخل العراق.

وفي غضون ليلة ظلماء أشتد العصف الخريفي علينا، أودى بطباق أعشاشنا، عبث بتربة الوطن، ساق الجمع إلى وهدة التيه والضياع كالخرفان، أدخلنا في نفق معتم دون مسرب، صرنا نتخبط في أزقة الهجر والإدبار والملاذ، خارت قوانا، تشتتنا، شاعت النسور والصقور تتعقب ذواتنا، تحوم فوق الرؤوس، تفتك بالعصافير والزرازير والحمائم المسالمة. والأكثر من ذلك وطنت ديارنا، عبثت بأعشاشنا التي هزلت وسقطت وباتت خرائبا وكهوفا.

حين وطأت أقدام المحتل أرض الوطن، تبعته العقارب والثعابين والعناكب، تسرّبت الأمراض والوباء والحشرات من كل صوب وحدب، تبحث في شقوق أفكارنا عن موطئ للعشعشة والتكاثر. اجتاح الجراد حقولنا الخصيبة، ومزارعنا الممتدة، ومصانعنا الآهلة، وسايلوهاتنا العامرة، فجردها من قوتها، وترك الوطن قفارًا مأهولة باللصوص والوحوش الضارية، تفترس من يتجرأ على قول كلمة حق.

تحولت الحياة إلى قربة مثقوبة، تنزف كجرح لا يندمل، وأضحى الوطن مستنقعًا يعجّ بالحشرات، بالسموم، بالوباء... أن جرد الشخص من خبث العضات واللدغات واللسعات، فلن يسلم من مكر الأمراض والأوبئة الفايروسية ورائحة العفن التي أزكمت الأنوف بالطائفية والقومية. حتى صرنا نشك برائحة التعفن تنبعث من خلايا أجسادنا، من أنفسنا المتشبعة

بالضغائن والطائفية والفوضى التي سكنت البلاد. لم نعد نُفرق بين النقي والفاسد، الصديق والعدو، الطيب والخبيث... فالكل اتخذ لونًا رماديًا غامضًا في عيوننا. الكل تشابه في عمقه ولونه وفظاظة شكله ونكهته، الكل برع في تبجيل ذاته وتحجيل ساقيه وتلميع صورته.

في المقابل هجت الأرواح تزحف نحو السماء كمجاميع، حتى وهبت النجوم لمعانا وبريقا أكبر، تلك الأرواح التي غرست جثامينها في الأرض أوتادا، صارت تشكو مضاربها في ميادين الوطن والمهجر. أجسادنا تقشّرت من الوهن، وأفكارنا هزلت حدّ التلاشي، ورعشة الخوف والجوع صارت سمتنا اليومية. تاهت دروبنا، وبحثنا عن خلاص... عن حل، وإن كان يحمل اسم الموت.

اعتلى المناصب أنذال، وارتقى المنابر تجار دين، وسادت الكراسي أرواح جُبلت على العبث. صار الدم أرخص من النُعال، الموت الذي صار يلاحقنا في دواخل أنفسنا كهاجس ممكن أن يطرق أبواب الأمن في أي لحظة، أضحى قريب جدا من خواطرنا، صرنا نستشعر به يطوف بيننا، نلتمس ذوائبه في الأسواق والأزقة والحارات، صرنا نهجس به يتربص بنا داخل غرف نومنا، كجني متلبسا بأحد الفتية من أبناء الجيرة محزم بحزام ناسف. أو مدسوس بكيس قمامة ملغم، مرمى في مدخل الأزقة. أو يتمثل لنا كشيطان بهيئة جندي حاقد من المارينز يشهر سلاحه بوجه طفل، أو بوجه امرأة يود اغتصابها، أو بغرض السرقة أو بعمامة ...الخ،

حيث القتل والتفجير صار يخطط له وينفذ بعناية وبمزاج من قبل البعض، مقابل أجور مادية زهيدة لا تساوي قيمة نعل طفل.

أضحت أبداننا جَلِدَةٌ، تتقشر من التعب الذي أصابها، أفكارنا منهكة، هزيلة. غدت الرعشة حالة طبيعية تركب أنامل أيادينا والجسد، نتيجة الجوع والفاقة والقحط والخوف والشك من الغد، أضحت الرعشة حالة طبيعية لا تمت بصلة للضعف أو لشذوذ الجسد الآنية، أنما لخلخلة خلاياه، صفة التصقت بنا.

ولترويض العُقد والصعوبات الجمة أضحى أحدنا يبحث عن حل آني للغز حيرته، عن وسطا يحميه ويظل عائلته.. حتى أن البعض قد أنحرف تفكيره نحو وإدة الخلاص بشكل من أشكال الموت، كالانتحار أو الهرب أو هجران البلد بعد أن ضل طريقه، وفقد قدرته وطاقته..

تلك الأحداث تكررت في حياة الفرد وتسلسلت أشبه بسلسلة العِقدْ، من الشاهد إلى الشاهد، قاطرة طويلة من المصائب، زرعها المحتل في أوساط رطبة، قابلة للتكاثر والنمو والتنصل والتبدل..

تلك القاطرة جرّت خلفها عربات الويل والسخط لوهدة الموت الأخيرة... لطولها لا يمكن عد عرباتها، حملت أبناء الوطن قاطبة في سكتها، ولست أدري في أية عربة حل قدري، أحيانا أجد نفسي لابدٌ في مقدمة عرباتها، وأحيانا في

مؤخرتها، أشعر بها دائرية المنشأ، تدور بنا في دوامة تيه لا نهاية لها.

دارت الأحداث والمشاكل والعقد حول محور وطنينا كالكواكب السيارة التي تدور حول الشمس، ما أن تكمل دورتها حتى تتجدد فصول الأحداث والعقد والفصل الطائفي بذات الوتيرة، بذات الغل والعنف، ربما تفوق انطلاقاتها ألأولى..

لقد جاء المحتل بحجة فرض الديمقراطية، بينما مضى إلى تجويف أرضه من نفطه وتأريخه وتراثه. صار جندي المارينز لشدة غله يبحث عن السلاح والمتفجرات في بيوتات الناس ومطابخها، في أواني الطبخ وأباريق الشاي، عسى أن تلتقط عينيه جوهرة ثمينة ليحتفظ بها. وقد عبر عن ذلك المطرب حسام الرسام الذي أستهزأ بهم في غنائه حين قال:.." بنص القوري على الصاروخ يدورون" ..أي يبحثون عن الصاروخ في إبريق الشاي، ولكم أن تتخيلوا حجم المهزلة..

أسفي على ظلم وطن، كان قد مدى على الأفق جناح الحب والعلم والثقافة، وطن توشح بمجد حضارات عريقة عرق التاريخ منذ آلاف السنين، أول من نظم القوانين ونظم الحياة البشرية، اول من اخترع الكتابة والعجلة وعلم الفلك والرياضيات، تراكمت فيه الحضارات منذ الاف السنين، سومر وبابل وأكد وآشور وبغداد، تلك المدينة التي سحرت الشرق والغرب بأسفار الحب والخيال في قصص الف ليلية

وليلـــة والســـندباد البحـــري وكهرمانـــة وعلـــي بابـــا وغيرهـــا. هـــذا الـــوطن الثـــري الـــذي مـــلأ الكـــون بأســـفاره وأخبـــاره منـــذ فجـــر الســـلالات. علـــم البشـــرية الحكمـــة والأرقـــام والرياضـــيات والفلـــك والطـــب والفيزيـــاء والكيميـــاء، وطـــن كـــالعراق لـــن يمـــوت أبـــدا. شعلة تستمد نورها من تأريخه العريق وتربته المعطاءة.

لـــم نشـــهد راحـــة بـــال أبـــدا، شـــيئا فشـــيئا تشـــعبت العنـــاوين بالتقاســـيم التـــي أولـــدها المحتـــل وصـــاغها وعبـــث بهـــا، أو التـــي غـــذاها ليشـــتد عـــوده. تغلغلـــت فـــي أوصـــالنا وهواجســـنا، بحيـــث أضـــحت أرواحنـــا معلقـــة بخـــيط اللحظـــة المارقـــة. صـــار المـــوت يحـــيط بنـــا مـــن جميـــع الجهـــات والزوايـــا، يترقبنـــا كقنـــاص يتأمـــل الفرصـــة لينقض علـــى عـــدوه.. ولحجـــم المشـــكل والعقـــد المبثوثـــة بيننـــا كانـــت قـــد فقســـت بيـــوض مخططـــات المحتـــل، تولـــدت أنواعـــا غريبـــة جـــدا مـــن صـــور الظلـــم والأجـــرام والقتـــل والترهيـــب البشـــع، عرفـــت بـــالعنف الملـــون والمـــوت المهجـــن- الأســـود والأصـــفر والأحمـــر الـــوان التصقت بنا.

صـــناعة المـــوت لا يمكـــن وصـــفها وتخيلهـــا، تمثلـــت بقطـــع الـــرؤوس والقتـــل جزافـــا بالرصـــاص الحـــي والخنـــق والتفجيـــر وبتـــر الأيـــادي، واســـتخدام آلات حـــادة والثاقبـــة كالـــدريل، أو بـــالخطف والتنكيـــل والترهيـــب والـــزج فـــي الســـجون الســـرية المظلمـــة لســـنوات عجـــاف، أضـــحت الدولـــة لا تهـــتم بـــالمواطن قـــدر ترســـيخ كرســـي الحكـــم لأمـــد أطـــول. أضـــحت المـــلاوذ تضـــيق أزقتهـــا، والأمـــل تضـــيق فجواتـــه، لقـــد تنـــاءت فســـحة الحيـــاة تحـــت عبـــث الاحـــتلال الأمريكـــي البريطـــاني وفـــرق الميليشـــيات

ومليشيا داعش وغل الاحزاب الطائفية المسيطرة على مقدرات الوطن، بحيث صارت المادة عنوانا لكل المواقع السيادية وهدفا مميزا تسعى خلفه القوى التنافسية. تلك الأحداث دارت كالرحى على رؤوس العراقيين بجميع اطيافهم.

هذه الصور نزر من فيض من صور بلدي البشعة، التي علقت على الجدران، وفي الأذهان، والتي جعلتنا نهرب من قدر الموت الآني لنبحث عن صيغ جديدة للحياة بعيدا عن فك الموت خارج حدود الوطن.

من هناك بدأت ابحث عن وجهة ما ترفل بالقناديل والشموع المتبقية بأيدينا قبل أن تطفأ أنوارها إلى الأبد، ترفأ بالأرواح التي استنشاطت جراء عبث الموت الدائر في الأجواء. ولدت في داخلي فكرة الهجرة... في البدء كانت نطفة ذهنية، ثم مضغة، فنبتت جذورها، وتفرعت أغصانها، حتى غدت تزهر أوراقها. لا فرار لنا سوى في البحث عن أرض لم تُدنّس بعبث السياسة ولا نار الطائفية، عن بقعة تمنح لأرواحنا خلاصًا ولأولادنا أملًا في الحياة.. كانت قد ابتدأت بفكرة غبية، ثم تطورت لتصبح عقدة في الذهن تحتاج لإذكاء وتفسير وتحليل وحل للغزها، بت أتلمسها بأحاسيسي ومشاعري حين تكورت وبانت في الذهن كفكرة مقروءة متكاملة الفصول، لتصبح مشروع نجاة.

لقد تمسكت بتلك الفكرة حفاظا على الرجاء المأمول في ذاتي وإنسانيتي، حفاظا على القيم التي أغدقتها على أبني

وزوجتـــي، حفاظـــا علـــيَّ مـــن التيـــه والغـــرق فـــي ســـيل الفوضـــى العارمة والطائفية.

صـحيح أنــه مــن تــرك داره قــل مقــداره، ولكــن أضــحت الحيــاة فــي وطنـــي مقـــروءة تعابيرهـــا، صـــعب مجاراتهـــا، فمـــا مـــن بـــدٌّ فـــي مجـــاراة الحيـــاة إلا أن ننفـــذ مـــن العقـــد بجلودنـــا، ســـوى أن نركـــب موجـــة القـــدر، أو نمضـــي عكـــس التيـــار إلـــى حيـــث المصـــير المجهول بحثا عن سلة الأمان، مستندين على قوله تعالى..

"هُـوَ الَّـذِي جَعَـلَ لَكُـمُ الْأَرْضَ ذَلُـولًا فَامْشُـوا فِـي مَنَـاكِبِهَـا وَكُلُـوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)" صدق الله العظيم.

طريق الجحيم

إسطنبول 2015

رحلة الهجرة وبحث عن وطن جديد بعد أن تجاوزت جراح الفراق النفسي عن وطني، عقدت العزم على الهجرة، باحثًا عن وطن جديد يحتضنني أنا وعائلتي، وطن يكفل لنا حياة يسودها الحب والأمان والكرامة الإنسانية. وطن يُعلي من شأن الإنسان ويصون حقوقه بدستور عادل. وهكذا، شعرت أنني قد تجاوزت أزمتنا الفكرية والنفسية، ولو إلى حين. كانت وجهتي مدينة إسطنبول، فوصلتها في 20 سبتمبر 2015.

إسطنبول مدينة العراقة والتناقضات، هذه المدينة التركية العريقة، بدأت كقرية صغيرة للصيادين تُدعى بيزنطة، والتي يُقال إن اسمها مشتق من القائد الأسطوري بيزاس الذي أسسها عام 657 ق.م. ثم أصبحت عاصمة للإمبراطورية البيزنطية، وعُرفت لاحقًا بالقسطنطينية نسبة إلى الإمبراطور قسطنطين الأول الذي جعلها عاصمة للروم الشرقيين عام 335 م. وفي عام 1453، دخلها السلطان محمد الفاتح، وأطلق عليها اسم "إسلامبول"، لتصبح عاصمة الدولة العثمانية لقرون طويلة. ومع إصلاحات أتاتورك في عام 1930، تغيّر اسمها رسميًا إلى "إسطنبو

مدينة تجمع بين الماضي والحاضر، إسطنبول مدينة مترامية الأطراف، واسعة، نابضة بالحياة، تجمع بين عراقة التاريخ وحداثة الحاضر. شوارعها وأبنيتها تنبض بروح العصر، بينما تحتفظ بمعالمها القديمة التي تروي قصص حضارات متعاقبة. هي مدينة التناقضات الساحرة: بين الغنى والفقر، بين دور العبادة والبارات، بين العفة والمجون. تجد فيها من يرتدي ثياب التقوى، ومن يغرق في حياة اللهو.

أسواقها تنبض بالحياة اليومية، صخبها لا يهدأ، عامرة دومًا بالحركة، متنوعة البضاعة والاسواق، وتجمع بين الرقي والبساطة. فيها من الفخامة ما يدهشك، ومن الشعبية ما يألفه قلبك.

تحتضن جمال الطبيعة وروعة الطقس، بتقاسيمها تبدو إسطنبول كأنها فتاة ناضجة، فاتنة، لا تُوصف بجمالها. تضاريسها ناعمة، طقسها معتدل، خلجانها صافية، صيفها هادئ، شتاؤها نـدِيّ، وهواؤها نقي. مناظرها الطبيعية تأسر القلب، وأهلها يتميزون باللطف والرقي. مطاعمها فاخرة، وأكلاتها الشرقية شهية، تروي الحنين وتُشبع الذائقة. ولهذا كله، يسمو أهلها برقيّ لا يقل عن تاريخها، ويغدو حضورها لوحةً لا تملّها العين، ولا تكفّ عنها الذاكرة.

هي عروس البوسفور، ساحرةٌ هي منتجعاتها وجزرها مترامية على ضفاف البحر، عبق مُنعش يفيض من سواحلها وغاباتها، فيما يبدو خليج البسفور الرابض في وسطها كتمساح ضخم وهو يبتلع البواخر والسفن المارقة في

حوضـه، ذلـك الخلـيج الـرابط بـين بحـر الأسـود شـمالا وبحـر الأبـيض المتوسـط جنوبـا، والفاصـل بـين قـارتي آسـيا وأوروبـا. يشـطر المدينـة بشـكله الأخطبـوطي الممتـد علـى جسـدها إلـى شـطرين، جـزء أوربـي وآخـر آسـيوي، بحيـث يضـفي عليهـا جاذبيـة لا تنفـك عنهـا، فيمـا تـربط بـين شـطري المدينـة ثلاثـة أو أربعة جسور عملاقة، تسهل التنقل بين ضفتي المدينة.

□ أمـا خُضـرتها فبسـاطٌ ممتـد لا يعـرف الـذبول؛ أشـجار دائمـة ونفضـية تتـراقص فـي نسـيجٍ طبيعـي متنـوع: مـن صفصـافٍ وبلـوطٍ وصـنوبر، إلـى الزينـة والفاكهـة، والزمزريـق والدفلـة والأرجـوان، وورودٍ مبثوثـة فـي الشـوارع والحـدائق والضـفاف، تفيض بهجةً وتألقًا.

اسـتأجرت فنـدقا فـي حـي (آق سـراي) فـي وسـط المدينـة، فـي منطقـة وسـطية تجمـع بـين الرقـي والشـعبية، لا تبتعـد كثيـرا عـن مسـجد سـلطان أحمـد المعـروف قـرب متحـف آيـا صـوفيا المجـاور لـه، إضـافة إلـى قربهـا مـن السـوق الشـعبي المسـمى بالسـوق المصـري الـذي يمتـد مـن مينـاء أمينينـو لينتهـي بمنطقـة بيـازت المحاذيـة لآق سـراي، والتـي يكمـن فيهـا السـوق القـديم (كرانـد بـازار) سـوق راقـي لبيـع الحاجـات التراثيـة والتحـف القديمـة. وهـو لا يبتعـد عـن **آق سـراي** سـوى دقـائق، حيـث يـربط بينهما ذات الشارع.

مـن الجهـة الشـرقية تـرتبط شـوارع آق سـراي بأسـواق شـارع فـاتيح المفعمـة بالمنتوجـات الحديثـة الراقيـة مـن ألبسـة نسـائية ورجاليـة وحاجـات إلكترونيـة وكهربائيـة، إضـافة لاتصـال **آق**

سراي بمطار أتاتورك عبر خط المترو الذي ينتهي به. كما هي قريبة جدا من ميناء **ياني قابي** شمالا والذي منه تنطلق السفن القاصدة لجزر الأميرات ومدن الجنوب مثل بورصا ويالوفا ..الخ. إضافة إلى أن أسواق **آق سراي** يشيع بها بيع بضائع الجملة والمفرد.

بعد المكوث في حي **أق سراي** والمبيت بفندق **مليتا** ليلتين، التقيت بشابين عراقيين أحدهم أسمه صادق والآخر حسام كان برفقة عائلته، حيث كانت لي معرفة بوالد وسام.. حين التقينا أتفقنا أن نبحر معا في رحلة العبور إلى اليونان، كان حسام برفقة زوجته وحماته وأطفاله الثلاثة فيما كان صادق حرا طليقا.

اندمجت معهم لصلة حسام الحميمية بالمهرب الذي سيتولى أمر نقلنا لغاية اليونان، كما أني كنت بحاجة لونيس يذلل صعوبات الطريق أمامنا، مثلما هو كان بحاجة لمساعدة شخصية لأخفف عنه عبء الطريق، فوجد فيَّ وفي أبني سندا له نرفع عن كاهلهِ هموم ومأساة الرحلة القادمة، أي أن المنفعة كانت متبادلة.

وفي الليلة الثالثة اخبرنا المهرب بضرورة التجمع بشكل مجاميع صغيرة من خمسة أو ستة أشخاص على رصيف الشارع الرئيسي أمام الفندق حيث تكمن ساحة وسطية يتجول بها الباعة المتجولين تحت نصب كبير يمثل نصب الشهيد في المدينة، كي لا نلفت أنظار الشرطة السرية إلينا تحت جنح الظلمة..

كان الرصيف مزدحما بالباعة المتجولة وجمهور من الناس، حيث المنطقة ينسحب منها رجال البلدية والشرطة السرية بعد ساعة الغروب، عندها الباعة يتنفسون الصعداء فيعرضون منتجاتهم تبعا لرزقهم.

سارت اتصالات المهرّب مع حسام وصادق بسلاسة عبر هواتفهم النقالة، ولم تمضِ سوى دقائق حتى اصطفت أمامنا خمس أو ست سيارات أجرة. لقد تعرّفوا علينا بسهولة من خلال ملامحنا وهيئتنا المختلفة وحقائبنا الجاهزة. ما إن توقّفوا عند الرصيف، حتى صعدنا معهم إلى جانب مجموعات أخرى، استعدادًا للانطلاق إلى مرآب "أوتوكار" المركزي، حيث من خلاله يتم نقل المسافرين إلى بقية المدن التركية بواسطة الحافلات.

شقّت سيارات الأجرة طريقها بمهارة عبر الشوارع، مناورة تلو الأخرى لتفادي أعين الشرطة، وكأننا نعيش مغامرة قصيرة من فيلم الهروب. وبعد نحو عشرين دقيقة من الترقب والتوتر، وصلنا أخيرًا إلى المرآب. هناك، كانت العيون تراقبنا، والألسن تهمس وتدلّنا على الحافلات التي ستنقلنا إلى وجهتنا. وجهتنا كانت مدينة إزمير الساحلية الجنوبية.

في تلك اللحظة أدركت أن التهريب لا يقتصر على شخص "المهرّب"، بل هو حلقة من شبكة معقدة ومتداخلة، تشمل قوى خفية لا تظهر للعلن، وبعضها على صلة بعناصر من أجهزة الدولة الأمنية. المهرّب في النهاية، ليس سوى الواجهة

لهـؤلاء، يُسـتخدم فقـط لتجميـع المهـاجرين مقابـل نسـبة ضـئيلة من المبلغ الذي يدفعه المهاجر.

اقتطعنـا بطاقـات الرحلـة بسبعين ليـرة تركيـة- ثمـنٌ زهيـد مقارنـة بمـا كـان ينتظرنـا يعـادل 25 دولارا امريكيـا. جلسـنا، أنـا وابنـي، فـي قلـب الحافلـة المعـدّة بعنايـة لتبـدو وكأنهـا تحملنـا إلـى فـردوسٍ مكيّـفٍ لا إلـى المجهـول، إذ احتـوت علـى شـبكة واي فـاي، ومقـابس شـحن، وبـراد مـاء، وكراسـي هيدروليكيـة ناعمـة تسـمح لنـا بالتمـدد لمجـاراة الرحلـة الطويلـة التـي تتجـاوز تسـعة سـاعات... لكنهـا لـم تكـن تعلـم أنهـا سـتكون البدايـة والخطـوة الأولى لعبورنا المجاز عبر "طريق الجحيم".

تحركـت الحافلـة التـي تحمـل علـى متنهـا قربـة أربعـين مسـافرا بحـدود التاسـعة مسـاءً مـن المـرأب، انطلقـت بنـا خلـف قافلـةٍ مـن مركبـات تتّجـه جنوبًـا صـوب أزميـر، تقودنـا الطـرق الضـيقة عبـر جسـد إسـطنبول المتعـب. وبعـد ثـلاث سـاعات مـن المسـير المتواصـل، بلغنـا خـورًا بحريًّـا يـرتبط ببحيـرة مرمـرة، قاطعـا الطريـق المـؤدي إلـى الجنـوب مـن وسـطه، وكـان لزامـا علينـا أن نـدرك العبـارة الجاثمـة فـي الخـور والمُعَـدة لنقلنـا للضـفة الجنوبيـة قبـل موعـد تحركهـا. وصـلنا بالوقـت المناسـب. حيـثُ تسـكن العبّـارة كـوحشٍ مـن حديـد ينتظـر أن نلـج فـي جوفـه لينقلنـا للضـفة الثانيـة. كنـا آخـر مـن صـعد العبـارة، مـا أن ارتقينـا العبـارة حتـى تحركت عن رصيفها..

وما إن استقرّت الحافلة في جوف المعدن العملاق، حتى أطلق الكابتن صافرة الرحيل... وبدأت الرحلة، لا جنوبًا فقط، بل إلى قلب الحكاية.

استغرقت العبّارة في عبورنا من الضفة الشمالية للخور إلى ضفته الجنوبية عشرين دقيقة، حملتنا خلالها رياح البحر ونظرات الترقب مع النسيم الهادئ وضوء القمر. كنا آخر حافلة تغادر المرأب، لا نتوقع أننا على وشك أن نتصدر المشهد. لكن المفارقة الجميلة هي أننا حين ترجلنا من العبّارة، أصبحت حافلتنا في مقدمة الركب، متصدرة القافلة التي اتجهت صوب مدينة إزمير. وكل حافلة خلفنا تحاول اللحاق بإيقاعنا المتسارع دون أن يسمح سائقنا أن يتجاوزوه.

وصلنا إزمير قبيل الثامنة صباحًا، مثقلين بالإرهاق، لكن مشبعين بحس المغامرة. إحدى عشرة ساعة مرت منذ انطلاقنا من فندق ميليتا في آق سراي، تخللتها بعض التوقفات، لكنها لم تُنقص من وطأة الطريق ولا من سحره المتغير.

تم توجيهنا إلى منطقة **بسمالة** في وسط المدينة حيث أستأجرنا فيها فندقا مميزا يقع موقعه مقابل محطة قطار أزمير وقريب من أسواقها الشعبية.

في اليوم الأول من تجولنا في المدينة الجميلة برفقة صادق وحسام، بدأنا بشراء مستلزمات رحلتنا: دواليب سيارات بأحجام مختلفة، سترات نجاة، وحبال لربط الأمتعة بإحكام.

ولمواجهة برد الليل خلال عبورنا البحر، اشترينا قفازات صوفية وقلانس من متجر يقع تحت الفندق، كل ذلك كان بتاريخ 2015/09/22.

أثناء التسوق، دار نقاش حاد بيني وبين حسام حول المال الذي ما زال محفوظًا في جيوبنا، واتفقنا على ضرورة عدم الالتزام بمهرب بعينه. فقد اتُفق بين الجميع على أن المهربين ليسوا سوى مجموعة من اللصوص والنصابين، هدفهم الأول والأخير هو جمع المال دون أدنى اعتبار لراحة أو سلامة المهاجرين.

قلت لحسام: –

- لا تربط نفسك بأبي علي. دعنا نغتنم أول فرصة ونبحر مع أي مجموعة من المجموعات التي تجوب الشوارع. لا يمكن الوثوق بهؤلاء المهربين، فهم لا يبالون إلا بما يملأ جيوبهم.

أجابني بثقة: –

- لقد اتفقت مع أبي علي، وهو رجل ثقة. فقد نقل مجموعة من معارفي الشهر الماضي، وكان من بينهم أخي.
- لا بأس، لكن إن وجدنا من هم أكثر جدية منه وينقلون الناس بسرعة، فلنتفق معهم. فحتى الآن، لم يخبرك

صديقك هذا عن موعد الرحلة، وربما ينتظر جمع المزيد من الزبائن لتكون الرحلة دسمة.

- والله كلامك دقيق يا عمر. أتفق معك تمامًا، دعنا نذهب إلى أماكن تجمع المهاجرين ونتحرى بأنفسنا عن الرحلات.
- وهو كذلك.

بينما كنا عائدين إلى الفندق نجرّ خطانا المثقلة ونحمل بضاعتنا بأيدينا المتعبة، اعترض طريقنا رجل أربعيني، تركيّ الملامح، يتقن العربية بتمكّن يثير الدهشة. كان يعتمر قميصًا رماديًا فضفاضًا تكسوه التجاعيد، بأزرار ناقصة، وبنطلون بني ملوّث بأملاح البحر وطين الطريق، كأنه قادم من جوف البحر، رائحته تحمل عبق الأمواج والطين اللازب في حجله ونعليه.

صاح بنا من الجهة المقابلة للشارع ذي المسارين: ---

- السلام عليكم.
- وعليك السلام.

عبر الطريق إلينا بخطى حذرة، يداري الأمر وكأن أسرار البحر تسكن جيوبه. فالحديث في مثل هذه الأمور لا يُجهر به، والعيون التي لا ترحم تترصّد المهربين والمهاجرين على حد سواء؛ العيون التي لا تبحث عن عدالة بقدر ما تبحث عن صيد ثمين، رشوة تُنتزع، أو أمتعة تُصادر ثم تُباع خفية

للمتـــاجر بســـعر أدنـــى... وكلمـــا دارت الـــدائرة، وجـــد المهـــاجر نفسه فريسة لحلقات لا تنكسر من الاستغلال.

قال لنا..

- يـا أخـوان أن كنـتم فـي عجلـة مـن أمـركم، هـذه الليلـة هنـاك رحلة معدة للعبور...
- ممتاز كم تأخذ أجرة العبور عن الفرد؟ - سأله حسام.
- 1500 دولار.
- لكن هذا المبلغ أكثر من الرائج بين المهربين؟
- هذه الأسعار هي المتاحة، نحن نأتمر بما يملى علينا.

سأله صادق وعدم الرضا واضح على محياه..

- وما دورك في العملية؟ هل ممكن أن تخبرني؟
- أنا سمسارا، وكيلا للمهرب.
- يـا طيـب أعطنــا رقــم هاتفـك، سـنناقش الأمــر بيننــا، فــي حالة اقتناعنا سنتصل بك--- طلبت منه ذلك
- تفضلوا..01200100010
- شكرا لك مع السلامة.

حقيقـــة هـــذا الشـــخص كـــان مواربـــا، أراد اســـتغلالنا كونـــه وجـــد لـــدينا الرغبـــة الأكيـــدة فـــي العبـــور بعـــد أن وجـــد مقتنيـــات العبـــور ومســـتلزمات الرحلـــة محملـــة علـــى أكتافنـــا.. لقـــد شـــككت بـــه كونـــه كـــان منظـــره مرعبـــل مشعشـــع لا يســـر، ولا يـــنم علـــى أنـــه صـــاحب قـــرار، ولا لـــه القـــدرة الحقيقيـــة علـــى إدارة دفـــة الرحلـــة. ثـــم أكثـــر

الذين عبروا كانوا قد أبلغوا زملائهم ومعارفهم بأجرة الرحلة التي تتراوح بين ألف إلى ألف ومائتي دولار.

لذا طلبت من حسام وصادق غض النظر عنه، فأنه لا يبدوا عليه مدركا حقيقة عمله، أو ربما أنه نصاب يود استغلال رغبتنا الملحة بالعبور ليملأ جيبه ببعض الدولارات الغير مستحقة فهم جميعا يستغلوا الغرباء ابشع استغلال. أقتنع حسام بوجهة نظري معقبا على كلامي قائلا...

- شكله لا يشجع أن نخاطر بأرواحنا معه.
- صدقت فأن قلبي لم يطاوعني على مرافقته، حيث القلب هو أصدق دليل للإنسان في أوقات الشدة.

بمجرد أن تركناه يسلك طريقه المعاكس، طوينا صفحته من ذاكرتنا، بل نسيناه تمامًا. وما إن دخلنا الفندق لنأخذ قسطًا من الراحة قبل أن نبدأ باستكشاف قوافل المرتحلين المتجمعة عند دوار النافورة، حتى رن هاتف صادق. كانت المكالمة من المهرب "أبو علي"، يخبره فيها بضرورة الاستعداد لليوم التالي، إذ تم تحديد موعد رحلة عبور البحر. صادف ذلك الليلة الفاصلة بين 22 و23 سبتمبر 2015، ليلة عيد الأضحى المبارك.

على الفور، بدأنا بتجهيز أنفسنا وربط حقائبنا بإحكام، وأخفينا جوازات السفر داخل الجيوب السرية للحقائب. كنا قد اتفقنا مسبقًا أنه في حال ألقت الشرطة القبض علينا، سندّعي أننا سوريون. فقد كان الأتراك يميزون بين السوريين وغيرهم؛

إذ يُودع غير السوري السجن تمهيدًا لترحيله إلى بلده، كما حدث مع عائلتين عراقية وإيرانية كنا قد تعرفنا على أحد أفرادها. أما السوريون، فكانت الشرطة تتعامل معهم بتعاطف بناءً على تعليمات حكومية.

كنا قد قضينا يومنا الأخير كيفما نشاء متجولين في شوارع مدينة أزمير ومطاعمها القريبة من الفندق.

1- ليلة المغامرة

في مساء اليوم التالي، ومع اقتراب عقارب الساعة من الخامسة، اتجهنا نحو دوّار النافورة القريب، لا تفصلنا عنه سوى خطوات معدودة. تجمعنا هناك، أمام مكتب السفريات المتمركز في قلب الدوّار، انتظاراً لانطلاق الرحلة المرتقبة نحو فضاء الهجرة الغامض.

ما أن أدركنا مكتب السفريات حتى توافدت العناصر الراغبة بالهجرة من كل حدب وصوب، عراقيون وسوريون، أفارقة وأفغان، كلهم يتشكلون في تكتلات صغيرة من أربعة أو خمسة أفراد يحتلون المساحة الضيقة للرصيف، متفرقين ومتقاربين في آنٍ واحد. وقد طُلب منا ألّا نطيل البقاء، تحسباً لأي مداهمة أمنية مباغتة.

كانت الوجوه تنطق بصمتها... ملامح مطلية بطبقة رقيقة من الخوف، تغلّفها الحيرة وتعلوها علامات القلق من مصير مجهول ينتظرهم على ضفاف بحر إيجة. وجوه رسم البؤس عليها مسكنه، تُخفي خلفها قرارات مصيرية محمّلة بجرعة مجنونة من المجازفة. يكتنفها شك ماثل في عبثية القرار المتخذ من قبلهم والكامن في قدرية الفكرة العصيبة، لقد ضاعت العاطفة بين هَباب التذمر ونزعة التهور المجنة – فعبور البحر ليس مغامرة فحسب، بل مقامرة بين الحياة والموت، بين الرجاء والاستسلام. كان التوتر سيد اللحظة، والتردد رفيق كل خطوة.

التشنج ماثل في فكر ووجه كل فرد من أفراد المجاميع دون تمييز، كل منا يحسب الليلة القادمة ستكون ليلته الأخيرة دون شك، سوى هؤلاء الأطفال الذين يتوقعون بأننا ذاهبون في نزهة سياحية.

كانت النفوس مضطربة، القرار وقِّعَ عليه باليقين في قرارة نفس كل منا، هناك احتمال فشل واحتمال نجاح، الفشل يعيدنا لنقطة الصفر بعد أن يفتت غزل الاحلام، فيما النجاح يفتح أمامنا صرة فرص الحياة. القرار المتخذ حتمي، لا رجعة فيه بتاتا، لقد قطعنا شوطا طويلا من مشوار الرحلة، فما علينا سوى تكملة المشوار الذي بدأناه.

وُلد الإصرار على عبور البحر من رحم المعاناة، من قلب المأساة المتقدة في الوطن. لم يكن القرار لحظة تهوّر، بل نداءً خفيا من أعماق النفوس، يدعو إلى تجاوز حالة نفسيّة أنهكتها الخيبات. كان في الأفق وعدٌ بحياة فاضلة، ولو خلف ضباب البحر الغامض. ورغم شبح المجهول الذي يلفّ الطريق، ورغم زحام حلقات الخوف التي لا تنفك تتسع وتبتلع الطمأنينة، لم يكن ثمة خيار سوى المُضيّ للأمام. القلق كان حاضرا في قلوب الجميع، شاخصا في العيون. عبور البحر بحد ذاته يعتبر مغامرة، بل مجازفة بحياتنا وحياة الأطفال المرفقة معنا، صورة تفوق التصور والخيال.

لم تكن مرحلة العبور مجرد انتقال من ضفة إلى أخرى، بل كانت عبورًا بين الحياة والموت. أرعبتنا الفكرة، أرعبنا البحر، وأرعبنا ذلك المهرب المهلهل الذي عزف على أوتار

ضعفنا وهو يحاول أن يغوينا بسرعة العبور، وكأن النجاة تكمن في التهور.

كنا على وشك أن نكون من بين ركاب ذلك القارب، ذاك الذي غادر الأمس نحو الجزر اليونانية، حالمًا بحياة جديدة. لكن البحر لم يكن رحيمًا، ولا القارب كان جديرًا بالثقة. غرق في منتصف الطريق، وابتلع معه أرواحًا كانت تحلم كما نحلم، وتخاف كما نخاف.

حمداً لله على البصيرة التي أنعم بها علينا. حمداً لله الذي أنقذنا من لجّة ذلك المعتوه، من قراره الأرعن، من مصير كاد أن يكون مصيرنا. لم يكن قرارنا سهلًا، لكنه كان صائبًا. تراجعنا في اللحظة الأخيرة، لا بدافع الجبن، بل بدافع الحياة.

اليوم، ونحن نسمع أسماء الضحايا، نشعر بأننا كُتب لنا عمرٌ جديد. نشعر بثقل النجاة، وبمسؤولية الحكاية. فليس كل من نجا حيّ، إلا من روى.

حينها باركت لحسام وزوجته:..

- مبروك علينا وعليكم، كان من الممكن أن نكون في عداد المفقودين، لا بل من الموتى، آلم أقل لك بانه ليس جديرا على إدارة دفة رحلة العبور؟
- نعم وأنا تجنبته لنفس السبب، إضافة للمبلغ المبالغ به الذي طلبه منا. الحمد لله على كل شيء.

رغم الخوف الذي يغشى وجوهنا، والذي يكتم على أنفاسنا، الكل كان جازما على خوض التجربة، كي لا يعود أدراجه لحالة الفوضى والهوان في ربوع وطنه، الكل ينتظر ساعة الفرج لحالة عسر شملتنا جميعا، الكل ينتظر لحظة بدأ مشوار الرحلة..

في تلك اللحظة، كان وكيل المهرب يدور بيننا كمن يجمع الحطب لنار لا يعلم متى ستشتعل. كان يحمل دفترًا صغيرًا، يسجل فيه الأسماء ويجمع النقود من المهاجرين كأنه يجمع أرواحهم. حسام، الذي أقنعني بأننا سنُسجّل كعائلة واحدة، طلب مني الأجرة ليضيفها إلى أجرته. لم أتردد حينها. وثقت به كما يثق الغريق بقشة.

بعد دقائق، اصطفت مجموعة من سيارات الأجرة أمام مكتب السفر. تم توزيعنا على الجمع بعشوائية مدروسة. حسام وعائلته ركبوا إحداها، بينما ركبت أنا وابني وصادق في أخرى. لم نكن نعلم إلى أين نحن ذاهبون، فقط علينا أن نتحرك من تلك البقعة نحو المجهول.

في عجلة التكسي، جلست بجانب رجل بدا عليه القلق، ترافقه زوجته. سألته بهمس:

- كم دفعتم للمهرب؟

أجابني دون تردد:...

- 1200 دولار عن كل شخص.

كأنما صعقني بكلماته. تجمدت ملامحي، نظرت إليه بدهشة:

- صاحبي طلب مني 1300 دولار عن الشخص الواحد! قال إن الوكيل طلب منه ذلك. دفعت له 2600 دولار عني وعن ابني... وثقت به وثوقا أعمى. استغل طيبتي، وسرق من جيبي 200 دولار في لحظة غفلة.

حاول الرجل تهدئتي:

- لا تسيء الظن، ربما هناك لغط. تقصد ذلك النحيف الذي كان يقف بجانبك؟
- هو بعينه، بقميصه الأزرق.
- يبدو عليه الورع والوعي، كيف يفعل ذلك ونحن ذاهبون لمواجهة الموت؟
- ذلك ما لم أتوقعه. خدعني بلسانه. فات الأوان. نحن الآن في طريقنا إلى نقطة التهيؤ، إلى المجهول. أحيانًا، الثقة الزائدة بالآخرين تنعكس علينا كطعنة. يجب أن نرى بصغائر الأمور بعين ثاقبة، فالأشواك لا تُرى إلا حين تجرح.

*****

المتنزه....

تم نقلنا من عند دوّار النافورة، بعجلات تعمل في الظل، ضمن شبكة منظمة من المهربين. ليكون عبورنا البحر مخطط له على مراحل، وكانت أولى المحطات متنزّه مهجور

يجاور الكورنيش العام، حيث تُخفي الطبيعة هناك مرارة الغربة. لم تكن الرحلة مجانية، بل كان على كل منا أن يدفع أكثر من مجرد أجر الطريق. فرض السائقون علينا بقشيشاً قسرياً- عشرة ليرات عن كل رأس-فوق أجرة النقل، كضريبة صمت على ما لن يُقال. لم يكن ذلك إلا انعكاساً لخبث المعاملة الذي يحسن به بعض الأتراك ابتزاز الغريب، مستغلين ضعفه، واحتياجه، وصمته المجبور.

كان السكون بيننا ثقيلاً، يشبه صمت الخشب على كتف النهر، كل واحد يحمل خوفه في صدره ويخفيه خلف نظرات شاردة. لا أحد يسأل، ولا أحد يجيب، فالأسئلة في مثل هذه الطرق لا فائدة منها.

المتنزه حديقة مترامية الأطراف، تمتد بظلال أشجارها كأنها تحاول أن تخفي وجودنا عن عيون لا نعرف من أين قد تأتي. كانت متاخمة لشاطئ البحر، مما يجعلها مقصداً طبيعياً للناس في أيام العطل والمناسبات. لكننا دخلناها بعد غروب الشمس، في ليلة عيد الأضحى المبارك، وكانت مهجورة إلا من همس الرياح وأصوات خطواتنا المترددة.

الحديقة حديثة العهد، لا إنارة فيها، لا ضوء يرشد ولا دفء يطمئن. كنا نتسلل كالأشباح بين أغصانها، نتحرك بخفة من خشيته أن يُسمع وقع أقدامنا، ومنّا من تشبث بتراب الأرض كي لا ينزلق في طريق لم تُرسم معالمه بعد. في تلك الليلة، لم نكن مهاجرين فحسب. كنا غرباء في زمن العيد، نحمل العيد

فــي ذكريــات بعيــدة، بينمــا نخبــئ وجوهنــا فــي العتمــة حتــى لا نُرى.

الطريق إلى الجنوب – الجزء الثالث

دخلنــا الحديقــة علــى عَجَــل، نتلفّــت كمــن يطــارد ظلّــه، نخشــى أن تتبصّـــص علينـــا أعـــين المـــارقين مـــن شـــياطين رجـــال الأمـــن والشــرطة، الــذين يكفــون عــن الظهــور فقــط حــين يكــون الخــوف حليفهم الأقوى.

حـــين وصـــلنا إلـــى أطرافهـــا، لمحنـــا البحـــر... ســـاكنٌ لا يشـــبه العاصــفة التــي فــي صــدورنا. توقعــتُ، بــل تمنيــت، أن نُبحــر مــن هــذه النقطــة. بــدت بعــض قــوارب الصــيد الصــغيرة كأنهــا مفــاتيح للهروب، تمخر عباب المياه بخفةٍ لا نملكها.

التفــتُّ إلـــى زمـــرة مـــن الشـــباب المهـــاجرين الجالســـين جـــواري، تمتمــتُ متســائلاً: - إن كنــا ســنعبر مــن هنــا؟ لا أحــد كــان يعلــم، لا خارطــة فــي اليــد، ولا وعــد أكيــد. بــدا الجميــع فــي تيــهٍ مــن أمــره، كأنمــا نُقلــت بنــا الحيــاة مــن أرضٍ مألوفــة إلــى مســرح بــلا مشــهد ولا نهايــة مكتوبــة. كنــا نجهــل أبجــديات الرحلــة، وكــل مــا ينتظرنــا كـــان مجهـــولاً يأخـــذ شـــكل المـــدى، وصـــوت المـــوج، ولـــون الغروب حين يلتقي بالخوف.

وبينمــا كنــت جالسًــا وســط تلــك الشــلّة، محاطًــا بأجســاد تحــاول التماسـك تحـت وطـأة الانتظـار، كـان فكـري يـدور فـي فلـك آخـر.

لـم أسـتطع أن أتجاهـل الشـك الـذي تسـلّل إلـيّ تجـاه حسـام، ذلـك الغمـوض الـذي انكشـف مبكـرًا... فـي أول خطـوةٍ تخطيناهـا معًـا، حـين كـذب علـيّ بخفـة، واسـتغل طيبتـي ليبتـزّ منـي مـائتي دولار بلا وجه حق.

ربمـا ظنّهـا لحظـة ربـح سـريع، لكنـه لـم يـدرك أن مـا يُبنـى علـى الخديعــة لا يلبــث أن ينهــار فــوق رؤوس فاعليــه. لــم يفكّــر أن لتلـك الخطـوة ثمنًـا، سـيرتدّ عليـه وعلـى أطفالـه، ولـو بعـد حـين. فالغُلـة لا تسـتمر فـي بيـوت الخبـث، والـرزء يختـار طريقـه نحـو القلوب المثقلة بالأنانية.

حـين وصـلنا المتنـزّه، كشـفت نوايـاه، حيـث لـم يقتـرب منــي، لـم يُشـاركنا حتـى لحظـة قلـق واحـدة. خبّـأ نفسـه وعائلتـه فـي أحلـك زوايـا العتمـة، كأنـه يعلـم أنـه لا ينتمـي إلـى هـذا الصـمت الـذي يجمعنـا. كـان بيننـا جسـدًا، لكنـه غائـب روحًـا. لقـد انتظرنـا هنـاك سـاعة ونصـف، كـل دقيقـة تمـر كأنهـا تـنهش مـن أعمارنـا قطعـة. والبحر على مرمى البصر... بلا إجابة.

فــي تلـك الليلـة، ليلـة العيـد بـين 22 و23 مـن أيلـول عـام 2015، قسـمنا كمجموعـات صـغيرة- خمسـة إلـى سـتة أفـراد- متنـاثرين فـي أرجـاء المتنـزه كأننـا نقـاط ضـوء فـي لوحـة ليليـة بـلا أنـوار. أرادوا لمــن يتأملنــا مــن بعيــد أن يــرى مشــهدًا طبيعيًــا، عاديًــا، عائليًـا. لكـن مـا كـان يبـدو عاديًـا للعيـون، كـان اسـتثنائيًا للقلـوب. النسـيم لطيـف، الليـل هــادئ، وكــل شــيء مــن حولنــا يــوحي بالعيــد... إلا قلبــي. كانــت تلــك أول مــرة أفــارق فيهــا رفيقــة عمـري، التـي أنهكهـا المـرض، وفـرض عليهـا الظـرف أن تبقـى.

تركتها في الخلف وأنا أجرُّ ظلي، وأمشي مع ابني الذي تبعني ببراءة مطلقة، لا يدري أن خطواته الصغيرة ترافقني إلى مستقبلٍ لا أعرف معالمه.

أمسكت يدي، وأنا أمسك في صمتي خوفًا لا اسم له. كنت أقاوم فكرة الرحيل، لكنَّ الفكرة كانت أقوى من الإرادة، ها هي الليلة تُؤرِّخ بداية الفراق المؤقت، وتعلن أن حتى أجمل البدايات، قد تبدأ بالحزن.

انتظرنا هناك، في تلك البقعة المعزولة من المتنزه، ساعةً ونصف مضت على سقوط الشمس في هاوية الغروب. كان الظلام قد بسط رداءه الثقيل على الأرض، وانطمست ملامح الأشياء في عماءٍ كامل، حتى صرنا لا نعرف وجوه بعضنا إلا من خلال الهمسات. بدا أن الليل قد سدّ كل ثغرة للضوء، وكأن الدجى قد دُقّت أوتاده بيننا وبين السماء. كان القمر قد زاغ بشهقة أنفاسه خلف حاجز الدنيا، ولم يبزغ أبدا في تلك الليلة، كأنه نسي موعده، أو اختبأ خلف جدار العالم يتنهّد بصمت في قوس محاقه، بينما غلّفت السماء بسحبٍ متناثرة تتكئ على بعضها في حزن ثقيل. وكنّا هناك... ننتظر، بأرواحٍ تتلفّت، وأفئدة تخمن شكل الغد.

كان المتنزه حديث المنشأ، عاريًا من قناديل الضوء، بلا أعمدة تهدي العابرين سبيلهم. امتزجت حركة الناس في العيون بأطياف الأشباح، تتسلّل بين ظلال الأشجار كسّرابٍ من حياةٍ مؤقتة. لا تهجس بالمجاميع المتناثرة إلا كُوًى

ســوداء فــي نســيج الليــل، أو كــأكوام قــش متواريــة تحــت الشجيرات البرية.

قـابعين كنّـا تحـت الأشـجار المصـطفة بإتقـانٍ غريـب-هندسـةٌ تنتمـي للعتمـة أكثـر مـن النـور- ننتظـر إشـارة الانطـلاق، إقـلاع الحلـم، أو نـداء الفجـر. وفـي صـدورنا توهجـت الشـكوك كشـرارات علـى فحـمٍ مبلـل، تخشـى أن تكتشـفنا دوريـةٌ عـابرة فتنهـي كـل شـيء، كـل مـا حلمنـا بـه، ويصـبح مـا سـعينا إليـه حكايـة تذروها الريح خلف هاجس كانَ.

علـى بسـاط الحشـائش، تمـددنا أو افترشـنا الأرض قعـودًا، جمعنـا الحـذر قبـل أن تجمعنـا الألفـة. لـم نكـن نعـرف بعضـنا مـن قبـل، لكـنّ الصـدفة الرحيمـة نسـجت بيننـا خيطًـا دافئًـا مـن الفضفضـة. راح كـلٌّ منّـا يـروي قصّـته... يحـلّ خيطًـا مـن شـجونه ويعقـد آخـر بالأسـباب التـي سـاقته إلـى هـذه المغـامرة. تحـدّثنا، تعارفنـا، وتسـلّينا بقتـل الوقـت حتـى أهـدانا الليـل وجهـه الحالـك، فغمرنـا بظلالـه القاتمـة. مـنهم مـن ادّعـى الهـروب مـن بطـش "داعـش"، وآخـر مـن قمـع السـلطة، وثالـث هربتـه النزاعـات الكرديـة - العربيـة، أو الكرديـة - التركيـة. سـوريٌّ، عراقـيّ، لبنـانيّ، أفغـانيّ، إفريقـيّ، وغيـرهم... تعـدّدت الأوطـان، واختلفـت الجنسـيات، لكـن الألـم واحـد. تحـت عبـاءة الليـل، امتزجـت الحكايـات بـالحنين، والخسـارات بأطيـاف الرجـاء. كـلٌّ يحمـل جرحًـا لا يُـرى، وكأنّـه تـذكرة عبـورٍ مـن وطـنٍ لفظـه، أو حـربٍ طردتـه، أو ظلـمٍ سـحقه.لا أحـد يختـار أن يكـون لاجئًـا أو

مطـــاردًا أو منكســـرًا... لكـــنّ الإنســـان، فـــي أضـــعف لحظاتـــه، يختار أن يحيى.

كـان الهـم الكابـد علـى النفـوس هـو القاسـم المشـترك بيننـا، نكـاد جميعـا نشـترك بتلـك الأزمـة التـي عصـفت بشـعوب المنطقـة وأدت إلـى دمـار القواعـد التـي نسـتند عليهـا فـي ديمومـة راحـة البـال والسـعادة. فالـدمار الـذي لحـق بـالوطن والمجتمـع دعـا هـؤلاء يبحثـون عـن صـيغة جديـدة للحيـاة تكفـل مصـيرهم ومصـير أبنـائهم وأهـاليهم خلـف شـائعة الحريـة والامـان فـي اوربا، ذلك بعد أن لسعوا بالنار التي أضرمت بجسد الوطن.

جميعـا شـقّوا طـريقهم، كـلٌّ بجـرحٍ يشـبه الآخـر، نحـو مـلاذٍ يُنقـذهم مـن واقـعٍ طـاحن. مـرّوا بالمصـاعب ذاتهـا، تقاسـموا الألـم ذاتـه، حتـى تمكنـوا مـن الإفـلات مـن واقـع ظـرفهم البـائس ليصـلوا إلـى تركيـا بسـلام، لكـن لـم يتخلصـوا مـن تبعاتـه. بعضـهم قـدم مباشـرة مـن قلـب الحـدث، دون زادٍ فـي الجيـب يـذلّل وعـورة الطريـق. وآخـرون اسـتكملوا رحلـةَ هجـر تعرضـوا لهـا داخـل أوطـانهم، قبـل أن تُلقـيهم الـريح بعيـدًا عنهـا. والمـؤلم حقًّـا، أن كـل تلـك الطاقـات... تلـك العقـول، والمهـارات، والقلـوب المشـتعلة بحلـم الانتمـاء. أفلتـت مـن بـين يـدي أوطانهـا. لـم يُسـتفد منهـا، بـل فُقـدت وسـط دوامـة مـن صـراعات عبثيـة، وتخـبط سياسـي، وسـوء تخطـيط، ومطـامع السـلطة المتنقلـة علـى كـراسٍ متحركـة لا تثبّـت عـدلًا، ولا تُنجـب تغييـرًا. ثـمّ تـأتي الأطمـاع الخارجيـة، لتزيـد الطـين بلـة، تسـتغل الخيـرات وتُغـذي الأزمـات، وتمـنح عقـدًا جديـدة لأرضٍ مُثقلـةٍ بمـا يكفـي. تلـك العناصـر سيسـت

أرضـــهم وقتلـــت احلامهـــم وزرعـــت فـــي مخيلـــتهم فكـــرة القـــرار والنزوح والهرب من فَكِّ العُقد التي لاحقتهم.

*****

التلول

يقينًـا، بـات كـلٌّ منـا يعـيش حالـة لا يُحسـد عليهـا، مترقبًـا أن تُفـتح بوابـة الفـرج ذات يـوم، علّ الحـظ يشـمله بعطفـه، أو تمـد لـه يـد العـون مـن زمـرة المهـربين الـذين لا تعـرف الرحمـة طريقًـا إلـى قلـوبهم، ولا يـردعهم وازع مـن ضـمير أو خـوف، ولا يشـبعهم مال أو مكسب، وقد استمرأوا استغلال الضعفاء والمساكين.

لقـد ضـلّ بعضـنا فـي متاهـة الخـوف والمخـاطرة، حتـى باتـت نغمـة الرعـب تعـزف علـى أوتـار السـخط والنـدم، نـدم علـى مـا أصـابنا مـن يـأس وجـبن، ومـا عانينـاه مـن تعـب ووهـن، حتـى خـدرت أطرافنـا وأثقـل عقولنـا. أجسـادنا أنهكهـا الانتظـار، وعزائمنـا خـارت تحـت وطـأة زمـن طـال أمـده، زمـن جعلنـا عبيدًا لزمـرة سـاقطة نتبعهـا رغـم علمنـا بأنهـا شـلة سـاقطة همهـا المال فحسب.

هجسـنا بأننـا قـد دخلنـا فـي نفـق مظلـم طويـل، دون منفـذ، كلمـا تقـدمنا خطـوة للأمـام ضـاق علينـا المسـار اكثـر وأكثـر، لا يحـدونا أمـل نجـاة إلا باجتيـازه وباحتمـال ضـعيف لا يلبـي الطمـوح فـي

أعماقنا، كبصيص نجمة بعيدة عاجزة على إنارة طريق معتم...

تفاقمت تلك الأحوال حتى زادت منسوب القلق في النفوس، وأججت اضطرابات القلب، وأطلقت العنان لهلوسات الفكر. صار سهم الخَبَل يخزق الجوارح بلا هوادة، بعد أن تراءت الحالة لنا كعينٍ أصابها الرمد، لا ترى إلا ضبابًا مشوشًا. كل شيء من حولنا غدا ملبدًا، تشوهت الفكرة في عقولنا، واختلطت الرؤية في أعيننا، فلم نعد نميز بين الحقيقة والسراب.

على مضض، تحملنا نكد المهربين حتى غابت الشمس في قرص الدجى، وبقينا قابعين في أماكننا وسط ظلام دامس، لا نملك سوى التأمل في خيالٍ بعيد، نرجو أن يرفق بنا بساط الريح، ويحملنا إلى جزر الواق واق السعيدة، تلك التي حلمنا بها منذ أن كنا أطفالًا نحبو على عتبات البراءة. هناك، حيث الأمان والسكينة، حيث تنقلنا الأحلام من قسوة الواقع إلى وهدةٍ من الطمأنينة التي طالما اشتقنا إليها.

لم يطل بنا الانتظار، فما هي إلا سويعات حتى عادت خفافيش الليل تزعق في خواطرنا، وعادت تلك التكاسي ذات العجلات المتهالكة لتقلّنا من جديد. لكن هذه المرة، إلى منطقة نائية مهجورة، تبعد عن آخر نقطة مأهولة بنصف ساعة من المسير، على طريقٍ ترابي يفضي إلى قرية منزوية خلف حدود الأحراش. كانت الطريق تمتد في عمق غابة من الأثل والكاليتوس وأشجار الصنوبر الباسقة، غابات اصطناعية

متراميـة الأطـراف، تتخللهـا شـبكة معقـدة مـن الـتلال والهضـاب المتفاوتــة الارتفــاع. بقعــة لا تطأهــا الأقــدام إلا نــادرًا، ولا تمـر بهــا ســوى عجــلات أهــل القريــة أو دوريــات الشــرطة، التــي تجوبهــا فــي حمــلات المســح والتحــري، بحثًــا عــن عصــابات التهريــب والمخــدرات والإجــرام. تلــك العصــابات التــي مــا إن يـداهمها الخطـر، حتـى تفرّ إلـى هـذه الأمـاكن الـوعرة، المنزويـة خلـف الظنـون، لتتخـذ مـن ديـاجير الجحـور المتشـعبة مـلاذًا لهـا، تختبئ فيها كما تختبئ الأشباح في تجاويف الليل.

فــي منعطــفٍ ضــيق مــن الشــارع ذي المســار الواحــد، وتحــت جـنح الظـلام الـدامس، أُمِرنـا بـالنزول علـى عجـل. طلبـوا منـا أن نسـرع فـي التـواري بـين ثنايـا الأشـجار والـتلال المغشـاة بالأثـل، علــى بعــد يقــارب مئتــي متــر مــن الطريــق. كانــت التعليمــات واضــحة وصــارمة: الاختبــاء بصــمتٍ تــام، دون همســة، دون حركـة زائـدة، فالـدوريات تعـاود المـرور كـل نصـف سـاعة، كمـا أخبرنــا المهربــون المرافقــون لنــا. لقــد أخفضــوا أصــواتهم، وأمرونــا بخفــض أصــواتنا حتــى لا تلتقطنــا مجســات الشــرطة، تلــك التــي أصــفها بــالقططِ المترصــدة وهــي تتهيــأ للانقضــاض علـى الفئـرانِ المـذعورة. كـان الخـوف يمـلأ المكـان، يتسـلل بـين الأغصان، يختبئ معنا، يراقب معنا، وينتظر معنا.

العجــلات التــي نقلتنــا كانــت علــى درايــة تامــة بمســرى الطريــق حيــث أوصــلتنا لتلــك النقطــة دون أن تفــتح أضــوية مصــابيحها، كانـت ملتزمـة بانضـباط عـال، تاركـة مسـافة بـين عجلـة وأخـرى قرابــة 200 متــر كــي لا تنحــرف عــن مســاربها، معتمــدة فــي

سيرها على دكنة الشارع الواضحة قياسا للون التربة المحاذية، رغم شدة العتمة. ربما المهربين متفقين مع الشرطة في الدخول والخروج! يبدو لي هكذا فأنها شبكة متشعبة.

تسلقنا تلك التلة لارتفاع تجاوز خمسين متر وسط غابة من الأشجار، توزعنا كمجاميع صغيرة على السفح، متخفين بين ثناياها، دون أن نبدي أية وشوشة أو ضوضاء يدل على حقيقة تواجدنا في تلك البقعة.

على العموم، كانت العجلات التي تتخطى جادة الطريق نادرة، لا تمر إلا لمامًا. فإما أن تكون تابعة لأهالي القرية، أو لدوريات الشرطة التي تجوب المنطقة بين الحين والآخر. فالمكان معزول، بعيد عن العمران، لا يعرف الضجيج ولا يعج بالحركة.

بقينا هناك، فوق قمة أحد التلال المغشاة بأشجار الأثل، كأننا لقالق تنتظر إشراقة الأمل، نرصد الطريق بعين مترقبة. ثلاث ساعات مضت، ولم تمر أمامنا سوى عجلتين فقط. الأولى، على الأرجح لأحد سكان القرية، أفصحت عن هويتها بهدير محركها الناشز وهي تمر قربنا. أما الثانية، فكانت أكثر هدوءًا، تسللت بصمت يشبه الظلال، ما جعلنا نظن أنها تابعة لدورية شرطة، تمارس مهامها المعتادة في مراقبة هذا المكان المنسي

مكثنا في تلك البقعة المعتمة من التاسعة مساءً حتى ما بعد منتصف الليل دون أن نزود أنفسنا بالماء أو الغذاء، فقد كنا

نجهل تماماً آلية تهريبنا والمراحل الحرجة التي سنمر بها في خضم السرية. كان يرافقنا عدد من العائلات، وبينهم أطفال صغار لم يتحملوا مشقة الطريق وعناء الجوع والسهر.

إحدى الأمهات كانت تحتضن توأمين لم يبلغا شهرهما الأول، منهكة في محاولاتها لإرضاعهما رغم مساعدة زوجها لها الذي وحمل حقيبتين على ظهره تحتويان مستلزماتهما الأساسية من أدوات النجاة لعبور البحر من طوافة ودولاب هوائي. وأخرى كانت تصحب طفلتها ذات السنتين، التي أنهكها الجوع وبدأت تبكي بمرارة أخافتنا من أن تُفضح وجهتنا أمام دوريات الشرطة. حاولنا تهدئتها بكل ما نملك كنا نخاف أن يصل نشيجها لحدود دوريات الشرطة، قدم أحد الشباب كيس رقائق وآخر قطعة حلوى كاندي، حتى خفت بكاؤها وغفت في حضن أمها. لكن بكاؤها حفّز أطفالا آخرون على البكاء، بينهم ثلاثة اطفال لحسام، الأكبر بعمر خمس سنوات، لم نجد وسيلة لإسكاتهم سوى حلوى الشوكولاتة التي قدمتها لم جدتهم.

وفي خضم هذا كله، كنت مشغول البال على أبني، الوحيد المصاب بالسكري بين الجمع. لم يسبق له أن تعرض لانخفاض مفاجئ في نسبة السكر، وكنت أخشى أن يحدث ذلك وسط هذا الظلام والمسالك الوعرة دون أدنى فكرة لي عن كيفية التعامل معه في تلك الظروف المحرجة... كنت خائفاً من العجز أكثر من أي شيء آخر.

في رحلتنا كنا قد أكتفينا بغدائنا الذي تأخر كثيرا، بسبب انشغالنا في تهيئة أمر الرحلة، قبل أن نتحرك من الفندق كنا قد دخلنا أحد مطاعم أزمير، بحيث ملئنا كروشنا حتى انتفخت وشبعت، قبل أن تشرع الرحلة بساعة زمن. كما أني كنت قد وضعت في حقيبة الانسولين تفاحتان وبرتقالتان ونستلتي بسكويت ليتخطى بها حالات العجز المفاجئة في الطريق.

بعد أن تسلقنا التلة؛ تمكن حسام من احصاء عددنا، حيث بلغ عددنا خمسة وأربعين فردا موزعين بين رجالا ونساء واطفلا، كنا سبع رجال وخمسة نساء برفقة ستة أطفال والباقون هم من الفتية والشباب المراهقين من الجنسية السورية والافغانية والعراقية.

كنا جميعا نفتقر إلى فكرة وأسلوب تهريبنا، أينما نحل نتوقع بأنها ستكون نقطة انطلاقنا إلى اليونان... في البداية، ظننا أن المتنزه سيكون منطلقنا، خاصةً بعدما لمحنا القوارب تتهادى على شواطئ البحر القريب. ثمّ، حين وصلنا إلى قمم التلال المطلة على الساحل، خمّنا أن هذه البقعة المنعزلة هي الأفضل، بعيدة عن أعين المتربصين والرقيب.

تلك العزلة منحتنا لحظة نادرة لمراجعة الذات. جلسنا نواسي بعضنا البعض، نحاول أن نبعث الطمأنينة في النفوس المرتجفة، نرتب أفكارنا ونتأهب نفسيًا للمرحلة القادمة. كانت فترة لالتقاط الأنفاس، ومحاولة التصالح مع الخوف الذي يسكننا. تحدّث البعض عما أثقل صدورهم، وحاولنا جميعًا أن

نرسم في أذهاننا ملامح حياة أكثر إشراقًا واستقرارًا من تلك التي طحنتنا في أوطاننا بالشتات والمهانة.

خلّدنا أجسادنا بعض الراحة من عناء الطريق، خاصة الأطفال الذين أعيتهم مشقة السير، وضغط الحاجة التي لا تُحتمل. طلبت من ابني أن يُريح بدنه، أن يتخفّف من ضيقه، علّه يهيّئ نفسه لخوض ما لا نعلم من تحديات، مجازفة محاطة بالغموض. الجميع تقريبًا قضى حاجته في تلك الزاوية من الشاطئ.

ومع حلول الظلام، وكأن الليل قرر أن يحجب عنا أنفاس النجاة، تقوقعنا في بقعة نائية، نرتجف من فكرة أن نكون وسط أوكار عقارب أو ثعابين. كنّا ننتظر في صمتٍ ثقيل بدا العبور، ونحن نحمل في داخلنا جبلا من الخوف وذرة من الأمل لتجاوز مخاوف تلك الليلة السدفة، وكلٌّ منّا يخفي في قلبه وطنًا يتمنى أن يولد فيه من جديد.

في تلك البقعة المنقطعة عن العالم كانت تنقصنا المياه والزاد مثلما أسلفت، كنت أحمل قارورة صغيرة لأبني، فيما كانت زوجة حسام تحمل أبريق ماء، وهناك بعض الشبان من يحمل قوارير ماء صغيرة معه... على أية حال بللنا شفاهنا بقطرات شفيفة من ندى الماء واعتبرنا الحالة مرحلة جهاد لغدٍ أفضل.

ما كان يؤلمنا ويعتصر أرواحنا حقًا لم يكن مشقة الطريق، بل فراق الأحبّة، ذلك الرحيل المجبول بالحسرة والندم. جاءت لحظة الانطلاق في ليلةٍ كان يفترض بها أن تكون ليلة فرح

واحتفال، ليلة عيد الأضحى، حيث تتعانق الأرواح وتُضاء البيوت بأنفاس الأحبة. لكنّ قلوبنا في تلك الليلة هجست بالشوق والحنين، لهجت بالأسماء الغائبة، وتُحدّث النفس عن العيون التي خلّفناها خلفنا. لم تكن دموعنا التي أغرقت المآقي سوى نزيف حبّ لا ينتهي، وداع مؤجل لوطنٍ وأناسٍ لا يُعوَّضون.

وبرغم الوجع، لم نضعف. كانت الواقعة طاقة خفية زادتنا إصرارًا على بلوغ الغاية، عزيمة استمددناها من ثقل الفقد، ومن حلم نُحاول أن نرسمه بأقدامٍ تائهة على دروب المجهول، علّ الطريق يكون بداية لحياة جديدة، تسكنها الكرامة ويظللها الأمل.

ليلة العيد جعلتنا نتكاتف مع بعضنا، محاولين إزالة تشنجات الغربة ونشيج الرحلة القادمة عن أذهاننا، كانت ليلة مباركة، أفردت الطمأنينة في قلوبنا، كونها ليلة من ليالي الرحمن المحببة عند المسلمين، ليلة رحمة لا تعبث بها الشياطين.. لقد زرعت مناسبة العيد تفاؤلا وأملا في النفوس والأذهان من إمكانية تجاوز المخاطر القادمة بيسر، وذلك لربط مصيرنا بإيمان أصطفى على مساحة القلب.

في المسافة، على بعد كيلومترين أو يزيد، كانت هناك احتفالية تلمع كنجمةٍ تهتف للفرح وسط عتمة محاطة بالأحراش. لم نكن نراها بوضوح، لكن أجواءها كانت تنبض في الأثير... نسمع صداها، ونشعر بها تقترب نحونا مع كل هبّة ريح تحمل أنغامها.

جلسنا في موقعنا، نُصغي للصوت وهو يشقُّ السكون، ينساب كهمسة عاشقة، وكأن الهواء ذاته يحتفل. صوت الغناء متقطع لكنه مغمور بالبشر، يتراقص عبر مكبرات الصوت، مخترقًا ذرات الليل الثقيلة، فيما الأضواء ترسم في الأفق خيوطًا من الفسيفساء المتوهج، ينطلق من بروجكترات نيونية وفسفورية تدور حول منصّة الاحتفال، كأنه مسرح يحاكي السماء بنورها.

وهناك، ونحن في الظلال، تبادلنا التهاني كأنّنا معهم. لم نكن نراهم، لكن وصلنا الفرح، اخترق المسافة والظلال، واستقر في أعماقنا... ليلة كأنّها حلم صيفيّ، لا تُنسى.

هكذا اعتقادنا وهكذا عانقتنا الرحمة التي أغشتنا عن أعين رجال الأمن، جردت مصيرنا من شر العسر، صبغته بصبغة إيمان راسخ في قلوبنا وعقولنا كمسلمين، دفعت بأحاسيسنا تقطف ثمرة السعي قبل أن نخوض في غمارها المنشود.

لقد نغزتنا تلك الأضواء بحسرة فراق الأحبة، وبوضعية الحالة المحزنة المريبة التي كنا نعيشها ونحن معلقون فوق ثلمة تلة نائية وسط الأحراش، في زمن لن يكرر ذاته. كنا كالجداء البرية وهي تراقب محيطها، خوفا من أن تظفر بها الذئاب، هكذا كنا في مكوثنا فوق تلك التلة نبحث عن أنفسنا بمنظار لا يدك عمق المجهول الساعين خلفه..

كان الحفل بهيجا، مُعنى بالفرح والسرور بموسيقاه الصاخبة وبأصوات طربية رنانة، كرنفال يعبر عن قيمة المناسبة،

مضيفا أهمية ملموسة على تلك الفسحة المنبسطة على شاطئ البحر، والمغشية بين أحراش نضرة وأشجار بهيجة.

من الظاهر هذا الاحتفال المنزوي بعيدا عن محيط المدينة مهيأ لشخصيات معينة، هكذا يبدو لي، لأنه لا يبدوا كرنفالا شعبيا عاما أبدا، لنئي البقعة، ربما كان نايت كلاب أو مقهى أو ملهى مركونة في وسط الاحراش.

في بهجة العيد وفي زخم الفرح، يلوح طيف الأحبة من بعيد، تهمس الذكريات بأصوات الطفولة وضحكات الأصدقاء. للعيد سحرٌ لا يقتصر على الحلوى والتهاني؛ هو ملاذ الروح، لحظة تهدأ فيها الصراعات الداخلية، ويتلبّس المكان أمان مؤقت.

كان الابتهاج بالعيد مناسبة جيدة لنتذكر أحبابنا وأصدقائنا وطفولتنا؛ في الوقت الذي به اعتبرته شخصيا مصدر أمان ومنبع طمأنينة لنا، في خضم هذا الطقس الجماعي من الفرح، تنشغل الأجهزة الأمنية والشرطة بتنظيم الاحتفالات، وتهدأ قبضتهم قليلاً، منشغلين بمشاركة ذويهم مائدة العيد وهمسات الأمل. إنها فرصة نادرة للتنفس، حتى لمن اعتادوا الجري خلف الظلال.

لكن المهربين لم يحتفلوا. كانت الليلة مثالية لهم لينفذوا مآربهم. كأنهم خُلقوا ليرقصوا على ناصية الغفلة. خطة محكمة، توقيت ذكي، وليلٌ يستر خططهم وابتساماتهم. فكم

من ضحكةٍ كانت ستارًا لغاية خفية، وكم من احتفالٍ خبّأ خلفه حكاية لم تُروَ في العلن.

ليلة تموج بين الهدوء والسكون، لكن الاحتفال شرخ سكون الليل، كأن الصخب تسرّب إلى الأجواء وسكب فوقها ضجيجه، فغمر ساعات الانتظار الطويلة التي نهشت من طاقتنا بصمتٍ قاسٍ. ونحن نعتكف فوق التلّة، نلوذ بصمتٍ دفين، كأننا نتحصّن خلف جدار من القنوط، نراقب المشهد دون أن نكون جزءًا منه. الكرنفال في الأسفل كان كالتنين من ضوء وصوت، يحرك في دواخلنا مشاعر لم نكن نألفها. شيءٌ منا ظل يتململ في صحن صمت، يتذكر، يشتاق، أو ربما يتأمل فقط. ومع تراخي الضجيج شيئًا فشيئًا بعد انقضاء منتصف الليل، بدا أن السكون يحاول استعادة مملكته، لكنه هذه المرة يعود محملاً بالذكريات.

المهربون كانوا أذكياء جدا باختيارهم ليلة العيد ليوم العبور. ليلة يذوب فيها الجميع في دوامة البهجة: الصغير ينشغل بالمفرقعات، الكبير يتزين بلقيا الأحبة، العاشقون يتهامسون في زوايا الأرصفة، والسكارى يغرقون في نشوة الخمر تحت أضواء المقاهي المكتظة. أنه يوم غير عادي، ويعتبر إجازة رسمية تخفّ فيها قبضة الأمن ويتحرر الحراس من قيد العمل.... نحن الوحيدون كنا نهرب من صرخات الفرح، كما تُهرّب الظلال من النور.

كـل شــيء كــان محســوباً بدقــة لــدى المهــربين: ســاعة العبــور، لحظــة الانطــلاق مــن أزميــر، حتــى عــدد الأنفــاس اليائســة التــي يمكن أن تخوننا عند أول حاجز طارئ.

فــي تلــك الليلــة، لــم نكــن أشخاصــاً فقــط، بــل كنــا احتمــالاً معقــدا يحمــل فــي طياتــه شــجون لا يحتملهــا إلا المغــامرون... ذلــك الاحتمــال كــان يقــف بــين خطــوة غادرناهــا وخطــوة لا نعلــم إن كانت ستكمل الطريق أو تنتهي في البحر.

لـم نبتعـد كثيـرا عـن حلقـة العيـد، بقينـا نـدور فـي دوامـة الشـوق والصــبابة، نتــأرجح علــى حبــل الــذاكرة، كــأراجيح تهتــز بعبثيــة الظـرف، منشـغلين بالسـهو والهمـس والهـذيان، متـأملين أن يعـود بنا الزمن إلى الوراء.

*****

عجلة الباص

عنـد السـاعة الواحـدة والربـع بعـد منتصـف الليـل، انشـقّ سـكون الليـل علـى حـين غـرة، بهـدير بـاصٍ أو شـاحنة توقفـت عنـد حافـة الشـارع، تمامًـا عنـد النقطـة التـي عبرنـا منهـا آنفًـا، حـين تسـللنا إلـى غـبس الوحشـة وعتمـة الليـل. كـل شـيء بـدا غامضًـا، لكننـا أدركنـا حينهـا أن لحظـة الرحيـل قـد أذنـت وأزفـت، وأن

المهربين باتوا على مقربة منا. وما إن مضت لحظات، حتى تعاظم اللغط، وبدأت خطواتهم تقترب، تخترق الصمت بثقلها، تتجه نحونا من سفح التلة. صرنا نلمح خيالاتهم تتراقص في الظلمة، وأصواتهم تنمو شيئًا فشيئًا في الهواء حتى غدت واضحة لنا، كأنها تعاويذ تُتلى في طقسٍ غامض. كان في نبراتهم أمرٌ لا يُرد، وفي قدومهم كأنهم القوا جمرةٌ في الأجواء، أيقظت فينا رنة الحذر، وأشعلت في العيون قلق الحيرة.

حَملنا الصوت على ضرورة العجلة والحركة، النبأُ كان كالشوكة الحادة، شَكَّت جوارحنا لما أكتنف فيه من أمرٍ صارم حثت الجميع على سرعة التحرك نحو العجلة، بوقعه كان الأمر مثيرا للدهشة، بحيث وصل تأثيره لأبعد مدى، متخذا من السكون الذي يفترش أجواء الليل معبرا إلينا، ذلك لأن الأثير الذي تجمع في العتمة، أصبح موصلا جيدا لنقل ذبذبات الصوت..

لم تمضي سوى ثوان حتى بان الصوت يجلجل بوضوح تام وهو يحث الجميع على سرعة النزول عن القمة، تجنبا لخطر مداهمة الشرطة الساحلية لنا.. ورغم أننا كنّا مستعدين نفسياً لهذا النداء، إلا أن وقع الصوت حرّك فينا شيئًا خفيًا يشبه الذعر المنضبط. بلا تردد، بدأنا بجمع أشيائنا بعجلة، ثم هبطنا متفرقين، كل أطلق ساقيه للريح لنضمن مقعدا في العجلة... وعندما ادركنا العجلة لاحت أمامنا باص قديم، موديل 1982، بدا كأنه تذكار من زمن الحرب. كان هناك

دافع خفي يحثنا على تنفيذ الأوامر بشيء من الحرفية تجنبا لنكسة الفشل، هكذا حشرنا ذواتنا في الباص كيفما يكون، باحثين عن أنفسنا بين المقاعد القليلة قياسا لعددنا. حشرونا فيه كما تُحشر النعاج، تكدّسنا فوق بعضنا البعض، الحقائب والأجساد امتزجت، والهواء أضحى ثقيلاً بثاني أوكسيد الكاربون والغازات المنبعثة من العجلة. حيث ُأغلقوا النوافذ والأنفاس والضوء. ستائر السميكة من الكتان الداكن أُسدلت المنافذ بإحكام، والتعليمات الصارمة مُررت همسًا: لا تدخين، لا نوافذ، لا إضاءة، لا صوت. التزامنا الكامل لم يكن نابعًا من الطاعة فقط، بل من رغبة مشتركة في الإفلات من مصير غامض قد يتربص بنا خلف أول عطفة أو إشارة مرورية.

تحرك الباص الذي أمتلئ عن بكرة أبيه خلال ثوان، سار بنا الباص في طرق مجهولة بالنسبة لنا لمسافة تزيد عن خمسين كيلومتر على أقل تقدير، تحت وقع عتمة دامسة وسرعة جنونية، ربما قِدم الباص أشعرنا بتلك السرعة، في داخل الباص، كنا نتأرجح مع كل اهتزاز، والجدران الصدئة تئنّ تحت وقع الحركة. كنا نهجس بها لا تسير على طريق، بل تطير في العتمة، تهرب من واقع حي لآخر مجنون بتلك السرعة الفائقة، كأنها تعبر عن ذاتها بملاحقة ما من عدو مجهول يتبعها، أشبه بالمطاردة السينمائية، كنا فعلا مطاردين من قبل الشياطين التي هاجت وجالت في أذهان هؤلاء المهربين، هكذا أخبرتنا هواجسنا تحت وقع حالة الاهتزاز وجنح العتمة المحيطة بنا.

لشدة العتمة داخل العجلة نكاد لا نميز وجوه بعضنا البعض إلا من خلال الصوت، حيث كنت أنادي على أبني الذي جلس خلفي بالمباشر محذرا إياه من ترك حقيبته الصغيرة أن تسقط من يديه، تلك المعبئة بالأنسولين والفاكهة تجنبا لانخفاض منسوب السكري في دمه على حين غفلة من أمره. كنت أدفع به أمامي وأشحذ همته وفكره بالعجالة والشجاعة وهو الذي بطاعته وبراءته يقفز أمامي كالوشق متأهبا شق طريقه.

لقد عانينا كثيرا داخل الباص من قلة الأوكسجين، بحيث البعض منا صار يتصارخ وينفث غيضه من الحالة التي جمعونا بها كركام وأكوام كراكيب فوق بعضنا البعض. فيما البعض قد أستسلم للرقاد بعد أن تراخت أعضائه بسبب العناء الذي أصابه من جهة وقلة الأوكسجين داخل العجلة والذي ارهق المخ والبدن من جهة أخرى. حتى صار البعض منا تنحدر صحته نحو الغثيان..

تجاوز الصراخ حدود الخوف، حين بدأت ملامح الانهيار الجسدي تظهر على بعض الركاب، وسقط بعضهم فاقدي الوعي. لم يجد الحرس المرافق خيارًا سوى فتح نافذة صغيرة قرب السائق، علّ نسمات الهواء الباردة تحدّ من تفاقم الفوضى المتصاعدة في داخل الباص، وتهدّئ من حدة الاختناق والرعب.

كان إلى جوار السائق أحد الحراس، يُمسك بسلاح الكلاشينكوف بإحكام، عيناه تترصّدان التحرك المفاجئ لأيٍّ كان. أما الباص نفسه، فكان يسير خلف عجلة صغيرة

خاصـــة، تتقـدم الركـب كـدليلٍ ومرافقـةٍ أمنيـة. كـان علـى متنهـا عـدد مـن الأتـراك، مـدجّجون بالسـلاح، وجـودهم كـان دليـل حماية إذا ما تعرض الباص للشك من قبل الشرطة الساحلية.

بحـدود السـاعة الثانيـة والربـع صـباحا وصـلنا إلـى أرض منبسـطة، مفتوحـة، مهجـورة، يمـر بهـا شـارع رئيسـي لا أعـرف وجهتـه، الطقـس مـال للبـرودة بعـد أن تجاوزنـا منتصـف الليـل، إلا أنـه كـان منعشـا ومريحـا، دب نشـاطا شـفيفا فـي أجسـادنا بعـد أن تنفسـنا الأوكسـجين، أوشـحنا بعزيمـة إضـافية علـى تكملـة المشوار..

كـان الشـارع المزعـوم يحـاذي مزرعـة شاسـعة مـن حقـل الـذرى، الأجـواء بـاردة، والسـماء ملبـدة بغيـوم داكنـة لتزيـد مـن حلكـة الظلمـة دجنـة وسـوادا، بحيـث أضـحت العـين لا تميـز ملامـح الشـخص عـن بعـد عشـرة أمتـار، فيمـا الوجـوه لا أكـاد أن أشخص ملامحها أطلاقا.

كانـت ليلـة العيـد مثلمـا أسـلفنا، أي أنهـا تصـادف العاشـر مـن ذي الحجـة مـن الأشـهر القمريـة، أي أن القمـر لا زال هـلالا يقبـع فـي جحـره قبـل منتصـف الليـل قرابـة سـاعه أو سـاعتين، حيـث يكـون مغشـيا فـي مهـده كقطـة مولـودة حـديثا تخـاف الانـوار، إضـافة لكثافـة الغيـوم المراقـة فـي السـماء، خاصـة إذا مـا علمنـا بأنهـا قـد أمطـرت ليلـة أمـس مطـرا غزيـرا فـي عمـوم المنطقة.

*****

حقل الذرى

ما إن توقّف الباص عند مشارف حقل الذُّرى، مبتعدًا عن الشارع الرئيسي ثلاثين مترًا، حتى جاء الصوت مباغتًا ومربكًا:.....

- هيا، انزلوا حالًا!

لم تصدق مسامعنا، نزلنا بلا سؤال، بلا تفكير، فقط لننسلخ من ضيق الباص اللاهب. ذات الهواء مشبّع بثاني اوكسيد الكاربون والرطوبة العتمة الثقيلة، بالكاد نميز ما يحيط بنا. لكننا وجدنا في الصوت دافعا لاجتياز الخطوة الاخير وصولا للبحر. شعرنا بشيء وهمي يقودنا نحو المصير المجهول.

أرض الحقل كانت غرينية الطبع، رطبة، ثقيلة، تبتلع الأقدام وتبتزّ التوازن، نتيجة هطول امطار غزيرة في الليلة الماضية. صرنا نسبح بالطين، نتمايل خلف الحرّاس الذين نسمع همس اصواتهم دون أن نراهم لشدة العتمة، كأننا نرقص على زجاج مكسور، كأن الأرض لا تبغى أن نخاطر بأنفسنا.

الحـراس يلوّحـون، يحثـون الخطـى. الظـلام لعتمتـه، كأنـه حبـرًا سـكب علـى ورقـة بيضـاء، هكـذا توشـح الحقـل بعبـاءة الحـزن السـوداء. ارتـدى حنـدس الظلمـة. لـم نعـد نـرى شـيئا ممـا حولنـا، فقـط نتبـع همسـات رجـل غـارق فـي الطـين والعتمـة يحثـا علـى تتبعـــه. حـــاملين أمتعتنـــا وأجســـادنا دون قـــدرتنا، لا نســـتطيع التخلـي عـن شـيء... مـع كـل خطـوة نتقدم بهـا نغـوص أكثـر فـي الطـين بأحـذيتنا الرياضـية الملسـاء. كأنهـا طريـة كعجينـة الخبـز. القـدم ترتجـف، العقـل مشـوش، كالمتـدرب علـى الجليد أول مـرة. الحُـرّاس يحثـون الخطـى، كـأن شـيئًا يطـاردهم، كأننـا نهـرب مـن ريح مغلة تتبع خطواتنا.

لقـد أنهكتنـا العجلـة وهـي تجرّنـا بسـرعة جنونيـة مسـافة خمسـين كيلـومتر تقريبـا، ومـا زاد الطـين بلـة أننـا انشـغلنا منـذ الخامسـة مســاء بترتيــب أمورنـــا واســتعداداتنا، ثـــم تنقلنـــا المتعثـــر بـــين المنتـزه، فـالتلال، فالحقـل، مـن دون أي تهيئـة تليـق بمـا ينتظرنـا. سُـلبنا طاقتنـــا عـــن آخرهـــا، خصوصـًــا وأن المركبـــة ســـاقت بنـــا لمسـافة طويلـة دون تـنفس طبيعـي، ولا فرصـة للجلـوس براحـة. الألم تسلل إلى مفاصلنا كسائل بارد، متسلل وخبيث.

وعنـــدما بلغنـــا حقـــل الـــذرة، كـــان علينـــا أن نشـــق طريقنـــا مـــن منتصـفه لمسـافة كيلـومترين لبلـوغ الشـاطئ – هنـاك حيـث تلـوح بارقة الخلاص، إمّا حياة جديدة، أو سخط لا عودة منه.

كان النزول من العربة مصحوبًا بفوضى عارمة، تحت صيحات الحرس الجافة التي تطالبنا بالإسراع الدخول إلى المزرعة. عندها تهاوت الحقائب واللوازم على الأرض، تلطخت بالطين، وتشبعت

بالرطوبة، فازداد حملها ثقلاً، والبعض فُقد لوازمه في وسط الظلمة الحالكة، فصاروا يتخبطون في البحث عنها كالعمى في دجى الليل.

كنت واقفًا بالقرب من حسام الذي فقد إحدى حقائبه، ادّعى أنها تضم قلادة لزوجته. حاول العودة إلى الباص للبحث عنها، لكن الحرس التركي أشهر سلاحه في وجهه، وهدده بالقتل قائلاً:.....

امشِ... بسرعة. تحرّك!

اضطر أن يتحرك أمام الحرس، صامتا دون أن ينبس بشفة وهو مكبلًا بحمل طفله ومتاعه.... أما أنا، ففِي داخلي شعرت بشيء من الشماتة... قلت مع ذاتي هذا مقابل ذاك، لصصت من جيبي 200 دولار، وها هي قلادتك التي تساوي 300 دولار قد فُقدت. جاءه العقاب سريعًا، فالله يُمهل ولا يُهمل.

كانت العجلة قد أرهقتنا خلال جريبها، ناهيك على أننا أنشغلنا منذ الخامسة مساء في ترتيب أمورنا ثم مراحل رحلتنا من المنتزه إلى التلول إلى الحقل دون أن نكون مهيأين لذلك، جردتنا من طاقتنا، وخاصة العجلة سارت بنا مسافة طويلة دون تنفس طبيعي ودون راحة في الجلوس. سكبت العناء في مفاصلنا، ونحن في حقل الذرى كان علينا أن نخترق الحقل من منتصفه لمسافة كيلومترين حتى ندرك شاطئ البحر، حيث يلوح أملٍ الخلاص.. أما لحياة جديدة أو الغرق.

ما إن وطئت أقدامنا الأرض حتى تقسم الحراس الستة أدوارهم بدقة عسكرية صارمة: اثنان تصدّرا الرتل، يتولّيان

دلالــة الطريــق وســط العتمــة، واثنــان تســلّلا إلــى القلــب يتتبعــان المنحــرفين عــن الخــط، يحثّــانهم علــى المضــي رغــم الــوهن والظــلام، أمــا الآخــران فقــد توليــا المــؤخرة، يتفقّــدان مــن أعيــاهم المســير أو أضــناهم التــردد. كانــت بنــادق الكلاشــنكوف الروســية تزين أكتافهم، كأنها صدى لخطر مستتر بين السنابل.

فــي الطليعــة، انــدفع الفتيــة والمراهقــون، متجــاوزين الجميــع بخفــة أجســادهم الفتيــة، يحملهــم شــغف النجــاة وقــوة البــدايات. بعضــهم لــم يكــن يحمــل ســوى نجــادة علــى ظهــره وبطاقــة تعريفيــة فــي جيبــه، بينمــا أنــا كنــت فــي ذيــل القافلــة، لا أرى حتــى ظــلّ مــن تقدموا، وقد ابتعدوا إلى حدٍ جعل وجودهم في حكم الغياب.

إلــى جــانبي، كانــت تســير زوجــة حســام النحيلــة كقصــبة يابســة، وإلــى جوارهــا أم صــادق وابــن حســام، بينمــا كــان حســام وأنــس علــى مســافة تتــراوح بــين عشــرة وعشــرين متــرًا، يرافقهمــا الحــراس وهــم يرزحــون تحــت وطــأة الحقائــب علــى ظهــورهم. المســافة بيننــا قريبــة، لكــن الســواد حــال دون رؤيــتهم؛ لا نكــاد نــرى ســوى خيــالات ضــبابية تتمــاوج فــي ظلمــة السُــدُم، كأننــا نتبــع أشــباحًا. كنــا نقتفــي آثــارهم عبــر الصــوت فقــط، بينمــا نخــوض فــي حقــلٍ تلــوح فيــه ســنابل الــذرة المثقلــة، تعلــو حتــى خاصــرتنا، وتتمايل برفق كأنها تهمس لنا أن امضوا، فالرحلة لم تنتهِ بعد.

ما أبطأني وأثقل كاهلي لم يكن طول الطريق وحده، بل حملُ الرحلة الذي توزّع بين دواليب وستائر نجاة، وفوقها تلك الحقيبة الثقيلة التي تحمل الأنسولين، المتخمة بقوالب الجليد البلاستيكية للحفاظ عليه من التلف والتي علقتها برقبتي.

ما أبطأني وأثقل كاهلي هو حمل أمتعة الرحلة من دواليب وستائر نجاة إضافة لحقيبة الأنسولين الثقيلة التي أنهكت رقبتي، لأنها كانت معبئة بقوالب بلاستيكية جليدية لتحافظ عليه من التلف. كنا نمشي مشي السلحفاة الهائمة في مهاوي الطين، أثرت علينا لزوجة الأرض، بحيث الخطوة التي نخطيها نتأملها برفق، ما أن نضغط على الأرض بالقدم؛ حتى يختل توازننا بإزاحة القدم عن موقعها لجهة معينة، فننزاح مسافة عن رقعتها... صرنا نتأرجح بمهاوي الطين لتسطح أحذيتنا الصحراوية، الكثير منا كان قد سقط أرضا، والمشكلة تصعب على الفرد مقاومة الطبيعة التي لم نكن متهيئين لها بنوعية أحذيتنا الصحراوية..

مع مرور الوقت شعرتُ بطاقتي بدأت تنفد، لا تآزر ذاتي ، بدأ خيط الطاقة يتهتك، يحاول أن ينقطع للضغط الملاط عليه. بدت ذاتي الهشة ترقص بتثاقل فوق بركة الطين، وساقاي تستغيثان، عضلاتهما تراخت، تهدّلت أطرافي حتى غدوت على وشك السقوط بين اللحظة واللحظة. المسافة أمامي تكاد لا تنتهي- أكثر من كيلومترين من الجهد المريع. صرت أفتقد تركيزي. شعرت أن قلبي يتلعثم بنبضاته، كقطار يود التوقف في محطته الأخيرة، وبدني يلوّح براية الاستسلام.

لم أعد أشعر بساقي، تحلّلتا منّي كأن لا علاقة لي بهما. طلبت العون من أحد الحرس، خاطبته بتركيتي المتعثّرة، وشرحت له أنني عاجز عن المواصلة. لحسن الحظ، استجاب، حمل عني الدواليب التي كانت تخصني وتخص حسام. لم أستطع

أن أتخلى عنها، لأني كنت أعرف أنها قد تكون ما ينقذنا يوم يصير البحر خصمًا لا يُؤمن جانبه...

كنا نسير وندعس بأقدامنا على عرانيس الذرى، لتساعدنا على الثبات والمشي. خلال سيرنا كان أبني يراجعني ويطلب مني أن أزيد حمله حملا لأتمكن من اللحاق بهم. حيث عدد من فئة الشباب كان قد أدرك نهاية المطاف بوقت قياسي، فيما كنت لاأزال أتأرجح في منتصف الطريق، أترنح بخطوات عرجاء، أتراقص على وقع التعب الذي وصل حده. فلولا الحمل لكانت الامور يسيرة عليَّ، ولو لم يكن الحذاء مسطحا لكنت استطيع مقاومة تلك اللزوجة.

الذين وصلوا هم فئة الشباب فقط. حاول أبني مساعدتي مرارا، حينها كنت في حالة يرثى لها نفسيا وجسديا، كنت خائفا عليه من البعبع القابع في داخله، وهو لا يدري بذلك، خائفا عليه من أن يصاب بهبوط مفاجئ لسكري الدم في تلك البقعة المقطوعة، من أن يصاب بهلوسة لا يعرف أن يتصرف بها وسط العتمة الحالكة، وفي تلك البحيرة من الطين اللازب، في بقعة تنعدم بها الرحمة سوى رحمة الله..

فعلا ساعدني الله وأعطى لأبني القوة والصبر والعزيمة على مواصلة المشوار، لم أكن أتوقع ذلك منه أبدا، خاصة أنه لازال فتيا لم يتجاوز الثالثة عشرة ربيعا، كما هذه أول تجربة جدية له في الحياة، لازال عوده طريا لم يتصلب بعد، لم يتعود على الجلد وأعباء الحياة ومصاعبها، لم يُجربْ في المحك إطلاقا..

على رغم من صغر سنه، إلا أنه كان جلدا صبورا جبارا في تحمله المشوار، كانت الرحلة بالنسبة له بمثابة تدريب عسكري شاق، أو مواجهة ما تحثه على تحمل المشاق، لما فيها من مخاطرة ومسؤولية تفوق الوصف وتفوق عمره. حينها شعرت كأني قد تورطت بهذا المسكين وورطته معي في رحلة تفوق طاقته وبدنه وصحته.

خلال المسير كنا قد تهنا أنا وتلك المرأة البدينة في منتصف الطريق، لشدة الحلكة التي تحيط بنا. حينها نادى علينا الحرس التركي فتتبعنا أثر صوته حتى أدركناه، على الرغم من انه لم يكن يبتعد عنا سوى عشرة أمتار فقط..

كانوا قد نبهونا في الباص: بأن لا نقدح ضوءًا، لا نهمس لبعضنا، سنمر بمحاذاة معسكر، وهناك عيون لا تنام. عندها ابتلعنا أنفاسنا كما يبتلع الخوف جمرة في الصدر، وسكنت الهمسات كأنها لم تولد.

المشكلة في الأرض التي كانت فخاخًا من طين وسواقي تختبئ تحت الرداء الليلي. صادفتنا ترع وسواقي عريضة غطست فيها أقدامنا، كان علينا تجاوزها، معظمنا سقط في تلك الترع والسوقي، تطينت ملابسنا عن بكرة أبيها، وصار أحدنا يُشبه شبحًا فزِع يجوب العتمة، يمشي متعثّرًا كأنه لا ينتمي لهذا العالم. كنا لا نمشي، بل نعوم في بركة من العتمة والوحل. ونحن سائرين في ذلك التيه؛ كان أحدنا يستنجد بالآخر لألا يتيه عن الركب.

بعـد أن قطعنــا مســافة مــن الســير، أخــذ الأتــراك يهشّــون بنــا للإسـراع كمـا يهـش الراعـي غنمـه. وكنـا نجـري أمـامهم أشـبه بالســكارى، نتــرنّح بفعــل وعــورة الطريــق ولزوجــة الطــين، وتحـت وطـأة الأحمـال التـي أثقلـت متوننـا. كـان الواحـد منـا يمشـي كمشــي الحامـل التـي تتهـادى وتتـأرجح بـين اليمـين والشـمال. لقـد أرهقنـــي الثقـــل حتـــى غـــدت الحقائـــب تلامـــس الأرض، أجرّهـــا جَـرًّا وقـد ارتخـت عضـلات يـدي وفلتـت مقابضـها عـن كتفـي، فأضـفت عليهـا مزيـدًا مـن القرافـة والطـين وهـي تكشـط غـرين الطين عن العرانيس.

مثلمـا نوهـت كانـت الأرض هـي مزرعـة ذرى، ونحـن نسـير كنـا نـــدعس علـــى ســيقانها المتخشــبة وعلـــى تلـــك الثمـــار الجـــاهزة للقطـاف كـي نتجنـب السـقوط أرضـا، كـل منـا كـان يحمـل حاجـات أكثـر مـن طاقتـه، سـوى هـؤلاء الشـبان الـذين جـاءوا بثيـابهم فقـط، كـانوا أخـف مـن الحمـائم وأذكـى مـن الجميـع، كـأنهم كـانوا علـى درايـة بـدهاليز العبـور ومشـاكله، وربمـا اسـتقوا معلومـاتهم مـن تجـارب غيـرهم.. لقـد وصـلوا لشـاطئ البحـر قبـل أن نصـل إليـه بنصف ساعة تقريبا..

كنـت خـلال المسـير أرفـق بتلـك النسـاء اللاتـي يحملـنَّ أطفـالهنْ وهــنَّ يتراقصــنَ فــوق ســطح الطــين، ســقطت أحــداهنَّ وهــي تمشـي بنفسـها الأخيـر، كـنَّ يمشـين كالثكـالى التـي افتقـدنَّ عزيـزا، بعضـهن يرتـدين أحذيـة ذات كعـوب حـادة، سـاعدهن علـى حفـظ تــوازنهنَّ، حيــث أضــحت الكعــوب ذات منفعــة كمســامير تثبــت في غراء الطين...

بعد أن بلغتُ حدَّ طاقتي الأخيرة، بدأتُ أتوقف في الطريق بين خطوةٍ وأخرى، أنتظر أن تهدأ دقات قلبي الهاربة. شعرتُ بحاجةٍ ملحّة لأن أبرك قليلًا، فقد اجتاحتني رجفةٌ سرت في ساقيَّ كأنها نذيرُ سقوط...... لكن أين؟ الأرضُ كانت بحرًا من الوحل، تراكَمَ غرينُه على أحذيتنا حتى أثقلها، تشبّعت بالطين والرطوبة، وصارت تعيق أقدامنا عن التقدم.

وفي لحظةٍ شعرتُ أن أنفاسي تتقطّع، وأنني على وشك الاستسلام، قررتُ أن أتخلّى عن بعض الأمتعة. لأخفّف الجهد عن نفسي. كنتُ أحمل ثلاث حقائب: إحداها على ظهري فيها ملابسنا وجوازات السفر، وثانية علّقتها في عنقي تحتوي على أنسولين ابني، والثالثة بين ذراعي فيها ستر ودواليب العبور. أكثرها غلا كانت حقيبة الأنسولين. تلك التي لا يمكنني التخلّي عنها، لأنها تحمل حياة ابني. تلك الحقيبة صارت أشبه بحبل المشنقة أو رسن الدابة مربوطة بعنقي تجبرني على الانحناء. هكذا شعرت بها وهي ترخي عضلات رقبتي التي تهاوت، بحيث صار رأسي يترنح في موضعه.. حينها كنت مستعدًا أن أتخلى عن روحي، ولا أتخلى عن تلك الحقيبة.

في تلك اللحظة ناديت على أبني بأن يسعفني أن أمكنه ذلك، ليساعدني في حمل أحدى الحقائب، حينها كنا قد تجاوزنا منتصف المسافة، وفعلا قد حمل عني حقيبة ظهري إلى جانب حقيبة مماثلة أخرى كان يحملها.

والعقبة التي اعترتنا وسلبت طاقتنا وشلت قدراتنا، هي الترع التي تخللت المزرعة، والتي كان لابد علينا من تجاوزها واجتيازها، وأجزم بأن الكل سقط فيها حتى هؤلاء الفتية والعسكريين، لعمقها وسعتها، سعتها تتجاوز مترا ونصف المتر، وتلك هي كانت أصعب معضلة في مرحلة الحقل وخاصة أمام النساء اللواتي يحملن أطفالهن، كنَّ اصابهنَّ الوعثاء مثلما أصبت بها.

وبعد مسير قرابة ساعة ونحن نمشي في الوحل الذي جردنا من قوانا، وصلنا إلى عطفة يرتفع فيها سيقان القصب والبردي وسيقان عرانيس الذرى، في تلك اللحظة كنت أمشي وأشعر باختلاج ورعدة في ساقي الأيسر. تخطينا المسافة ونحن ندعس على عرانيس الذرى كيفما نشاء لنتخطى خطورة الطين وانزلاقاته الحيثية، في هذا المنعطف صاروا الحراس يحثوننا على السكوت والهدوء والإسراع قدر الإمكان، لأننا بتنا نمشي بمحاذات أسيجة نقطة عسكرية، لا تبعد عنا سوى مائتي متر فقط من جهة اليسار، وخاصة تحت ظل سكون الليل يكون للأثير سحر ملموس بنقل التهامس لمسافات بعيدة، فلو تهامسنا سينتبهون علينا وسيسمعون وشوشتنا وتوجسنا، فما بالك إذا ما وصلتهم شوشرة بعض رفاقنا؟..

ونحن نمشي في مسالكنا؛ كنا نشاهد أضوية المصابيح الكاشفة النيونية وهي تدور فوق رابية في الأفق بـ 360 درجة تبحث عن العابثين من حولها والخارجين عن القانون.

حين تتجه الأضوية إلى وجهتنا كنا ننكص خانعين دون حراك أو تنفس، ما أن تزيغ بعيدا حتى نواصل مشوارنا.. علما المنطقة لا تخلو من الخنازير البرية وبعض الحيوانات المفترسة كالذئاب، كما تئمها أنواع من الغزلان وخاصة بعض أنواع الوعول والرنة ذات القرون المتشعبة، والتي تجد من العرانيس وجبات طعام شهية لها..

لم نكن نمشي، كنا نزحف داخل صمتٍ يهدد بأن يفتك بنا قبل الرصاص. خطواتنا تندمج مع نبض الأرض، ونبضنا يتردد كصدى في تجاويف الهواء المشبعة برائحة العرانيس المتكسرة. خلفي، زلّت قدم أحدهم فاختنق الصوت في حلقه كأنّه يبتلع رعبه. الجيش ما زالوا خلف السياج، وعيونهم قد تكون تترصّدنا من خلف المصابيح التي تدور مثل رؤوس الشياطين. السماء فوقنا خرساء، لكننا نعلم أن النجوم تراقبنا وتنتظر أن ندرك النهاية...

سرنا مع المنعطف مسافة مئتي متر تقريبًا، ثم انحرفنا يمينًا، نتسلل بين سيقان الأحراش من أشجار الأثل والصنوبر، مستترين بظلالها الساكنة. حيث خفّ خضل الطين تحت أقدامنا شيئًا فشيئًا، حتى شعرنا بأرضٍ تُحاكي خطانا كما نحاكيها، أرضٍ يُمكن الدعس عليها بثبات، رصّعتها عروق الأشجار، وزخرفتها رمال البحر المتناثرة، والحصى الناعم كالنجوم الصغيرة. كانت تلك أرض سُبرة، ترتع بها الجذور، وتتكور فيها صُرر شجيرات عالقة فيها..

بذلك كنا قد تجاوزنا حقل الذرى. خلفنا السيقان الرطبة تتمايل تحت نسيم الفجر، وأمامنا البحر ساكنٌ كما لو أنه ينتظرنا. كانوا قد طلبوا منا النكوص عند حافة الرمل الرطب، نستريح إلى حين مجيء القارب. جلسنا على حقائبنا الثقيلة، الموشومة بطين الطريق، وآثر بعضنا جلسة القرفصاء، كأن الأرض رغم بللها أوثق من أي وعدٍ بالنجاة.

المرأة البدينة كانت خلفي بخطوتين، تتنفس بصوت مرتفع، وأنا آخر من وصل إلى تلك النقطة. قرابة الساعة الثالثة والنصف فجراً، وقد بدأ الضوء يوشّح السماء بشيء من لون الرصاصي المتدرّج، ولكني اهجس بالعتمة تبطن السماءً بطبقة إضافية مع الغيوم. عشر دقائق مرت قبل أن نلمح القارب، يقترب بلا ضجيج من حدودنا.

حين تراءت لنا ملامح جزيرة ميتيليني، بدت كأنها تنادينا من الأفق، شاخصة أمامنا بوضوحٍ يبعث الطمأنينة. تضاريسها ارتسمت في الأفق كلوحة مألوفة، قريبة حدّ الوهم، لا تفصلنا عنها سوى خمسة عشر ميلاً بحريًا. بدت المسافة ضئيلة، كأنها لا تستحق كل هذا القلق، وكأن البحر نفسه قد رقّ قلبه لنا. عندها بدأنا نقنع أنفسنا بأن العبور ممكن، بل يسير، وأن الوصول صار مسألة وقت لا أكثر.

وقد تراءى لنا ممكن قطع المسافة المذكورة خلال نصف ساعة أو ساعة زمن أذا لزم الأمر وحسب تقديراتنا الأولية، وحسب حسابات الفكر ومقياس النظر التي اعتمدنا عليها، ذلك ما كنا نشجع به بعضنا ونسلي به انفسنا مع بعضنا

البعض.. فيما يبقى للبحر والأمواج العاتية والجو حساباتها المجهولة، لذا كانت المجازفة في رأيينا الأولي مستحقة قياسا لما واجهنا من مصاعب وتعصب وقتل وتهجير في بلداننا، تلك المسافة القصيرة أحكمت تفكيرنا نحو مواصلة التقدم وعدم التفكير بالتراجع أطلاقا.

لكن بعد أن تجاوزنا ثلثي المشقة، أُوصدت أبواب التراجع تمامًا. في تلك اللحظة، تلاشت فكرة العودة من أذهاننا، كأنها لم تكن. أصبحنا في الحلقة الأخيرة من دائرة الصراع بين الخوف والرجاء، بين المواجهة والتحدي. دخلنا في جدلية العبور التي أعددنا أنفسنا لها طويلًا، ولم يبقَ أمامنا سوى أن نمخر عباب البحر، ننتظر القارب الذي سيحملنا إلى الضفة الأخرى، حيث يبدأ التحدي الأكبر في حياتنا.

*****

البحر

ليلـة العبـور مـا كانـت ليلـة عاديـة، كأنهـا اسـدلت سـتار العتمـة علـى الـدنيا، دماسـة شـديدة كـأنَّ لا فجـر بعـدها، لـم تكـن مجـرد لحظـات انتظـار، بـل كانـت برزخًـا بـين مـا كنـا عليـه ومـا قـد نكونــه، بينمــا كنــا ننتظــر قــدوم قــارب العبــور، اســتثمرنا تلــك اللحظـات القصـيرة فـي إعـداد أنفسـنا نفسـيًا وعمليًـا. بـدأنا بتجهيـز المســتلزمات اللازمــة لعبــور البحــر، نحــاول إقنــاع أنفســنا بإمكانيــة الوصــول، وقــد بــدت معــالم الجزيــرة أمامنــا واضــحة كأنهـا تلـوّح لنـا مـن بعيـد. ومـع ذلـك، لـم يكـن الخـوف غائبًـا- بـل كــان حاضــرًا بقــوة، خاصــة لــدى النســاء، حيــث ارتســمت علــى وجـوههن ابتسـامات باهتـة، ابتسـامات مختمـرة بـالخوف والقلـق، كانــت الابتســامة فــي تلــك الليلــة عملــة نــادرة، تُــدفع فقــط مقابــل الرجـــاء، تعكـــس ارتبـــاك المشـــاعر والقلـــق الـــذي يعصـــف بأعماقهن.

كلماتنــا بــدت أشــبه بهــذيان خــاوٍ لا يصــدقه القلــب، كأنهــا صــدى لحــديث أرهقتــه كثــرة التكــرار، لا طمأنينــة فيــه ولا يقــين. ومــع ذلـك، نفخنـا دواليـب الهـواء بأيـدينا المرتجفـة، وارتـدينا سـترات النجــاة كمــن يرتــدي درعًــا مــن وهــم ونحــن نســتعد للمجازفــة المجهولــة مــرددين الأدعيــة بصــوت مرتفــع، كأننــا نحــاول أن نستحضـر بهـا بعـض الطمأنينـة. كنـا قـد بلغنـا نقطـة اللاعـودة، مــرميين فــي بقعــة معزولــة تحــت جــنح ليــل حالــكٍ لا يــرى فيــه المرء موضع خطاه.

ومـع ذلـك، شـددنا علـى أيـدي بعضـنا الـبعض، نتبـادل الأمـل كمـا يتبـادل الجنـود آخـر رصاصــة. لـم نكـن نعـرف مـا ينتظرنـا، لكننـا كنــا هنــاك... معًــا، نحمــل قلوبًــا أثقــل ممــا يبــدو، ونمضـــي إلـــى البحر لا يفقه ترجمة النيات المكبوتة داخل انفسنا.

تناوبـتُ مـع حسـام وصـادق علـى نفـخ الإطـارات، بينمـا انشـغل الآخــرون بتهيئــة أنفســهم. كنــت قــد أعــددت ســترة النجــاة لـــي ولابنـــي، الـــذي اســتحوذ علـــى جـــلّ اهتمـــامي، ثـــم عـــدت أعـــاون حســـام فـــي نفـــخ الـــدواليب الأخـــرى. كانـــت المهمـــة مرهقـــة؛ لكثرتهـا شـعرنا وكـأن صـدورنا قـد ضـاقت أنفاسـها وأفواهنـا قـد كلّــت، لكــن لــم يكــن أمامنــا خيــار. فهــذه الــدواليب كانــت أملنــا الوحيد في النجاة، إن داهمنا مكروه.

فــي أوقــات الشــدة، يضــطرب الإنســان، يخونــه تركيــزه، ويضــيع منــه ظلــه وظنّــه. لــذا كــان لزامًــا علينــا أن نأخــذ احتياطاتنــا، وأن نسـتعين بمـا أمكـن مـن معـين. كانـت تلـك الـدواليب، بعـد الله، خيـر سـند لنـا فـي تلـك اللحظـة الحرجـة. بهـا شـعرنا أننـا قـادرون علـى تحـــدي المـــوج والعقـــد، وأنهـــا تمنحنـــا شـــيئًا مـــن الثقـــة لمواجهـــة البحر.

بعـد جهـد مضـنٍ، تمكّنـا مـن نفخهـا بشـكل مقبـول. قمنـا بربطهـا علــى صــدور الأطفــال، بينمــا أمســك بهــا الكبــار بأيــديهم. وبينمــا كنـا نرتـدي سـتر النجـاة ونتهيـأ للرحيـل، شـعرنا وكأننـا نقـف علـى خــط المواجهــة المباشــرة مــع شــبح المــوت، الماثــل أمامنـــا، المتخفي في ظل الموج، والممتد في عمق البحر ومسافته.

لكن بتحصين أنفسنا بسترات النجاة، وتأمين الدواليب التي أصبحت جاهزة، تسلل إلينا شعور خافت بالأمان، كمن وجّه سلاحه نحو صدر عدوه. عندها فقط، شعرنا بالعزم يتجدد فينا، والإصرار يشتد، لمواجهة البحر وموجه، مهما كان غامضًا أو مخيفًا.

كانت لتلك الأدوات أثرها النفسي الطيب علينا، لقد خففت من وطأة القلق وهدأت من الروع الدائر في فلك عقولنا والمسيطر على قلوبنا، أضحينا نعرف باننا من الممكن أن نتعلق بخيط نجاة إذا ما حدثت بنا نكبة.

والحقيقة ليس جميع المهاجرين جلبوا معهم دواليب نجاة؛ فمعظم الشباب اكتفوا بسترات نجاة، وهذا يعني أنه في حال وقوع الكارثة وانقلاب القارب، سيتولد صراعا حتميا على تلك الدواليب. كلٌّ منهم سيحاول إنجاد نفسه ولو على حساب الآخر. وهكذا، ينشأ ضغط نفسي خانق، قد يودي بحياة من لا يُجيد السباحة أو يفتقر إلى رباطة الجأش في لحظات الخطر.

بعد انتظار دام قرابة ربع ساعة وصلنا القارب المطاطي. كان أبيض اللون، يتراوح طوله بين سبعة وتسعة أمتار، وعرضه يقارب المترين. حوافه مرتفعة بعلو قدم، وعريضة بعرض قدم، تُحيط بالفسحة الوسطى كإطار يؤطر صورة. بدا هشًّا وشفافًا إلى حدٍّ يُخيَّل معه أن لسعة نحلة قد تفجّره، لشدة ضغط الهواء المعبأ فيه.

كانت حوافه وأسفله محاطة بشبكة من حبال القنب المحكمة، تساعد الركاب على حفظ توازنهم أثناء مواجهة الأمواج العنيفة والمربكة التي تضرب القارب من تحته. كما يمكن أن تكون طوق نجاة في حال انقلابه، إذ تتيح لنا التمسك بها والتعلق بالقارب والصعود إليه مجددًا. كذلك، تسهم هذه الحبال في تثبيت القارب وتمنع انحرافه أثناء ارتفاع الأمواج أو اهتزازه المستمر.

بقدوم القارب كنا قد أنجدنا أنفسنا ووضبنا مستلزماتنا، حينها كانت الساعة تشير إلى الثالثة وخمسة وأربعين دقيقة من فجر يوم 23\09\2015 فجر أول أيام عيد الأضحى المبارك كما أسلفنا.

*****

ركوب البحر

ما إن لامس القارب رمل الشاطئ وارتكن عند جرف اليابسة، حتى انفلقت السكينة عن صخب مفاجئ، حيث اندفع الفتية كأسراب القطط البرية، يتسلقون هيكل القارب بلهفة المتعطش، كأنهم على موعدٍ مع مغامرة بحرية. اعتلوا مقدَّمته وتربعوا على حوافه بفضول المستكشف. فيما توانت النساء المذعورات من إمكانية ركب سنمه، تتقاذفهنّ أمواج الخوف من الداخل أكثر من تلك التي تضرب الشاطئ، كلن منهنَّ

تُمسكها حيرة مذلة، متعلقة بفلذة كبدها، خوفا ورعبا عليهم من التنين المجهول اللابد في عمق البحر. ذلك التنين الذي لا يُرى، لكن خياله يلوّح في صخب الموج وزبد التيه. بعضهنّ لا يعرفن من البحر إلا اسمه، وها هو الآن يتمطى أمامهن، هادرًا، حيًّا، ومهيبًا كقدرٍ لا مفر منه.

أجزم أن الجميع قد وضع نصب عينيه لحظة فراق أحبته، دون أن يبوح بذلك صراحة، مراعاةً للحالة النفسية للآخرين. لكن العيون، كعادتها، أفشت ما عجز اللسان عن قوله؛ كانت تنطق بما يدور في الخواطر، وتفضح ما يعتمل في الأعماق.

بعض النسوة كنّ يطأن الشاطئ لأول مرة في حياتهن، لم يسبق لهن أن رأين البحر إلا على شاشة التلفاز، في مشاهد السينما الحالمة. أما الآن، فها هو البحر أمامهن، حقيقيًّا، مترامي الأطراف، يهمس بأمواجه ويغوي بنسيمه.

وفي خضم هذا المشهد فيما وجدت أبني الذي ينظر إليَّ بعين تائهة ملئها حيرة وخوف من البحر، لا يعرف كيف يتصرف وماذا يفعل ليتجنب هالة الرعب الماكثة في نفسه، خاصة أنه لا يجيد السباحة قط. كان يرتعد في داخله من بعبع الماء. كان ينتظر مني إشارة، نظرة، أي شيء يطمئنه ويمنحه الجرأة ليرتقي القارب، بعد أن سبقه إليه الفتية والشباب بخفة واندفاع.

مـا أن أمتثـل القـارب أمامنـا؛ حتـى امـتلأ نصـفه بالفتيـة مـن مجمـوع عـددنا، حينهـا مسـكت يـد أبنـي وشـجعته علـى المجازفـة وقلت له:....

- هيـا يـا بنـي، دعنـا نرتقـي القـارب بسـرعة، لا حـل أمامنـا، ولا مجـال للتراجـع والعـودة، توكـل علـى الله أنـه هـو الحافظ الأمين..

رميت الحقائـب فـي وسـط القـارب ومـن ثـم رفعتـه وسـاعدته علـى القفـز ليتوسـط القـارب متربعـا بجانـب الحقائـب، فيمـا تعلقـت بالحبـل ومـن ثـم رفعـت جسـدي وارتقيـت القـارب بيسـر إلـى جانـب أبنـي لأجـد فسـحة علـى حافـة القـارب الأيسـر، تاركـا حسـام ينشـغل بأطفالـه وصـادق ينشـغل بأمـه الـذين صـعدوا جميعـا بمعاونـة الحراس المرافقين..

كنـت أنظـر للبحـر بشـوق وأنـا أجلـس علـى شـاطئه متمعنـا بأفقـه البعيـد متـأملا اخـتلاف درجـات زرقـة مياهـه علـى حسـب درجـات غـوره وعمقـه. لـم يكـن البحـر مجـرد طلالـة جذابـة، بـل أهجـس بـه فتـاة عشـرينية متدفقـة الأنوثـة، يكمـن فـي عينيهـا لـؤم خفـي مسـموم بزرقـة بؤبـؤ العـين، وفـي دمهـا غصـة عاشـق تجـرح كشـفرة الشـك المهيبـة فـي ملامـح الوجـه، وفـي فكرهـا يكمـن جـواء وعـدم اكتـراث، مُكتـفٍ بذاتـه حـد الازدراء. ومـع امتـداد الأمـواج المنتحـرة علـى الشـاطئ كـان ينسـل شـعرها السـارح علـى الرمـل حتـى نلـتمس ذوائبـه، فـأزداد هيامـا بـه. هكـذا هجسـت بـذاتي متلبسـة بعشـقه كعشـق النـوارس لشـواطئه. هكـذا بـدا لـي امتـداد سـحره يغشـي الأحـداق، بحجـم الشـوق والشـغف

الـذي أكنـه لـه، لكـن خلـف هـذا الإغـواء، يقبـع خـوف متمـاه فـي عمقـه، كقنبلـة تحـت جلـده المـالح. حـين اقتربـتُ منـه ولامسـت عنجهيتـه وصـلابة أشـواكه؛ تلاشـت تلـك الفتنـة مـن فكـري وخيـالي تمامـا.. بـت أخـاف وأرتعـب منـه وأنـا أتحسـس عنفوانـه وغـدره وجبروتـه، كمـن يلامـس حـدّ السـكين، وأدركـت أن عشـق البحر، ككل عشقٍ خطير، لا يُروّض... بل يُهاب.

لكـي نرتقـي القـارب كـان لابـد مـن أن تغطـس أرجلنـا بالكامـل فـي ميـاه البحـر، فيمـا النسـاء المـذعورات مـن التنـين اللابـد فـي سـره والماثـل أمـامهن بجبروتـه؛ ترتجـف اقـدامهن وهـن يـرتقينَ القـارب بمسـاعدة أزواجهـنَّ والحـرس التركـي المرافـق لنـا.. كـن يـرتعبن فـي دواخلهـن، خائفـات علـى أنفسـهن وأطفـالهنَّ، خاصـة بعضـهن لـم يجـربنَّ ركـوب البحـر مـن قبـل، ومـن الطبيعـي أن يصبنّ بعقدة الذعر.

يكـاد الكـل قـد تشـنجت أعصـابه لحظـة إحانـة الجـد دون اسـتثناء، أنـه الصـراع مـع القـدر والمجهـول، نـدرك جميعًـا أن نسـبة النجـاح فـي محـاولات العبـور السـابقة لـم تتجـاوز 20%، أمـا البقيـة فقـد ابـتلعهم البحـر. بعـض الجثـث طفـت علـى السـطح، نهشـتها الأسـماك، وأخـرى لفظتهـا الأمـواج علـى الشـواطئ كأنهـا رسائل يائسة من عالم الغرقى.

جلسـنا فـي القـارب متلاصـقين، كتفًـا إلـى كتـف، صـامتين كأننـا فـي حضـرة القـدر. كـان صـادق فـي وسـط القـارب، بينمـا جلـس ابنـي قبـالتي، مطـأطئ الـرأس، يتجنـب النظـر إلـى هيجـان

المـوج، يحـاول أن يتفـادى دوار البحـر، أو ربمـا يتفـادى مواجهـة الخوف في عينيّ.

لشـدة الزحمـة كانـت قـد تقيـدت حركاتنـا، بـل تقيـدت حركـة أعضـاء الجسـد بالكامـل إلا مـن حالـة التـنفس، فيمـا امـتلأت الفسـحة الوسـطية بالنسـاء والأطفـال والحقائـب، إضـافة لـبعض الشبان الذين لم يخوضوا معترك البحر سابقا.

القـارب بذاتـه صـمم لحمـل خمسـة وعشـرين راكبـا علـى أكبـر تقـدير، فيمـا حشـرنا فيـه بعـدتنا وعـددنا الخمسـة وأربعـون فـردا، بحيـث صـار القـارب يـئن مـن العـبء الـذي تجـاوز طاقتـه . هكـذا هـو جشـع المهـربين الـذين لا يخـافون الله، وضـعونا وأرواحنـا فـي ميـزان جيـوبهم، بحيـث المكـان ضـاق ذرعـا بنـا، كـل تحامـل على نفسه في محاولة إفساح المجال لرفيق يجلس جانبه.

جلسـنا متراصـين كحلقـات سلسـلة حديديـة مرتبطـة ببعضـها، مطـوقين القـارب، محيطـين الأطفـال والنسـاء والحقائـب، أشـبه بالسـور المـانع لمداهمـة خطـر الأمـواج ورشـقاتها علـيهم، أشـبه بالسـد المـانع أمـام قسـوة المنظـر المخيـف للقـابعين فـي الفسـحة الوسـطية مـن النسـاء والأطفـال، كنـا كطـوق حمايـة لهـم مـن الهمجية المتربصة بنا وسخط الموج العالي...

يعتبـر جلوسـنا وتوزيعنـا علـى حـواف القـارب؛ أشـبه بميـزان العتلـة، لألا يختـل تـوازن القـارب لجهـة مـا أمـام سـخط الأمـواج العاتيـة، بجلوسـنا كنـا قـد وزعنـا الـوزن علـى مسـاحة القـارب بشـكل مثـالي، ليـتمكن مـن صـد مقـذوفات الأمـواج والصـمود

أمـــام رعونتهـــا، خاصـــة تلـــك التـــي تـــداهمنا مـــن أســـفل القـــارب والتي تكون أشد علينا وعلى توازننا...

مـا أن عـبء القـارب حتـى شـعرنا بعتـةٍ قويـةٍ مـن قبـل الحـرس، داحـــرين بالقـــارب لوســـط ميـــاه البحـــر، مودعينـــا بســـلامة الوصول.

ومـا إن توكّلنـا علـى الله؛ حتـى تحـرك القـارب بنـا، حتـى انهالـت الأدعيـة مـن أفـواه الجميـع وهـي تتطـاير فـي الأجـواء كحمامـات بيضـاء، مضـت ترفـرف نحـو جـوف السـماء بشـيء مـن التوسـل والرجـاء والامـان، بـثُّ أراهـا بمشـاعري تـتلألأ حولنـا كـالنجوم- صـــدقها كـــان يضـــيء العتمـــة.. شـــق القـــارب عبـــاب البحـــر، مخترقًـا أمواجـه الهادئـة، النائمـة فـوق وجـه الغـبش علـى السـاحل التركـــي، ماضـــين بيســـر نحـــو جزيـــرة متيلينـــي اليونانيـــة، التـــي ارتســـمت تضاريســـها أمامنـــا بوضـــوح بـــالغ.. ومـــا إن أبحرنـــا، حتـى انسـحب الحـرس متـوارين تحـت جـنح الظلمـة نحـو جـوف مزرعة الذُّرى....

للوجـل الـذي كـان يركبنـا بزغـت عزيمـة الـبعض كعامـل مسـاعد فـــي شـــد أزر الجمـــع علـــى أمكانيـــة تجـــاوز العبـــور بأنـــاة ويســـر، وقـــد تمســـكنا بحبـــل الله، داعينـــه شـــد أزرنـــا وإنقاذنـــا مـــن وطـــأة الكـــرب حتـــى نصـــل اليابســـة، عســـى أن نرفـــأ بالهـــدف والغايـــة والاستقرار النفسي.

كأننـــا بـــدخولنا حـــدود البحـــر قـــد تجاوزنـــا علـــى مكانتـــه وحريتـــه وحقوقـــه المشـــروعة، تجاوزنـــا علـــى مجالـــه ومســـاحته وســـيادته

وكرامتـه. لـم تكـن الأمـواج حينهـا مجـرّد ميـاه متقلبـة، أنمـا هـي كائنـات حيـة جائعـة تبحـث عـن الفريسـة، تتحـرك داخـل أعمـاق البحـر بـإرادة مجهولـة، تحـاول أن تـدافع علـى ملكيتهـا، تحـاول أن توقـع بنـا، أن تطردنـا مـن واقعهـا - هجسـت بهـا كائنـات تمتلـك روح وإرادة وقـوى عضـلية لا يمكـن الاسـتهانة بهـا، تتمتـع بجسـد مـرن قـوي، تتلـوّى بقـوة وثقـة كثعـابين الأنـاكودا، تمتلـك مرونـة ومكـراً وعضـلات لا تعـرف الاستسـلام. بقيـت تشـن هجماتهـا علينـا بـين الأحـايين دون أن تكـف أو تمـل، تـارة كالعاصـفة، وتـارة تتراجـع كمَـن يُعـدّ لهجـوم أكثـر شراسـة. لـم تكـفّ عـن محاولاتهـا، وكأنهـا أقسـمت أن تطردنـا مـن واقعهـا، مـن كيانهـا، مـن عـالمٍ لسـنا فيـه سـوى غـزاة. ادركـت بـأن البحـر كائنـاً حيـاً، لا يسـتكين، ولا ينسـى... ينـتقم مـن كـلّ مـن يتجـرأ أن يلوث قدسيته ويتجاوز على ملكيته.

وكمـا للبحـر سـلطانه، كـان للـريح موقفهـا؛ إذ آزرتـه بهبـوبٍ صـارخ، ، حاولـت مـن خـلال مهامسـتها لنـا بهبوبهـا وقـوة عصـفها أن تحـذرنا مـن المجازفـة، أن تعيـدنا إلـى رشـدنا بعـدم خـوض غمـار البحـر. لـم تكـن مجـرد ريـاح، بـل نـذيرًا ناعمًـا وعنيفًـا فـي آن، كأنهـا أرادت أن تردعنـا عـن خـوض مغـامرة لا تعتـرف بقـوانين الحيـاة. كانـت تصـدّنا عـن التقـدّم، لا ضـعفًا بـل شـفقة، خشـية أن يبتلعنـا المجهـول. وكأنهـا تخـاف علينـا مـن غضـب الطبيعـة حـين تُـداس كرامتهـا، مـن تنـين يتـربّص فـي جـوف البحـر، مـن وحـشٍ غـائر فـي عمـق الفكـرة التـي تسـيطر علـى عقولنـا، أنهـا فكـرةٍ خدّاعـة بلـون المـوج، مزينـة بمكـرٍ يعمـي البصيرة.

بـدوري كنـت قـد حثيـت الجالسـين علـى محـيط القـارب مـن أن يبقـوا متـآزرين ومتمسـكين بحبـل القنـب، حفاظــا علــى تــوازن العتلــة أمــام تلــك الأمــواج المرعبــة، وذلــك بعــد أن صــار يشــتد وتيرهـا مـع تقـدمنا نحـو عمـق البحـر، خاصـة كنـا نلـتمس شـدتها مـن الجهـة التـي أجلـس فيهـا كـون الأمـواج كانـت تضـرب القـارب بزاويـة ̊45 درجـة مـن جهـة اليسـار برفقـة أتجـاه الـريح قياسـا لتقـدمنا بخـط مسـتقيم تجـاه الجزيـرة. كنـت ألـح علـى الشـباب خــلال سـيرنا فــي وســط البحـر أن يحــافظوا علــى تــوازنهم وهــدوئهم، أن يقللــوا مــن حركــاتهم الصــبيانية، حفاظــا علــى تـوازن القـارب وغشـائه الرقيـق مـن العبـث أمـام سـلامة الجميـع، لألا يختل بنا ثم يدرأنا في جوف موجة كلقمة سائغة.

مجنـونٌ مـن يُجـازف بحياتـه وحيـاة أطفالـه لعبـور البحـر. لا بـدّ أنـه فاقـد البصـيرة، أعمـى عـن رؤيـة الحقـائق مـن حولـه، مـن ذا الـذي يركـب البحـر وفـي قلبـه حيـاةٌ يخشـى عليهـا؟ لا يفعلهـا إلا مـن ضـاقت بـه الأرض بـه حتـى أصـبحت السـماء أقـرب إليـه مـن اليابسـة، مـن أعمتـه الفواجـع لا عـن البصـر، بـل عـن جـدوى الانتظـار. مـن ألقـى العقـل وراءه ومضـى يبحـث عـن معنـى آخـر للنجـاة. مجنـون مَـن يركـب عبـاب البحـر علـى مـتن قـارب مطـاطي هـش لا يفصـل بينـه وبـين اللحـد. قـارب يكـاد لا يفصـل بـين الحيـاة والمـوت إلا كمـا تفصـل يقظـة اللحظـة عـن غفلـة الأبـد. إلا أن يكـون الشـخص قـد بلـغ آخـر درجـات التهـور أو القهر.

كنت أظن أن البحر هو العدو، فإذا بي أكتشف أننا حملنا عدونا معنا- في هذه الأدوات التي تسمى زورًا "وسائل نجاة". في القارب الهزيل كأنه مصنوع من ورق، مغامرين بأنفسنا في بحر من الشك كالوعد في زمن الخيانة، ينذرنا بالموت كلما ظننّاه يعيننا على الحياة. إنه أمر مريع حين يُلبس الخطر رداء الطمأنينة، حين يصبح الأمان قناع زور يخفي في جحره أنياب الهلاك. لم أكن أتصوّر أن تكمن المشكلة الحقيقية في تفاصيل البحر ومزاجه، أو في القارب ورقته. لقد لمست الموت يشترك مع الحياة في ذات الادوات المستخدمة، في الوقت الذي نتعلق برقبة القارب لينقذنا؛ نلتمس بأن الخطر مخزون فيه إذا ما جلخ جلده، كما أن البحر الذي نعتمد عليه ليحملنا على كتفه إلى الهدف قد يغضب ويبلعنا بلحظة غفلة، والريح التي نتمناها أن تدلقنا نحو الهدف تكون وبالا علينا إذا ما هيجت الموجة علينا. هكذا تلك الأشياء تهددنا بالغرق أكثر مما تعدنا بالحياة. يا للعجب... ضدان، النقيضان، اجتمعا في كيانٍ واحد- وسيلة أمانٍ ظاهرًا، ومصدر تهديد باطنًا.

رأيت الخوف يتسلّل من بين أنفاس الأطفال، يتكوّر في ملامح النساء، يتمدد في الصمت الذي لفّنا، كأنما العالم كله توقف ليراقبنا نغوص في داخل أنفسنا قبل أن نغوص في البحر. كان الخطر يلتف حولنا كحبل مشنقة، مموهًا بأدوات نطمئن لها، مدفونًا في عمق البحر وهيجان موجه، مختبئًا في نعومة غشاء القارب، في خشونة أحذيتنا التي نخشى أن تثقب جلده، في رعونة سلوك البعض، في الصبر الذي وشل. كنت أرى الموت يتجول بيننا، متسترًا في نظرات الأطفال الصامتة، في

وجـوه النسـاء الخائفـة، فـي السـكون الثقيـل، فـي ملوحـة المـاء، وسواد العتمة التي غطّت عيوننا.

حتـى الـريح السـاجية صـارت تخاتلنـا، تـؤجج موجًـا مـا عـرف الرحمـة، وتـزرع فـي القلـوب خوفـا يزيـد بهـا الرجفـة.. المـوت يتـربّص بنـا، كـان مواربـا، يتخـذ مـن أدوات العبـور أشـكالاً لـه: يـدخل فـي انفـلات أعصـابنا، فـي النوايـا المرتجفـة، فـي الشـك الـذي ينخـر عقولنـا، فـي وهـم الطمأنينـة التـي تبخّـرت مـع الصـبر في غربال الزمن، بعثر شتاتنا.

المـوت؟ لـم يكـن مخلوقًـا عاديـا، كـان أخطبوطـا بـأطراف متعـددة. لا يحتـاج سـوى لشـرارة صـغيرة ليفترسـنا. حتـى صـبرنا أضـحى سـاتر الصـد الأخيـر بمواجهتـه، فلـم يبقـي فـي غربيلـه إلا عـدد قليـل مـن الصـابرين علـى الجلـد. وهكـذا تمثـل لنـا كـروحٍ شـريرة تتلـبّس كـل شـيء: غشـاء القـارب، انـدفاع الأمـواج، هشاشـة الأدوات، جُـبن الـبعض أحيانًـا، احـذيتنا الخشـنة. لكنـه فـي الحقيقة، كان كامناً فينا... في شرور أنفسنا من أنفسنا.

كنـا نلـتمس شـبح المـوت يـدور بيننـا، لابـد بماهيـة تلـك الاشـياء التـي ذكرتهـا، كـامن فـي نفوسـنا كشـيطان أخـرس، ممـوه بـالخوف النابـت كالشـعر فـي الوجـوه، برعونـة سـلوك الـبعض، متلـبس بـدفق المـوج العنيـف، متسـتر بغشـاء القـارب ورقتـه وبأحـذيتنا وخشـونتها، بالقـدر إذا مـا حـدث ثلمـة فـي القـارب وسط البحـر. تهجس بـه لابـث بعمـق البحـر ورهبتـه، مـراء بالنيـة الكهبـة التـي باتـت تثيـر زوبعـة شـك فـي أذهاننـا، بالأعصـاب التـي صـارت تفـرغ مكنونهـا، بالصـبر الـذي صـار كالمنخـل أمـام

شتاتنا. هكذا بات يتمثل لنا الموت كمارد بأشكال مختلفة، بصفات القارب البلاستيكي وسيولة المياه ومجانة البحر، بشرور أنفسنا من أنفسنا.

كنا نبحر ونحن ندرك بأن الموت يرافقنا، لم يكن شبحًا بعيدًا، بل ظلًّا مقيمًا بيننا، قاب قوسين أو أدنى من سرائرنا، متغلغل فينا، لابث في أعماقنا، يحاورنا بصمتٍ ثقيل، يتحرّش بأرواحنا عبر عبثية الموج، وسخط الريح، ونغزات اليأس، والهستيريا التي اجتاحت بعضنا لطول العناء ونحن نحاول، بكل ما تبقّى لنا من إرادة، أن نتجاوز عجزنا أمام تحدي البحر. الموت كان يشاكسنا في كل تفصيل: في صرير أحذيتنا المبتلّة، في السكون المريب الذي يلفّنا، في ظلمة الأفق، وفي شحّ البترول الذي نحمله معنا.

كل تلك المنغصات كانت تهددنا، ترعبنا، تقيد سعينا، وتسرق النجاة من بين أيدينا. كنت أشعر أن ما يفصلنا عن الموت ليس أكثر من شعرة واهية من الصبر والأناة؛ شعرة لو شددنا عليها، لانقطعت، ولأفلت زمام الأمر من بين أيدينا، ولتحوّلنا إلى أشلاء تتلاعب بها أمواج البحر.

مرات كثيرة بلغنا حافة الانهيار، اقتربنا من خط المواجهة مع الموت، بل حملنا على تلك الشعرة بقسوة، دون وعي، نحاول قص أجنحته بمقص التهور والحمق. بعضنا كان يحمل في جعبته من السفاهة ما يخلّ بتوازنه، ومن التفاهة ما يهدد تماسكنا، نتيجة خشونةٍ غير مبررة أبداها وسط القارب،

ونحن عالقون بخيطٍ واهٍ من الرحمة، بين مجانة الماء ورجاء السماء.

في لحظات الصخب، كنت أحاول تهدئة النفوس، أتعامل بأناة لنتجاوز العقد التي بدأت تتراكم. اندلعت بعض المشاحنات الكلامية، رغم أننا كنا نتأمل الوصول بسلام. وقفنا صاغرين أمام المشهد التفاهة التي دفعت البعض إلى حافة الحمق والجنون.

وخاصة المشاجرة التي حدثت بين حسام ورجلٍ لبناني درزي، حين ألحّ الأخير على قائد القارب بزيادة السرعة، مدّعيًا خبرته الطويلة في شؤون البحر. وأخرى اندلعت بين شابين سوريين، ارتقت إلى مستوى الإسفاف والتشرذم، بعد أن حشر أحدهما نفسه بين الجالسين على الحافة، مما أخلّ بالتوازن، وبدأ التدافع يهدد من يجلس في نهاية القارب بالسقوط في البحر.

كنت أهجس بالشيطان يتمثل لنا في أحد ركّاب القارب، لما رأيت من عسر الحال، وقلة الصبر على لحظات الشجن والعسر. وكنت أهجس بالموت يحاذينا، أراه يتهادى في روح الموجة القادمة، مموّهًا بالغيظ الذي يركبها كتنينٍ لا يُرد. وما إن نجتاز الموجة، حتى نحمد الله على السلامة، وندعوه أن يوصلنا سالمين إلى شواطئ الجزيرة.

كان الموت يحاول أن يختلق الفرص ليوقع بنا، وكنا نحاول تجنب عبثه وخبثه، نتصرف بتدارك أنفسنا وتجاوز شروره

ونحن نُراوغه بحذر ويقظة. كنا نتصرف معه بذعرٍ متماسك، نحاول أن نلملم أنفسنا ونصدّ شروره. كنت ألمح طيفه القاتم في ملامح الوجوه المرتجفة، أخاله يتهامس في خواطرهم. غير أننا كنا نقاومه بالصبر والعند، صرنا له الند بالند، واجهنا غله بالتماسك والشجاعة والفرفشة التي أحدثها البعض منا داخل القارب، تلك الأفعال جلت غبرة الخوف من على الوجوه.

لم اكن خائفا أبدا، لكني كنت مرعوبا من الخوف على هؤلاء النسوة والأطفال وبالذات على أبني الذي أصيب بدوار البحر، صار يتقيأ بشدة، شحب لون وجهه، مثلما تعلق القيء في فاه شاب سوري يجلس بجانبه، كأنما أخذ العدوة منه، هجست به يلفظ أنفاسه لتوالي عملية التقيؤ جراء إصابته بسخط دوار البحر.

لم تخطر ببالي حجم المصاعب التي واجهتنا وترقبتنا، نخرت الذاكرة لتبقى ماثلة فيه إلى الأبد، على الرغم من أني كثيرا ما كنت أبحث في عالم النت عن حجم المشاكل والمصاعب التي واجهت الذين سبقونا في الهجرة؛ إلا أني لم أجد ما وجدناه أمامنا قط.. الذين تفوه بالقليل لإذكاء الآخرين من الذين سيتبعون خطواتهم؛ تفوهوا بشيء من عدم الجدية، لم أجد في أحاديثهم تحذيرا أو وصفا جديا يمنع مجازفين من المجازفة.

ما طُرح من معوّقات لا يُعدو كونه غيضًا من فيض؛ فالحقيقة أعمق مما قيل، وأثقل مما وُصف. لا يدرك الحقيقة إلا من ركب لُجّة البحر، وذاق ملوحة الصراع بنفسه. وحده

من خاض، من واجه التيارات العاتية، من كابد ألم الموج وخشونة الطريق، هو من يستشف أسرار الرحلة.... أما من سبقونا كأنهم لم يلتمسوا الأضداد بأحاسيسهم مثلما التمسناها، أنما وجدوا في ملمسها نعومة أغرتهم فأنستهم حقيقة صفاتها. فكأنهم مرّوا على السطح، تحسّسوا الماء كما يُتحسّس الحرير، فخدعتهم نعومته، وغفلوا عن غدره الكامن في الأعماق.

رغم تكرار المآسي وغرق الأحلام في البحر، ورغم مطاردات الشرطة للمهاجرين والمهربين، يبقى الإنسان عنيدا، لن يرعو من تجارب الآخرين، يقحم نفسه في غمار المجازفة، يدفع ذاته لتلتمس غرين المآزق، كأنه لا يصدق تلك التجارب الآنفة التي سبقته إلا حين تكسر مجاذيفه، وكأن الدافع داخله أقوى من أي تحذير.

التجربة مريرة... داهمتنا بقسوتها، هشّمت عقولنا، شوّهت بصيرتنا، وضيّقت علينا أنفاسنا. جعلتنا بين فكي مطحنة، وأغرقتنا في لُجّة الخوف والشتات. تبِعنا السراب بإرادتنا في حقل الذرى والبحر، انجرفنا خلف وهمٍ حسبناه خلاصًا، فإذا به موت يتجسد خيالنا، يمشي أمامنا فظنناه يقينا فتبعناه، صار خيالا يركب الموج، تماها في البحر، في دفقات الموج حين تصفعنا، بالماء الذي مُلِئ القارب به. ثم يتلاشى بين أمواج البحر كخيال مراوغ. كأنَّ الموت كان يخاتلنا، كنا نلمح الموت في كل تفصيلة: في هدير الأمواج، في وقع الخطى، في غدر الموج وعصف الريح وفي أحذيتنا. كأنه يراقبنا

خلسة، يختبئ خلف غشاوة الشك، يتلوّى بيننا بوجهٍ شفاف لا يُرى، لكنه محسوس في كل لحظة وكل جزع..

ما زاد الطين بله يكاد الكل قد تطينت ملابسه وحقائبه في حقل الذرى الطيني، وحين أمتلأ القارب بالماء طفح الوحل داخله، ماجت المياه الطينية بغرائها على الحقائب والجالسين في وسط القارب. حاول الجالسون تجنب المياه وتغيير أماكن جلوسهم إلى الحواف الغليظة، ذلك ما أحدث تنافسا على المقاعد مما أدى إلى إخلال توازن القارب، فتعالت الصيحات على تهدئة النفوس وعدم التحرك لألا ينقلب القارب بنا.

كنا نُراوح بين أمواج المياه التركية، تحت عتمة ليلة ثقيلة، لم نتجاوز بعدُ الحاجز الدولي الفاصل بين تركيا واليونان، رغم مضي ساعتين من التيه في جوف البحر. كنا نحمل على الموت وهو يحمل علينا، ندق أسفين الصبر في نعشه ويدق أسفين الرعب في قلوبنا. نحاول كتم ضجيجه وهو يعبث بسكوتنا، صرنا كدمية بين أطراف أصابعه يتلاعب بنا، ألقى علينا ظلاله كسحابة شؤم، لا تفارقنا المخاوف. كأنه كان يرقبنا من خلف ستارٍ، ونحن نترقب نوباته على أمل أن ينجّينا الله من بطشه وغدره.

حسنا فعل ذلك الشاب السوري الجالس على خشم القارب من شطف المياه من وسط القارب بقمع صغير، قمع وجده تحت قدميه عبارة عن كعب قارورة مياه بلاستيكية عد لذلك الغرض، كأن الحراس جهزها لتلك المهمة.

لتجاوز خبث البحر وأساليب غدره؛ كان علينا التمسك بالسنن البسيطة الدارجة امامنا، كي نفلت من قبضته قبل فوات الأوان. كان علينا مطاوعة الظرف بتليين وتنعيم جِلّدِه، حيث تقضي الحالة إلى مهادنة سره وتجاوز غله بالهدوء والسكينة.

لثقل أمتعتنا وزيادة عددنا كنا نشعر بالقارب لا يتحرك عن موقعه، كأنه مثبت في البحر بمسامير، كلما تقدم خطوة للأمام ترجع خطوة بفعل دفق الأمواج له، كأنها تأبى تخطي حدود موقعها. أضحى القارب يعرج بمشيه، لشدة بطئه بات يلامس أعصابنا فيوترها. ثباته في وسط البحر يعني هلاكنا، ربما تتمكن شرطة السواحل التركية من مداهمتنا والقبض علينا، فنعود أدراجنا لنقطة الصفر، خالين الوفاض.

كان القبطان افضلنا حنكة في تلك الليلة، حليما، بحيث لم يهتم لزمن التأخير ولا لمداهمة الشرطة التركية لنا ولا لجعير البعض الذين حاولوا حثه على زيادة سرعته. وضع ثقته بنفسه ووضع سلامتنا نصاب عينيه، متوكلا على الباري عز وجل بثقة.. رسم صراعنا مع الموج بحرفية ونحن عالقون في قلب بحرٍ لا يعرف الرحمة، اقتلع سلامتنا من بين زئير الرياح وهمهمات الموج؛ كصخرة وقف يتحدى الزمن. لم يكن في عجلة من أمره، ولم يعرف الخوف طريقًا إلى قلبه. بل كانت عيناه تسبران عمق المدى، تقرأان الهواجس وتفسران العتمة المحيطة بنا، جعل نفسه عنصرا في هذه الرحلة الوجودية.

بحلمْه صار يدع القارب يلامس عنجهية الموجة برفق ورقة حتى تفوق القارب على غلها، طوع القارب بين يديه ككائن حي، همس له، أطعمه من هدوئه، روضه بلين، لا بعنف. حين تشتد الأمواج؛ كان لا يعاندها، بل يبطئ السرعة، وأحيانًا يطفئ المحرك، كأنما يمنح القارب لحظة تأمل، لحظة هدوء في حضرة العاصفة، كي يدرئ عنا الخطر.. حين اقترحتُ عليه أن يحرف تجاهنا قليلا ليجعل القارب يسير باتجاه الريح وتدفق الموج التي كانت تضرب القارب بجانبه. لم يتردد، فهم مغزى الفكرة كأنها انبثقت من ذاته؛ عندها توزّعت الصدمة على مقدمة القارب وكامل جسده، فأفقدنا شدتها، وأضاع مفاتيحها. حينها أصبحنا والموج في معاهدة رفقة غير مكتوبة: بتنا لا ننازعها، ولا نخشاها، بل نفهمها ونحترمها.. بتلك الطريقة أضحى الوزن العددي الكلي للموجة موزعا على سطح القارب بذات الكمية وبالتساوي. بينما في حالة الصدمة الجانبية كانت ستتمكن الموجة من فك لغز القارب والنيل منه، لأن مركز الثقل سوف يخرج عن محيط القارب، لعدم وجود عمق يغطيه وبالتالي ينقلب في عرض البحر..

لقد تجنبنا خطورة الأمواج بتلك الممارسات الذكية الفيزيائية، على الرغم من أننا كنا ننحرف عن اتجاه الهدف بزاوية 30 درجة مئوية تحت الصفر، حفاظا على سلامة الجميع من غدر الموج.

كنا نعيش وهْمًا، حين ظننا أن المسافة تُختصر في ربع ساعة أو نصف ساعة. والآن، بعد ساعتين من الإبحار، ما زلنا نراوح في المنتصف، تلاحقنا المؤشرات المقلقة: خزان الوقود يوشك على النفاد، التأخير صار يهددنا بنفاد البترول الذي بمعيتنا، وبإمكانية ملاحقة حرس الحدود التركية لنا.. كنا نسير بقاربٍ لا يحمل من الوقود سوى جالونًا احتياطيًا فقط، كأنه أملٌ معلق على ظهر موجة.

ونحن نناقش مسألة التأخير، تسلّل القلق إلينا كالماء بين شقوق الخشب، رغم ثبات البحر. احتدم النقاش، بحيث خرج أحدنا عن طوره؛ صار يقذف الحقائب في البحر، داعيًا البقية للحذو حذوه. ارتفعت الأصوات، صارت تتوسل... تحث الآخرين على رمي حقائبهم ليخف وزن القارب:.. –

- ارموا كل شيء! أنقذوا القارب، أنقذوا أنفسكم!

كنت أنظر إلى ابني بعينٍ يعتصرها الألم، فقد باتت حالته تُرثى لها. تدهورت صحته بشكل مفجع، وتفاقم تقيُّؤه كأن دوار البحر قد استوطن رأسه، عصف بتوازنه وأنهك جسده. تبادل الدور مع شاب مسكين يجلس جواره، بدا كأن الدم شفط من وجهه لشدة الوعكاء التي اعترته من دوار وهلع، حتى غدت ملامحه شاحبة كالليمونة. تلوّثت ثيابهما بطبقة من نسيج الوحل وذرع القيء، حتى اختنق في نشيجه، ارتجف جسده من أثر ما مرّ به من رعب وهوان ألم به.

مع كل موجةٍ عاتية، كنت أتشبث بشباك الحبل المحيط بحواف القارب بإحكام، خشية أن أفقد توازني. كنت أحث الآخرين بالتمسك بالحبل كي لا تقذفنا الموجة ككرة في البحر، كأنما هو طوق النجاة الأخير. كنت أستشعر الموجة القادمة قبل أن تولد، كأن هناك شبح خفي يراقبنا ويأمرها بالعبث، تُباغتنا بقوة توازي قطيعاً من الأحصنة الهائجة، تهدر في مدى القوة، قادرة على رفع الدفّة ومحاولة قلب القارب رأساً على عقب.

بجلوسنا المنتظم والمتراص على حافة القارب، تحقق لنا الثبات في مسيره، وتماسكه في مواجهة عبثية الأمواج الغاضبة. بلغ التلاحم بين القارب والبحر ذروة الألفة؛ إذ تشبث أحدهما بالآخر، فاحتضن البحر القارب، ولم يجد القارب بُدًّا من الاتكاء على الماء حتى التصق به. نشأت بينهما مودة وعِشرة، فخفّت حدة الموج، وتلاشت سطوته، حتى صار يتمايل بين دفقة وجذب في توازن رقيق مفعم بالسكينة.

كان لتوزيع الوزن على أطراف القارب أثر واضح في كبح جماح الأمواج العاتية وتشتيت قوتها؛ لذا طلبنا من الفتاة الإفريقية البدينة – والتي يفوق وزنها الجميع – أن تجلس في مقدمة خشم القارب، لفرض التوازن على جانبيه. وهكذا أثبتت الحكمة نفسها: ففي لحظة حرجة، أظهرت السمنة المفرطة والوزن الزائد وجهًا آخر من الفائدة، مسهمة في

بسط الأمان وسط العاصفة. فكم من أشياء صغيرة تُحدث فرقًا حين تُستثمر في وقتها المناسب لتوجيه دفّة الحياة.

كنت أشعر بذاتي محاصرة بين حقيبة الأنسولين والراكبين المتزاحمين عند قدمي، ومن الجهة الأخرى بالزحف المتكرر الذي تعرضنا له كلما اندفع أحدهم ليجلس في صفوفنا عنوة، كأنما الحياة نفسها تدفعنا إلى حافة الاحتمال. الجلوس كان مقيدًا، لا أستطيع تحريك قدميّ اللتين خذلتهما الدورة الدموية، حتى غزاهما الخدر وتملكهما التنميل، وكأن جسدي بدأ ينهار قطعة قطعة.

امتد السخط المتجمد في قدمي صعودًا نحو الفخذين ثم إلى الظهر، بفعل السكون المرهق والتعب المتراكم. جلسنا كما في وضعية القرفصاء، لا نملك حرية الحركة ولا حتى هامشًا للارتجاف. تجاوزنا أربع ساعات من التصلّب؛ الزمن تحوّل إلى سجان، والمكان إلى قيد من لحم وحديد.

كنت عالقا بين الحقائب المنتفخة، ومؤخرة امرأة تضم في حجرها توأمين. لا أستطيع إزاحة الحقائب، ولا لي القدرة على ركل جسد المرأة استيحاءً، فاستسلمت للصمت والمشقة حتى انمحى الشعور تمامًا، وذابت قدماي في فراغ موضعهما، وكأنهما تلاشتا من فرط الجمود.

بعد أن قطعنا أكثر من نصف المسافة، هدأت الأمواج شيئًا فشيئًا، وبدأنا نتنفس الصعداء، رغم أن الحيرة ظلت تملأ القلوب والنفوس بما يحمله المجهول. تخلصنا، ولو مؤقتًا، من

شبح الشرطة الساحلية التركية الذي ظل هاجسها يطاردنا في مخيلتنا، خشية أن تعيدنا إلى نقطة البداية. أصبحنا نتكاتف ونتقاسم ما تبقى، نحمل بعضنا البعض على أمل تجاوز المسافة الأخيرة.

كان يظهر لنا من بين الظلال المقنع، بملامحه التي رأيناها من قبل، مرعبة غريبة، كأنها تسكن في اللاوعي، تتحرك فيه وتخيفه. كنا نعيش بين استسلام مرير وتأمل خافت لما تبقى من أميال، مترددين بين الرجاء والخوف.

أما أنا، فقد كانت عينيّ تبكي دمًا وأنا أرى ابني يحمل حقيبته الصغيرة المعلقة برقبته، تحتوي على أنسولين حياته. شعرت أنني خاطرت بعمره ومستقبله وثقته، وهو لا يعترض، بل يطيع بلا سؤال، موقن بأني أسعى لخيره، راغب بأن أوفر له ما أستطيع من فرصة لحياةٍ أكثر عدلًا. كان مطيعًا لدرجة الوجع، لا يخالف لي أمرا ولا رأيا، سايرني دون أن يسأل إلى إين نحن ذاهبون، غرز ثقته الكاملة بي، وهو على يقين بأني أسعى لإسعاده وتوفير فرص حياة أوفر حظا له..

كنت أنظر إليه بشفقة لا توصف، لجهله فن السباحة، لقلة تجاربه في الحياة وقلة احتكاكه بالمجتمع، لا يعرف كيف يتصرف في الحالات الحرجة أمام الكوارث إذا ما وقعت لا سامح الله، لا يستطيع أن يدافع عن نفسه أو ينتشل ذاته من فك المخاطر. لكنني كنت أصبر نفسي عليه، يجب أن يفك أنشوطة قيده بنفسه، يجب أن يتحرر، يجب أن تدبغ جلده التجارب.

وحين أنظر لما يدور في الوطن، أقتنع جدا وأقنع نفسي بصحة قراري، حيث هناك من جازف بأكثر من ذلك، ماذا أقول بحق تلك المرأة التي جازفت بحياة توأميها أعمارهم شهرا، وتلك التي ترفق بذيلها ثلاث أطفال، وهكذا هلم جرى.. كل يشعر بألم يعتصر قلبه، خائر في داخله، دون أن يستطيع أن يشف غليله ويبوح بسره، لأنه سيجرح المعني بذلك، ولكن ألمي من نوع آخر كون أبني مريضا بالسكري. كون عليه يجنب نفسه خطورة عدو الساكن جسده.

في طريقنا، دار بيننا حديث عائلي عميق- لم يكن عن قارب فقط، بل عن اختيارات الحياة. كلٌّ رأى في تركيبة القارب ما يعكس أولوياته:

منّا من رأى اليخت عنوانًا للسرعة والمتانة، وسيلة تبلغ الغاية في نصف ساعة.

وآخرون أنصفوا الطوافة المطاطية، رغم بطئها، فهي تبقى طوق نجاة إذا ما انقلبت. يمكن العودة إليها أو التعلّق بحبلها، خاصّةً للشباب، أما الأطفال والنساء فالأمر أعقد.

اليخت يختصر الزمن... الطوافة تمنح فرصة البقاء... لكن بين السرعة والأمان، تنشأ فلسفة: أيّهما نركب؟

إذا كلٍ له مميزاته، اليخت ممكن أن يقطع المسافة بنصف ساعة وبذلك يقلل من نسبة احتمالية وقوع الخطر، وخاصة بأنه لا يرهق زبائنه نفسيا ولا جسديا ولا فكريا. فيما إذا غرق

سيغدر بزبائنه بلحظة غفلة فلن ينجو من راكبيه أحد.. بينما الطوافة المطاطية لبطئها فأنها تجهد راكبيها نفسيا وبدنيا وذهنيا، إلا أنها ممكن أن تكون عامل إنقاذ لهم في حالة انقلابها. تلك النقاشات هدأت من روعنا، كانت أشبه بحقن تخدير خففت من تشنجاتنا. حيث الوصول متأخرين، خير من عدم الوصول....

خلال المرحلة الأولى من الشاطئ التركي كانت الأمواج تصارعنا بشد وكأنها لا ترغب بأن نبحر في مياهها العميقة الغير آمنة، نشعر بها صارت ندا لتقدمنا وكأنها وجدت كردة فعل مقابل فعل تقدمنا في مساحتها. حاولت لثم عزمنا وزعزعة إرادتنا.. ذاك ما أهدر الكثير من الوقت ونحن نراوح في سيرنا...

في النظرة الأولى، خُيّل إلينا أن الأمر سيكون سهلًا، رحلة قصيرة في قارب ضعيف نحو الأمل... لكن الزمن كان كفيلا بكشف الحقائق. ما بدأ كهدوء، سرعان ما انقلب إلى سلسلة من المصاعب الطافية على السطح.

أُنهكنا الجلوس الطويل بوضعٍ جامد لا يتغير. الانتظار صار لعنة، والخوف تسلّل إلى رؤوسنا، خوفا من أن تطاردنا الشرطة الساحلية. الأمواج ارتفعت، فامتلأ القارب بالماء مرارًا... الحقائب طافت فوق رغاء الطين، والماء عبث بثياب من جلسوا في الوسط، كأنه يُعاقبهم على صمتهم.

من حسن حظنا لم تمر بجوارنا سفن عملاقة تُفاقم عنف الأمواج، لكن ذلك لم يمنع البحر من هيجانه. كلما توغّلنا في المياه اليونانية، ازداد عنفوانه، كل خطوة نحو الجزيرة كانت أقسى من سابقتها. توقعنا أن تُهدئ الأمواج من عنفها قرب الشاطئ اليوناني، ففوجئنا بها تقف ندا وسدًّا في وجهنا.

وقبل أن تبزغ الشمس، صار بعضنا يلوّح بالمصابيح الكاشفة في عتمة البحر، يناشد خفر السواحل هاتفياً... يبعث بنداء النجاة. كأننا نقول للعالم: نحن هنا... عالقون بين الحياة والموت. شعرنا أننا تورطنا، فالموج لم يعد يسمح لنا بالتقدّم، والرجوع لم يعد متاحًا لنا... والبحر، لا قلب له.

مع دخول المياه القارب، أندس بعض الجالسين في الوسط بين الجالسين على حواف القارب، مما ولد ضغط زاحفا على الجميع وبالذات على الذين يجلسون في مؤخرة القارب من احتمالية سقوطهم في البحر نتيجة الزحف الحاصل، بحيث صرنا نميل بعضنا على البعض، إضافة إلى زيادة عبء الوزن في مؤخرة القارب عن مقدمته، مما ولد عبئا إضافيا على قدرة المحرك الذي صار يعاني من دفق القارب للأمام.... ذلك ما دعا الجالسين في الخلف من أن تتعالى أصواتهم احتجاجا على العابثين في مقدمة القارب، فيما ناشد قبطان القارب المتنافسين على المقاعد من العودة لأماكنهم خوفا من عطل المحرك.

ونتيجة التأخير زاد الملل والقرف عند البعض، ارتفعت المشادات الكلامية هنا وهناك، هذا يصرخ وذاك يلوم وآخر

يعاتـب ووو..الـخ مـن لغـط مـن هـذا القبيـل دار بـين الـبعض، صـارت النسـاء تصـرخ وتحـث علـى الهـدوء وخاصـة بيننـا مجموعـة مـن الأطفـال القصـر، المشـادات تزيـدهم خوفـا ورعبـا، والوضع لا يحتمل أزف المشاحنات.

مـع تجاوزنـا خـط الـوهمي الفاصـل بـين تركيـا واليونـان؛ بـدت ملامـح الفجـر تلـوح فـي الأفـق بعـد أن شـعرنا بـوهج النـور يطـارد حلكـة الظلمـة، حينهـا فـاض الأمـان بأعماقنـا بشـيء مـن السـحر، أشـتد تمسـكنا بالحيـاة، الـبعض منـا قـد أشـار مـن خـلال هاتفـه علـى تحديـد موقعنـا الـذي دل علـى أننـا تجاوزنـا حـدود تركيـا، كمـن جردنـا مـن مخـاوف ملاحقـة الشـرطة التركيـة لنـا، ذلـك مـا طمأننـا مـن اسـتحالة ملاحقتنـا، حيـث تكـون معظـم دوريـات الشـرطة مشـغولة بـأمر العيـد واحتفالاتـه، لطبيعـة نظـام الـدول الإسلامية.

ومـع انـبلاج ضـوء الشـمس، حـين لامسـت خيوطهـا البرونزيـة سـطح البحـر، انعكسـت علينـا بهـدوء يشـبه الحنـين... كأنهـا تبشرنا بأن النور لا يغيب، وإن طال الليل.

رغـم هـدير الأمـواج المخيفـة، ورجفـة القلـوب مـن المجهـول، علـت البسـمة علـى الوجـوه، وارتفعـت الأصـوات بتراتيـل العيـد، كأنها تتحدى الغربة وتقاوم الوحشة:

الله وأكبـر ألله وأكبـر الله واكبـر- لا إلـه إلا الله والله وأكبـر- الله واكبـر ولله الحمـد- الله وأكبـر كبيـر- والحمـد لله كثيـرا- وسـبحان لله بكـرة وأصـيلا- لا الـه إلا الله وحـده- صـدق وعـده- ونصـر

عبـده- وأعـز جنـده- وهـزم الأعـداء وحـده- لا إلــه إلا الله - ولا نعبـد إلا إيـاه، مخلصـين لــه الـدين ولـو كـره الكـافرون.. اللهـم صــل علـــى ســيدنا محمد، وعلـــى آل ســيدنا محمد، وعلـــى أزواج سيبدنا محمد، وعلى ذرية سيدنا محمد وسلم تسليما كثيرا..

محمد، وعلى ذريته، وسلم تسليماً كثيراً.

رددناهـا بقلـوب مبللـة بالشـوق، وأرواح تتـوق لـدفء الأهـل، وعيون ترنو إلى الأفق، علّ مركب العودة يلوح في الأمل.

فـي تلـك اللحظـة، لـم نكـن مجـرد غربـاء علـى شـاطئ بعيـد... كنـا أمـة واحـدة، تصـلي مـع البحـر، وتكبـر مـع الشـمس، وتبتهـل أن يعـود العيـد القـادم ونحـن بـين الأحبـة، لا تفرقنـا المسـافات ولا تمزقنا الحروب.

ممـا جعلنـا نتجـاوز الخلافـات ونعايـد بعضـنا الـبعض، خاصـة فـي مثـل هـذا اليـوم البهـيج يجـب أن لا تـبغض النفـوس علـى بعضـها الـبعض. ولكـن الضـغط النفسـي والتعـب المرافـق للرحلـة وبعـد الأحبـة، رسـم خيطـا شـفيفا مـن الحـزن أعتلـى الوجـوه، حتـى المسـيحي الـذي كـان معنـا بعمـره السـتيني، صـار يـردد شـعائر العيـد، شـعرت بـه يبحـر بعيـدا فـي عـالم الخيـال، لا أدري بمـا كـان يفكـر فـي حينـه، لكـن الفـرح سيشـمل الجميـع إذا مـا تخطينـا شـبح المـوت، فـأن العيـد سـيكون عيـدا حقيقيـا لنـا فـي ظـل حيـاة نتأملهـا مستقرة وسعيدة.

لم يسقط الدعاء عن الألسن خلال مناجاتنا الرب، الحافظ الأمين، إرضاء لعيون الأطفال والشباب الذين جازفوا بأرواحهم، تاركين بلدانهم من اجل حياة تليق بهم. مرت علينا لحظات عسر شديدة، كنا فيها نتمسك بحبل القارب من جهة وبحبل الله من جهة أخرى.

كنا نحتضن القارب بأجسادنا وأرواحنا، كأننا نغلفه بدرع من العزم كي يصمد أمام جنون البحر. لم يكن مجرد طوافة تطفو، بل صار امتدادًا لحياتنا، قطعة من مصيرنا، نتمسك بها كما يتمسك الغريق بآخر خيط من الأمل.

لكن الأمواج لم ترحم. كانت تهاجمنا بوحشية، كأنها تسعى لتمزيق تلك الأصرة التي جمعتنا بالقارب. بدأ التعب يتسلل إلى النفوس، والملل من طول الطريق وسقم الظرف ينهش فينا. ومع كل موجة، كنا نواجه الموت وجهًا لوجه، نشعر بأنه يراقبنا من عمق البحر، ينتظر لحظة غفلة لينقض.

لكننا لم نستسلم. قاومنا. صرنا ندًا للقدر، ننازله بالصبر والعزيمة، نرد على غله بإصرار لا يلين. كل رشقة من الأمواج كانت تملأ القارب بالماء، فينهض ذلك الشاب الوسيم، بقمعه الصغير، يفرغ الماء خوفًا من أن يثقل القارب ويغرقنا. كان يفرغ الماء وكأنه يفرغ الخوف من قلوبنا.

وحين بدأت ملامح الجزيرة تظهر في الأفق، لاح طيف باخرة عملاقة، تبعد عنا نحو ثلاثة أميال بحرية. دب القلق فينا من جديد. أحدنا صاح مطالبًا بالإسراع قبل أن تقترب،

محذرًا من أمواجها التي قد تقلب القارب. آخر، أكثر هدوءًا، قال إن المسافة كافية لتجنب الخطر. وثالث اقترح التوقف وانتظار عبورها، مؤكدًا أن أمواجها تمتد لأميال، ولا يمكننا مجاراتها.كنا على مفترق قرار، بين التقدم والمجازفة، أو التوقف والمراهنة على السلامة. البحر أمامنا، والباخرة تقترب، والجزيرة تنادينا من بعيد... فهل نغامر؟ أم ننتظر؟

ظل الحودي يسير بنا بتمهّل وهدوءه المعتاد، غير آبه بخطر الباخرة، إذ كانت بعيدة عن مرمانا بعض الشيء. لكن حين اجتازت الباخرة المفازة التي تفصلنا عن الجزيرة، وعلى الرغم من بعدها الذي لا يقل عن ميلين ونصف، هاج البحر فجأة هياجًا لم نعهد له مثيلًا. أمواج متغضنة صارت تتغطمط بنا، فتعالت حالة الاغتياظ، حتى أوشكت أن تفتك بنا.

كانت تلك الأمواج أعنف وأقسى من كل ما واجهناه من قبل، حتى كدنا نغرق لولا رحمة من السماء هبطت فجأة، فأسكنت الأمواج عند خشم القارب الذي امتص صدماتها. انقضّت علينا موجات متتالية، فبات القارب يرتفع معها ليعانق الموت، ثم يهبط بنا غارقًا كالحجر. مالت أجسادنا تلقائيًا، كردة فعل فيزيائية، وكدنا نسقط لولا تمسكنا بحبل الله، ثم بحبل القنّب الذي يحيط بالقارب من كل جهة.

كانت الكارثة قاب قوسين أو أدنى، فارتفعت مناجاتنا إلى السماء، نستنجد بالله أن يدفع عنا شرّها ويسلمنا من غلّها. تعالت الأصوات بالدعاء... الكل صار ينادي.

يالله – يالله رحمتك

تلك الأمواج فاضت بنا، ملئت القارب بالمياه بعد تكسرها في مقدمته.. أصفرت الوجوه، الكل بات ينظر نظرة مبهوتة للآخر، الحيرة شفطت البسمة من الوجوه. أحسست بالخوف قد أشتد في وجه أبني، زاد شحوبا، حينها توقعت بأن منسوب سكري الدم قل في جسده، صار يأثر عليه، حينها طلبت من الشاب عبدالله الجالس بجانبي أن يسعفه بنستلة شكولاتة كانت في يده، ذلك الشاب اليافع لم يتجاوز سن البلوغ، كان لطيفا، وسيما، رزينا، مرحا. كانت هي الوحيدة التي أحتفظ بها لنفسه خلال الطريق. فقلت له:.....

- يا عبدلله أبني مريض بالسكري اشعر عنده هبوط في السكر، ممكن أن تسعفه بالنستله؟
- تفضل ياعم.

اعطيت النستلة له لكنه بسبب الدوار أبى أن يأكلها. كان مهموما بسبب تلك المجازفة.

اقتربنا على مسافة ثلاثة أميال بحرية عن شاطئ الجزيرة، كانت الساعة قرابة السابعة والنصف، أي مضى على صراعنا مع البحر قرابة أربعة ساعات إلا ربعا، وكنا بحاجة لساعة إضافية لنصل إلى الشاطئ.. حينها لاحت لنا في الأفق قوارب صيد بعيدة عن الشمال والجنوب، ذلك ما طمأننا بسلامة الوصول، وأن المسافة الباقية أمامنا ما هي سوى تحصيل حاصل يمكن تجاوزها. خاصة معالم الجزيرة

صارت أكثر وضوحا وجمالية لنا، بعد أن لاحت لنا الأبنية على سفح التلول والأشجار مبثوثة حولها، الشوارع تتخطاها.

حينها صارت الوجوه تبتسم ونداءات الفرح تطلق أهازيجها في الوجوه. قسم منا رمي دولابه ونجادته في البحر. كانت الشمس قد تسلقت أفق السماء عاليا، صارت ترفقنا بدفئها وتخبرنا بسلامة وصولنا، كأنها عبرت عن سعادتها وبهجتها بوصولنا سالمين مع صبيحة العيد..

بعد أن تجاوزت الساعة الثامنة بخمس دقائق، لمحنا قارب خفر السواحل في الأفق متجهًا نحونا. كنا على بعد ميلين من الشاطئ حين إذ أطفأ الحوذي محرك القارب، بينما انصبّت أنظارنا على اليخت القادم، نترقّب الإجراءات التي سيتّبعونها معنا. كان الأمل يحدونا بالنجاة وانتشالنا من هذا المصير.

اقترب اليخت كثيرًا، وعلى متنه ثلاثة من أفراد الشرطة الساحلية اليونانية. دار القارب حولنا دورةً واحدة، ثم جعلوا اليخت يلامس قاربنا وهم يشيرون إلينا بالسكينة والهدوء، خاصة حين وقعت أبصارهم على النساء والأطفال الرضع بيننا. كانت الوجوه تنطق بالشقاء والبؤس، تعبيرات دقيقة يكسوها الخوف والألم، تُلخّص المتاعب التي واجهناها، كأنها ترجمات حية تختزل قواميس الحياة بعمق معانيها.

كان الجميع بحاجة إلى ما يزيل عنهم أثقال التعب وينقّي أرواحهم من كدر التجربة. فالشقاء الذي لازمنا منذ مغادرتنا دوار النافورة في إزمير حتى وصول خفر السواحل اليونانية

قد أثقل كاهلنا، واستنزف طاقتنا النفسية حتى بتنا نشعر بصدئها يتآكل من الدخل. صرنا كخرقة تتلاعب بها الرياح؛ استنفدتنا الأعباء وجردتنا من لطفنا الطبيعي، فكيف بالأطفال والنساء الذين لم يكن لهم من الصبر طاقة ولا من الجلد سبيل؟

عاملونا بحسنى وطيبة، تحدثوا معنا بلغة تنضح بالطمأنينة، وبلكنة إنجليزية سهلة الفهم. طلبوا منا ترك أمتعتنا في القارب والصعود إلى اليخت بتأنٍّ وهدوء. كان الخوف يتملكني من أن تُلقى أمتعتنا في البحر، فضممت حقيبة الأنسولين إلى صدري كما تُضم الحياة إلى القلب.

لأول مرة شعرنا بالأمان؛ كأنما وُلدنا من جديد، وانسابت الراحة في عروقنا كماء صافٍ في جدب طويل. أحسسنا بطعم النصر، وكأن الكدر نُزِع من أجسادنا، واستبدلناه بإحساس مُبهج بحياة جديدة خالية من العقد، نقية من الخوف.

وحين وصلنا، طوينا صفحة البحر وما فيها من شقاء، وغدت النفوس أكثر هدوءاً، واستعادت الوجوه ابتساماتها، وإن كانت خجولة. تلك الابتسامات، وإن اختزنت شقاء الغد في طيّاتها، كانت مفعمة بالطمأنينة وراحة البال، كأنما تقول بصوت خافت: لا بأس، أنتم بخير الآن.

المعاناة خلال الرحلة

حين اقترب يخت خفر السواحل، طلبوا منا التزام الهدوء والروية، وترك حقائبنا ومستلزماتنا في القارب المطاطي، ثم الصعود بتأنٍ وتسلسل دون ربكة. ارتقت النساء والأطفال أولاً، ثم تبعناهم، وافترشنا سطح اليخت صفاً بجانب صف لكثرة عددنا. كان ابني قد سبقني إلى القارب، وما إن أخذنا أماكننا حتى قال لي إنه بحاجة للتبول. نصحته أن يسألهم عن مكان مخصص، وأن يخبرهم بأنه مريض بالسكري، مستفيدًا من إجادته للإنجليزية بطلاقة. فجاء الرد البارد:

- قف في زاوية اليخت وتبول في البحر.

نظرت إليه وكأنه لم يعد ابني، فالإعياء والجزع قد غطيا ملامحه، ووجهه شاحب، وملابسه الرثة التي تمرغت في طين الطريق والقيء، متسخة حتى قدميه. قلت له بصوت حزين:

- يا بني، الحمد لله على سلامة الوصول، والحمد لله أنك لم تصب بهبوط السكري خلال الطريق.

فأجابني بصوت خافت:

- حين تعشينا في مطعم إزمير، لم أحقن جسدي بالأنسولين، خفت أن ينهكني خلال الرحلة.

قبّلته من رأسه تقديرًا لبصيرته، وقلت له:

- حسناً فعلت، لكنك لم تخبرني... كما لم نكن نعلم وعورة الطريق، وخاصة حقل الذرى الطيني الذي أنهك عضلاتنا، وتلك المشقة التي واجهناها في البحر.

قال لي:

- لو أخبرتك، لأجبرتني على أخذه خوفًا على صحتي... لذا كتمت الأمر عنك.

كانت تجربة لا يمكن للكلمات أن تصف قسوتها، تزداد غموضًا كلما حاولنا الإحاطة بها، تشبه وهدة عميقة من العتمة، ملغومة بالمفاجآت، معجونة بالألم والرغاء والرهبة. متقلبة، خرمة، شائكة، جهمة، أليمة، شيء من المجهول لا أسم لها ولا صفة تصفها، مغلفة بالمفاجآت، كنا نتذوق طعم المرارة إلى جانب حلاوة ماهية في قعر الكأس. وحين تداهمنا المشقة تتسمر ألسنتنا بتلك المرارة المنبجسة من حنظل الطريق.

كأننا كنا نسير خلف شبح مجهول، هدف مهموز لا نعرف شكله ونهايته. الظروف تحاصرنا، والخطوات تتبع أوامر غامضة تخرج من الذات، كأننا في مهمة عسكرية بلا قيادة. تتفاقم عقد الحياة في دواخلنا، تدفع بنا نحو تنفيذ تلك الأوامر الغيبية والغبية، متأرجحين بين رحمة تنهمر كالمطر من الله، وشيطان داخلي قانط بيننا يتلاعب بمصيرنا والقرارات.

ومع كل خطوة، كانت الصور تبان أكثر بهتانًا، الألوان عبثية كغروب ممتد، تغلبها دكنة رمادية واضحة على طول مراحل الرحلة. تلك الألوان صارت جزءً من هويتنا وهوسنا وصفة من هواجسنا- ففي الوقت الذي به يطفح بصيص امل في الأفق تغشيه دكنة من لون الغسق دون أرادة. كنا نبحث عن إشراقة واحدة في هذا البحر يخترق الظلال، وعندما لاح طيف الجزيرة اليونانية في الأفق، بدت لنا الصورة تبتسم في خضم ذلك الظلام وكأنها صورة من الجنة الموعودة.

تورمت أقدامنا، وتورمت المشاعر معها، وكل شيء صار يشبه عقد الطريق، وكأننا صعدنا جبل شاهق حاد من الجانب التركي، ومن ثم انحدرنا انحدارا سلسا من الجانب اليوناني. في كل مرحلة من تلك المراحل فقدنا شيئًا من أحلامنا، من صبرنا، من طاقتنا وأرواحنا. بتجاوزنا بحرًا متقلبًا، وأمواجًا عاتية، كنا تجاوزنا أهم العقد. حتى لاح لنا فجر الأمان يبتسم لنا من بعيد حين توضحت معالم الجزيرة... كنا قد بذلنا جهدا مضنيا يفوق طاقتنا ونحن نصعد إلى الجبل الشاهق خلال حقل الذرى ومرحلة عبور البحر، وما أدركنا القمة القانطة في سدم المجازفة، حتى تجاوزنا الضغط النفسي الذي جزل عنا الفكر والصبر والعناء، وبالذات حين تجاوزنا خطورة الأمواج العاتية التي أحدثتها الباخرة العملاقة.. بعدها بدأت لاحت لنا إشراقة الأمان تبتسم في الأفق، اغتسلت بأشعة شمس الصباح، ارتدتْ وهج العيد، ازاحت عن النفوس ذوائب اليأس وشطط العناء والعتمة.

وفي تلك اللحظات، البعض منا رمى وسائل نجاته في البحر، كمن خلع عن جلد عناء الرحلة، متشوقًا لأن يقبض على الأمان بيديه... كانت الإضاءة كشفت لنا بطء تكور الفرج الذي نتبعه في رحم الظرف، كان قد بدأ يرق في الفكر كنطفة، ما أن نضجت الفكرة وتخطينا حقل الذرى حتى صارت علقة، وبعد تجاوز الحد الوهمي الفاصل بين تركيا واليونان غدت مضغة تزامنا مع بزوغ معالم الجزيرة الواضحة أمام أعيننا ونحن نتخطى قوارب الصيد المتناثرة في الأرجاء شمالا وجنوبا، حينها هجسنا نمسك بالفلاح الذي غطى على ورعنا بالأمل، شسعت الفرحة في الوجوه، تحولت المضغة لكيان، لولادة جديدة حين التمسنا دفء الشمس مع وصول قارب خفر السواحل إلينا.

بدأت فكرة الفرج تنمو في الذهن كجنين مر بأطوار الوعي والنضج، حتى أصبحت حقيقة بين ايدينا حين وصلنا الجزيرة. لقد ولد الحلم ولادة قيصرية على يد خفر السواحل.. كنا قد أدركنا الفرج حين أدركنا اليخت ونحن على بعد مسافة ميلين عن الساحل، هجسنا بهمسة سعادة غريبة غمرت قلوبنا، أنتشت البهجة والنشوة في الوجوه، احمرت الوجنات، رفرفت الأحاسيس كعصافير في أجواء الصبح، تهللت البسمة على الشفاه، أنتشى الأريج بين النفوس..

كنا قد التمسنا عتمة الرحلة من لحظة حشرنا كالخراف في جحر باص لا يستوعب نصف عددنا، حينها كدت أجهش بالبكاء لولا كرامتي التي منعتني على الرغم من أني تمرست

علـى صـنوف الشـقاء خـلال مراحـل العمـر، حينهـا كنـت يافعـا، فتيـا، شـابا، قـوي البنيـة، فـيَّ مـن الانـدفاع مـا لا يعتريـه حـاجز. أمـا الآن فقد أختلـف الأمـر تمامـا بعـد أن كتـثُ مصـوغات البـدن، العمـر أمـتص مقومـات الجسـد، فمـا بقـي منـه لا يعـد سـوى أعـواد ذابلة لا تحتمل شقاء الزمن.

فــي تلــك اللحظــة لــم أكــن أفكــر بــذاتي التــي تشــبعت كثيــرا مــن الجَلَـدْ والنكـد؛ أنمـا فـي أبنـي الـذي لازال عـوده طريـا، نـديا، لا يقــوى علـــى مقاومـــة الجَلَـــد، ولا علـــى مقارعـــة مســـوغات الظـرف، كنـت أفكـر بمصـيره وهـو الـذي لـم يفقـه طبيعـة الـدنيا التـــي تمـــزج بـــين الغايـــات ومعاكســـاتها ألا حـــين يخـــوض التجـارب. لـم يكـن يـدرك مـا للرحلـة مـن أبعـاد ونتـائج وعقـد ســتغربل أفكـــاره وعناصـــر حياتـــه ومســـالك مســـتقبله، الحيـــاة بالنسـبة لــه صـندوق مغلـق مفتاحـه بيـدي أنـا، وحـين يـود أن يقترب من تأملاته يتأملني أنا ويأخذ المشورة مني..

لكنـه كبـر كثيـرا خـلال الرحلـة، صـار أكبـر مـن توقعـاتي، أشـجع ممـا تخيلـت، بعـد أن تحمـل عنـاء المشـقة وأعبـاء الرحلـة المعقـدة، تلك التي لها فصل آخر ستمليه علينا الظروف لاحقا.

لقـد جاهـد فـي مسـاعدتي خـلال حقـل الـذرى، كمـا كـان عنـد حســن الظــن خــلال مرحلــة عبــور البحــر، تقمــص الهــدوء والسـكينة، أو الهـدوء تقمـص شخصـه. أهجـس بـالحلم بـات يتـراقص بـين عينيـه الحـائرة، كـان رزينـا، مـدركا لمـا يحـيط بـه مـن عقـد، لـم يشـكي ضـعفه وهوانـه قـط، لـم ينـبس بشـفة خـلال مراحـل الرحلـة الطويلـة أبـدا، لـم يتطـرق لأي سـؤال خـارجي،

كأنــه كــان يهنــدس لمســتقبله، مــدركا لكــل مــا يحــيط بنــا ومــا سيحيط بنا، فكان عونا لي لا عالة على أكتافي.

كـان أشـبه بـالمرآة المصـقولة؛ ينظـر لمحيطـه بعـين ثاقبـة، يفسـر الحالــة فــي ذهنــه، يحلــل الصــور بشــكل يتوافــق مــع المصــاعب التــي واجهتنــا، ويــربط تلــك الوقــائع بخــط المســتقبل الــذي نــود أن نصل له..

بتلــك التصــرفات الهادئــة، كــان يطــوع مراحــل الرحلــة لتــوائم تطلعاتــه النفســية والفكريــة، طالمــا يكمــن فيهــا هــدف يتأملــه، يؤمــل لــه مســتقبلا مشــرقا.. حيــث الأهــداف الجبــارة لا تتحقــق بســهولة، لابــد مــن بــذل قصــاري الجهــد مــن فكــر ثاقــب وطاقــة قصــوى للحــاق بهــا، ولابــد مــن تحمــل الجلــد والمشــاق، لنصــل لسدرة الحلم.

يقول أمير الشعراء أحمد شوقي:

وما نيل المطالب بالتمني

ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

فالمســافة المتبقيــة والتــي كنــا نتوقــع اجتيازهــا بــزمن لا يقــل عــن ســاعة، تخطينهــا بقــارب اليخــت بخمســة دقــائق فقــط، أوصــلنا عنــد المينــاء، جُمعنــا كالأسْــرى علــى الرصــيف، عُــدّ عــددنا وسُــجلت أســماؤنا فــي قــوائم. كانــت الاخبــار الشــائعة تقــول إن العــراقيين ســيُحتجزون، بينمــا يُطلــق ســراح الســوريين. ولأننــي وحســام فقــط

عراقيــان، قررنـــا أن نســجل أســماءنا ضــمن قــوائم الســوريين، حتى نتفادى الوقوع في مهانة الحجز.

بعــدها، حصــلنا علــى ميــاه شــرب وساندويشــات جــبن، وأُرِحنــا نصــف ســاعة مســحنا التعــب عــن وجوهنـــا، كزهــرةٍ فُتِحَــت تويجهـــا مـــع دفء الصـــباح. تفحصــت حـــذائي الـــذي صـــار كالركــام، وجدتــه مشــطور الكعــب، خســر شــكله بفعــل وعــورة الطريق في حقل الذرى.

ابنـــي شـــعر بضـــيق يشـــتد عليـــه، اضـــطر للتبـــول خلـــف حاويـــة نفايـــات، لأن بـــاب المرافـــق الصـــحية أُغلـــق بوجهنـــا. بعـــد أن اســتعاد توازنـــه، نُقلنـــا فـــي حافلـــة إلـــى مخـــيم الهجـــرة فـــي جزيـــرة متيليني.

كانـــت الخيـــام مصـــطفة بطـــول مـــائتي متـــر، مرصـــوفة بدقـــة، تحـــوي كـــل أجنـــاس المهـــاجرين. خفـــت أن يُحبســـونا فـــي هـــذا المخـــيم إلـــى أجـــل غيـــر مســـمى. رأيـــت فـــرق الإغاثـــة تـــوزع الأغطية والماء والأكل، كأننا في معسكرات للجيش.

أخـــذوا بصـــماتنا، منحونـــا ورقـــة تُـــدعى "الخارطيـــة"، تخولنـــا التنقـل داخـل حـدود اليونـان لسـتة أيـام. حينهـا فهمـت لمـاذا قـرر بعضـــهم البقـــاء فـــي هـــذا المخـــيم. ضـــعف القـــدرات الماديـــة، والخـوف مـن المسـتقبل، دفعهـم لتقبّـل الضـيم مقابـل احتمـال أن تشـــملهم رعايـــة منظمـــات الأمـــم المتحـــدة UN وتـــنقلهم لدولـــة جديدة. هكذا، كان الأمل آخر ما تبقى ل

جزيرة متليني

بعـد أن أسـتلمنا الخارطيـة؛ انطلقنـا لمركـز الجزيـرة نبحـث فيهـا عن سكن يأوينا لحين أن نتمكن من مغادرتها للعاصمة أثينا.

تقــول الأســطورة أن مؤســس المدينــة هــو الملــك الميكينــي (ماكـار) الـذي كـان يقطـن فيهـا، أطلـق أسـم إحـدى بناتـه علـى الجزيـرة (ميتيلينــي)، وكـان هـذا الأمـر متزامنـاً مـع الحـروب الطروادية. وكانـت الجزيـرة قـد تعرضـت لغـزوات مـن قبـل العـرب والفـرس لفتـرات طويلـة، ثـم سيطر عليهـا الأتـراك من 1462 لغايـة 1912 م، عـادت واسـتولت عليهـا القـوات اليونانيـة بعد أن ضعفت الدولة العثمانية.

كمــا عــاش فيهــا الفيلســوف المعــروف أرســطو مــع صــديقه ثيوفراسـتوس خـلال الفتـرة الممتـدة مـن عـام 335 - 337 ق.م ، حيــث كانــت جزيــرة ميتيلينــي موطنــاً للعديــد مــن القديســين البيــزنطيين حــين كانــت خاضــعة للحكــم البيزنطــي خــلال العصور الوسطى..

فــي مركــز الجزيــرة المخططــة أبنيتهــا وشــوارعها علــى شــكل مربـع نـاقص ضـلع، هـذا المربـع تمـلأ تجويفـه ميـاه البحـر ليكـون مرســى لقــوارب الصــيد والســياحة، المرســى بعــرض 300 متــر تقريبـا وطـول 300 م، فيمـا يوجـد خلـف الخشـم الأيمـن للمرسـى، مرسى مخصص للبواخر العملاقة.

تجولنا في أرجاء الجزيرة بحرية، وقد انشغل حسام بعائلته، بينما اختفى صادق بين مخيمات المهاجرين. كنا بأمسّ الحاجة إلى وجبة دسمة تعيد إلينا شيئًا من التوازن بعد يوم مضنٍ، وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ظهرًا حين توقفنا أمام مطعم يقع على الخط عرضي لمرسى قوارب الصيد، بالقرب من شريط الفنادق. هناك، أملنا أن نجد ما يؤوينا لبقية اليوم، فملأنا بطوننا بالدجاج المشوي وأصابع الشبس حتى بلغنا حدّ التخمة.

بعد أن نلنا قسطًا من الراحة، عدنا إلى التجوال في قلب الجزيرة بحثًا عن مأوى يأوينا وسط الزحام المتكدّس بالمهاجرين الذين ملؤوا الشوارع. كانت هيئتنا توحي بالبؤس؛ بملابس رثّة ابتلعتها طينة الطريق حتى غدت كأنها جلد موحَل، ونبدو للمارّين كعمّال مناجم خرجوا للتو من باطن الأرض. وجوهنا حملت عناء الرحلة، وأرديتنا تشبّعت بالتعب والنكد، اختلطت فيها رائحة القذارة بأثر المشقة.

كنت أُحسّ بالهموم جاثمة على أجسادنا، كأوراق شجر التصقت بوجوهنا وثيابنا، كأنها سخامٌ يحفر لنفسه علامة على قسماتنا. لم يكن من الصعب على أيّ مراقب أن يلحظ البؤس مرسومًا في ملامحنا، يسترعي انتباه العابرين ويشدّ أنظارهم إلى واقعنا الموجع.

كان المارّون يحدقون بنا بنظرات تتأرجح بين التأفف والبغض، فيما ارتسم الانكسار والعطف في عيون آخرين. كنا نستشعر في أعين كثيرين سخرية من مجازفتنا، تحوم

حولنا صور من الحنق والازدراء، كأنها شبحٌ يتراقص في فضاء نفوسهم. بعضهم مرّ بنا في صمت، لكنه نثر علينا رأفة خفية، نشعر بها كنسمة رقيقة تُلطف جراحنا المتعبة.... كنا بأمسّ الحاجة لابتسامة، ولو عابرة، من أحدٍ يرى فينا إنسانًا لا مجرد مهاجرٍ مرهق. ابتسامة تلتمس مأساتنا، وتشعرنا بأننا ما زلنا مرئيين في هذا العالم.

في تلك اللحظات، كنا نتوسل المأوى، نبحث عن سقف يُلملم شتات أرواحنا ويُجفف تعبًا التصق بأجسادنا حتى صار جزءًا منا. لكن هيئتنا المتهالكة أغلقت أبواب الرأفة في وجوهنا؛ فقد صارت معاناتنا، وملابسنا المهترئة، ووجوهنا المنطفئة العصيّ التي تُهشّ بها القلوب عنّا أينما حللنا، رغم سعينا المُضني خلف الراحة.

أكاد أجزم بأننا طرقنا كل أبواب الفنادق، تسللنا بين أروقة الشقق والبيوت، آملين مأوىً يخفف قليلاً من عبء الألم، من دون جدوى. لم نفلح في كسر جدار التبلّد بحجر الرحمة؛ فقد بدونا للعابرين كمشهدٍ مقرف، كلوحة تعبيرية طُليت بالطين والوجع والملح؛ أجسادنا محاها ملح البحر، وملابسنا تناثرت عليها خرائط الجزر العبثية، وانكمشت أرواحنا حتى ما عادت تجد جدارًا يحتمل قزّزها.

كلما طرقنا باب فندق أو شقة، قوبلنا بنظراتٍ تنبض بالريبة، وبحجج واهية عن "عدم وجود غرف شاغرة". لم يكن الرفض بسبب اكتمال النُزُل، بل بسبب صورتنا التي لم ترُق

لهم. كنا كمن يُحمل ذنبًا لا يعرف كنهه، منبوذين في طرقات مدينة باتت أبوابها مغلقة في وجوهنا.

واصلنا السير وسط دخان الخيبة، نُجرُّ أقدامنا كأنها عزفٌ كئيب على أوتار الإنهاك. كل خطوة كانت تنهش من حناجر أملنا، تُدوِّن خذلانًا جديدًا على لوح التجربة. كان اليأس قد أكمل لوحته عندما انكسر كعب حذائي الأيسر، كما لو أن الطريق نفسه قرر أن يلفظني... أن يقول لي: كفى اصرارا.

كانت الوجوه التي نقصدها على امتداد رحلتنا جلفة، قاسية كصخور الصوان، لا تعرف للابتسامة سبيلًا، ولا تُجيد سوى رسم ملامح الملامة والضجر. نظراتهم كانت كأنها لم تُصافح الفرح يومًا، تزيدنا رهقًا فوق ما بنا من تعبٍ وكدر، حتى صار شعورنا كأننا ارتكبنا خطيئة الهجرة والرحيل عن بلداننا.

سعينا دون توقف، حتى جفّ النبض في عروقنا، وسارت أجسادنا وكأنها تطلب هدنة من هذا العناء المتراكم. وفي لحظة تيهٍ كأنها كانت على حافة الانهيار، صادفنا شابًا عربيًا، تقرأ في عينيه فطنة الرحمة، فاقترب بلطف وقال:....

- لا تتأخروا، هناك شقة على طريق المطار، هذا عنوانها. تركتها قبل نصف ساعة، منزوية بين البيوت لا يعرفها أحد، ولن يلحظها عابر. اذهبوا إليها الآن.
- شكرًا لك...

سجلنا العنوان بسرعة، ثم استأجرنا سيارة أجرة، لا نحمل سوى أمَلٍ هشّ بأن تكون تلك الزاوية الصغيرة رحمةً بعد مشقة.

جاءت المعاناة ثمرةً ازدحام الجزيرة الشديد، والتعب الثقيل الذي حملناه في قلوبنا مع ليلة عبور البحر المضطربة. كانت الجزيرة تستقبل يوميًا مئات المهاجرين عبر قوارب لا تُكلف المهربين شيئًا يُذكر، كأنها بوابة عبور لا تتوقف.

لحسن الحظ، وجدنا شقة تضم أربع غرف، اثنتان منها غير مشغولتين، فسارعنا إلى حجزهما. وأخيرًا، تمكّنّا من أن نركن أجسادنا المرهقة في مكان نكشط فيه عنّا آثار الرحلة، وننفض العناء الجاثم في المخ والبدن. كان البناء أنيقًا، والموقع هادئًا، ومالك الشقة كريمًا ومتفهمًا. تحيط بالمكان أشجار الصنوبر والصفصاف، وتتناثر حوله أشجار الفاكهة من الحمضيات والرمان، في مشهد يخفف من وطأة ما مررنا به. استأجرنا الغرفتين مقابل 60 يورو للغرفة الواحدة، دفعتها عني وعن حسام، الذي لم يكن يحمل في جيبه سوى الدولار الأمريكي، الذي لا يُعتمد في التعامل داخل أوروبا. كما تكفّلت بمصاريف الغذاء والتاكسي عنه، للسبب ذاته.

كانت الخارطية أشبه بهوية إقامة مؤقتة، تسمح لنا بالتعامل بها داخل الاراضي اليونانية والتنقل عبر مواصلاتها الداخلية عدا الطيران.

في البداية، كنا نعتقد أن بإمكاننا السفر جوًا من الجزيرة النائية إلى العاصمة أثينا، لذا توجهنا إلى مكتب السفر في الجزيرة وأبرزنا لهم تلك الورقة. بناءً عليها، حصلنا على تذاكر الطيران، وبُلغنا أن موعد الرحلة سيكون في اليوم التالي عند الساعة العاشرة والنصف صباحًا.

اضطررنا إلى اختيار الطيران بعد أن تبيّن لنا استحالة الحجز على متن الباخرة التي ستغادر مساء الغد، إذ لم تكن هناك أي أماكن شاغرة. ولو كنا قد قررنا انتظار الباخرة، لكان علينا البقاء في الجزيرة خمسة أيام إضافية حتى تعود من رحلتها المكوكية، إذ لا تبحر سوى مرتين أسبوعيًا، يومي السبت والأربعاء.

ولتفادي هذا التأخير وتكاليف الإقامة الباهظة، قررنا اقتناء تذاكر الطيران رغم كلفتها المرتفعة، والتي بلغت 900 يورو. دفعتُ منها 500 يورو عني وعن حسام، على أن يعيد لي المبلغ فور وصولنا إلى أثينا.

على أية حال، قضينا تلك الليلة في الاستحمام وغسل ملابسنا التي التصق بها غراء الطين، ورمينا بعضها في سلة القمامة، بما في ذلك حذائي الذي لم يعد صالحًا للاستخدام. كنت قد اشتريت حذاءً خفيفًا للمشي من أزمير، فكان البديل المناسب.... في تلك الليلة، استرخت عضلاتنا تمامًا، وغطسنا في نوم عميق كالموتى، نتيجة الإرهاق الجسدي الذي نال منا. وكان أكثر من استسلم للنوم هو ابني، الذي رغم صغر سنه، أخذ يشخر بصوت عالٍ كرجل طاعن في السن.

لم نستيقظ إلا في ساعة متأخرة من الصباح، فنهضنا على عجل ثم جهزنا أنفسنا وتوجهنا إلى المطار، الذي لم يكن يبعد عنا سوى ثلاثة كيلومترات. كانت رحلتنا إلى أثينا على وشك الإقلاع، والعاصمة لا تبعد عن الجزيرة سوى ساعة واحدة بالطائرة، مقارنةً باثنتي عشرة ساعة عبر الباخرة.

استأجرنا سيارة أجرة إلى المطار مقابل ثلاثين يورو. وعند وصولنا، اصطففنا في طابور جانبي مخصص للأجانب أمام موظفة الاستقبال. كان مدخل المطار أشبه بصالة انتظار متواضعة، فقيرة في تجهيزاتها، لا تتجاوز مساحتها عشرة أمتار في ستة.... في الداخل، وُضعت طاولة صغيرة عليها حاسوبان مخصصان لإدخال بيانات المسافرين، وإلى جانبها كرسيان فقط. كما احتوت الغرفة على ميزان لوزن الحقائب وشريط ناقل بسيط لنقل الأمتعة. كل شيء بدا بدائيًا، وكأننا في محطة ريفية أكثر من كوننا في مطار دولي.

تحيط بالصالة أسوار شاهقة من الجانبين، بارتفاع مترين، تلتصق بجدران المبنى، وتعلوها شبكة من الأسلاك الشائكة، في محاولة واضحة لتعزيز أمن المطار، وإن بدا المشهد أقرب إلى نقطة حدودية منه إلى بوابة عبور نحو العالم.

حين وصلنا إلى مكتب الموظفة، طلبت منا جوازات السفر. قدمنا لها الورقة الخارطية التي كنا نعتمد عليها، لكنها رفضتها ببرود، وأخبرتنا أن هذا النوع من الوثائق لا يُخوّلنا السفر جوًا، بل يُلزمنا باستخدام الباخرة.

خرجنا من صالة الاستقبال الصغيرة ونحن نحمل حقائبنا بصمت ثقيل، ووقفنا على رصيف الشارع بوجوه متجهمة، وقد عادت الحيرة والشقاء تخيمان علينا من جديد. أسندنا ظهورنا إلى جدار سور المطار، والخيبة مرسومة بوضوح على ملامحنا، نشعر بالتيه يلفّ مصيرنا، خاصة بعد أن تركنا الشقة التي آوتنا ليلة أمس، والتي كافحنا طويلًا حتى وجدناها.

في تلك اللحظة، بدأت زوجة حسام تدردم، تتمتم بكلمات غاضبة، وجهها يقطر غثاثة، تلوم زوجها بصوت خافت على توريطها في هذه المعمعة التي بدا أنها لا تنتهي.

شعرنا بضبابية أقحمت أحلامنا، تجمدت عقولنا بعد أن أضعنا فرصة السفر جوا وبحرا، هذا يعني بأننا سنتأخر لخمسة أيام أخر بالتمام لنتمكن من التحرر من قيود الجزيرة بتلك المتاعب النفسية والبدنية ستتضاعف مصاريفنا إلى جانب متاعبنا، ناهيك عن العسر اللائك بالحالة النفسية من شد وشدة وزنقة وتعب لقلة المطاعم وصعوبة إيجاد سكن والغلاء الفاحش والتأخير المصاحب، والحيرة في التدبير والسلوك.

الشاب سلام

خلال تراصفنا على الرصيف أمام مدخل استقبال المطار المتواضع بعد أن منعنا من السفر، تأزمت حالتنا النفسية، وصلت الحالة بنا لحالة التردي، متأملين أية عجلة أجرة قادمة ترجعنا للشقة التي تركناها قبل قليل خوفا من أن تحجز من

قبل آخرين، لنعود لمكتب السفر عسى أن نقنع إدارته بتبديل تذاكرنا إلى فئة الباخرة أو استرجاع قيمتها..

النقطة التي كنا نقف بها هي نقطة العودة؛ حيث ينتهي شارع المطار بدوار صغير ليعود المسار إلى مركز الجزيرة من أمام بوابة مدخل المطار.

على أية حال تلك المشكلة عادت علينا بالمنفعة بعد أن منعنا من السفر عبر المطار، حيث علمنا من ذوات الخبرة، بأنه إذا ما نزلنا في مطار أثنا فأنهم سينتزعون منا بصمات ايادينا، وبالتالي لن نستطيع دخول أوربا، ستمثل عقدة لنا في البلدان التي نرغب أن نصل إليها حسب اتفاقية دبلن المعمول بها.

خلال وقوفنا أمام مبنى المطار والذي لم يدم سوى دقائق قليلة، توقفت أمامنا عجلة باص صغيرة ذات أثني عشرة راكبا، نزل منها سائقها وكأنه لاحظ علامات بؤس قانطة في وجوهنا فود أن يصلح شأننا، لذا صار يتفحص وجوهنا بنظراته وكأنه يبحث عن رأس العقدة، من تلك اشكالات التي قد تصيب فكر الشخص إذا ما تعرض لازمة أو نصب أو عقدة المت به.. فلم يصبر طويلا حتى تقدم منا سائلا بلكنة عراقية ضعيفة....

- هل أنتم مهاجرون؟
- نعم.
- هل من خدمة تحتاجونها؟

فاجأنا بسؤاله، فقال له حسام:.....

- كانـت لنـا نيـة السـفر بالطـائرة، لكـنهم لـم يسـمحوا لنـا بالســفر عبــر الورقـــة الخارطيـــة، طالبونـــا بعـــرض الجوازات، غير اننا افتقدناها.

عقبت بعده...

- كنـــا نتوقـــع الأمـــور ســـتكون ميســـرة لنـــا فـــي المطـــار باســـتخدام الورقـــة الخارطيـــة، هكـــذا افهمتنـــا موظفـــة مكتـــب الســـفر، لقـــد تورطنـــا، كمـــا اننـــا ســـجلنا اســـمائنا ضـمن القـوائم السـورية، حيـث أدعـى حسـام بـأن العراقـي يحتجز في الميناء بينما السوري يطلق سراحه.
- والله يـا أخـي صـديقي محمد هـو الـذي وجهنـي، هـو الـذي أدخـــل الفكـــرة العراقـــي والســـوري فـــي رأســـي، كونـــه صاحب تجربة سابقة، ربما تغيرت الظروف.

حينها رد سلام علينا بعد أن عرفنا باسمه قائلا.

- لا لا.. لا داعـــي أن تغيـــروا انتمـــاءاتكم فالتعامـــل مـــع الجنســـيات الأخـــرى لا تختلـــف عـــن تعـــاملاتهم مـــع الســـورين، ومســـألة تغييـــر الخارطيـــة ســـنحلها لكـــم، إذا كنـتم ترغبـون بـالعودة لمركـز الجزيـرة، ممكـن أنقلكـم لهنـاك، لكنـي أنتظـر زمـلاء لـي سيصـلون مـن الـدنمارك خلال عشرة دقائق.

- شكرا لك أخي، الظاهر أنك أنسان طيب وكريم وشهم، لابأس؛ ننتظرك نحن بحاجة لرشدك.. هكذا أجبته.

أجبته بعد أن وجدت في يده فرصة انقاذنا من التيه، نحن بحاجة لشخص ذا خبرة في الجزيرة، يرشدنا، يحل إشكالات الخارطية. نعم انه لم يكن ذربا في لسانه ولكنه كان يجيد العربية بشكل جيد، كما أن ملامحه تدل على أنه إنسانا خدوما، لذا فضلنا انتظاره وخاصة في الجزيرة تندر حركة سيارات الأجرة لقلتها. وحين عاد بصحبة زملائه سألته:....

- يا أخي ملامحك لا تدل على أنك عراقي الجنسية، ولكن لهجتك تبصم بعراقة عراقيتك، هل أنت عراقي؟
- أنا مهجن من أب عراقي وأم روسية، مقيم في الدنمارك.

رحبنا به للطافته وبشاشته، سررنا في دواخلنا لبساطته وإنسانيته، شاكرين رغبته ومسعاه في أبداء مساعدته لنا...

- لا داعي للشكر، نحن في الأصل جئنا من الدنمارك كمجموعة من الشباب متطوعين في خدمة المهاجرين...
- بارك الله فيكم، حيث الغيرة تنبع من أصلها.

سلام شاب عشريني، أنيق، وسيم، طوله بحدود 185 سم تقريبا، قوي البنية حيث بنيته تدل على انه من هواة الرياضة،

ذات ملامح جذابة مطعمة بحمرة الروس وملح الفتنة العراقية الجنوبية.

للطافته، وبداهته، ولباقته، كان مؤثرا في مجموعته بشكل كبير، بل شعرت به بمثابة المحور الذي تدور عليه المجموعة، فعلا كان قائدا ناجحا للمجموعة. أشعرنا بفرط طيبته وخفة دمه ودماثة روحه، ذات جسد مفتن بالعضلات، تحيط ذقنه لحية خفيفة، تهجس بابتسامته فيها لين كـ ندى الصبح حين تغسل ورق الشجر الأخضر، هكذا تغسل وجهه ببشاشة رقيقة.. مثلما تصرف معنا بمسؤولية؛ تصرف بذات المسؤولية مع كل مهاجر يصادفه، كان جادا في مساعدتهم، محاولا تقديم ما يمكن تقديمه لهم وإرشادهم وتوجيههم..

كان لا يتجاوز الخامسة والعشرين ربيعا، حيويته أجازته ليكون قائدا لزملائه الذين يزيد عددهم عن خمسة عشرة شخص، لفرط نشاطه وقوة بدنه وحلمه وصفاته وقدراته اللغوية، حيث كان يجيد الألمانية والدنماركية والروسية واليونانية والإنجليزية إضافة إلى اللغة العربية التي أعطته صفة القيادة المطلقة، كون معظم المهاجرين هم من أصل عربي، لكل ذلك كان يستحق أن يكون في مقدمة مجموعته المكونة من فريق من الفتيان والفتيات.

بصراحة حين دخل في وسطنا دخل ببساطة وسلاسة كدخول الضوء لكوة معتمة، كأنه يحمل في يديه مفاتيح خديعة سحرية لحل المعضلات والعقد التي تواجه المهاجرين في تلك الجزيرة، كالذي يحمل في جيبه خرزة سحرية لحل المشكلات

حسب المعتقد البائد والذي يمارسه المشعوذين والدجالين حين تضيق الحلول.

في البداية لم نكن نفهم سر تواجده في هذه الجزيرة وإصراره على مساعدتنا، لم ندرك سرّ وجوده بيننا بدايةً، ولا إصراره العجيب على مد يد العون لنا، خاصة حين أبصر بيننا نساءً وأطفالاً مرهقين. ظننا أن ما دفعه هو الحمية العراقية، حين تتقد فتيلتها في النفس الأبيّة، فتتسارع الانفعالات كخيوط مجنونة تُنسي المرء ذاته، وتدفعه، باندفاع غريب، نحو التضحية والمساعدة.وهكذا، مدّ يده نحونا، يدًا كنّا نحتاجها بشدّة، يدًا جاءت في الوقت الذي كادت فيه الأرواح أن تنكسر..

لكن حيرتنا لم تطول بعد وصول أصحابه، كانوا ثلاثة أشخاص، فتاتين ورجل. الفتاتان يغلب على بشرتهن سمرة شفيفة، بسماتٍ مشبعة بملامح عربية، فيما الشاب كان أشقرا، ذات وجه مغشي بلحية حمراء وعينين زرقاوين غائرين في محجريه، يحمل السمة الأوربية.

بعد أن عرفنا بزملائه دفعني الفضول إلى التعرف على الفتاتين للسمرة الرائبة في بشرتهن وحلاوة ملامحهن، وقد بينت لي أحداهن وكانت تدعى سميرة بأن أصولها من أمازيغ المغرب

دلفنا جميعا في باصه، وكان قد وزع على الأطفال الشبس والعصير، حيث كان يحمل في صندوق عجلته كرتونا كبيرا من الساندويشات وآخر من العصائر..

خلال الطريق عرجنا إلى الشقة التي آوتنا ليلة أمس، لكننا وجدناها قد حجزت من قبل آخرين بعد أن تركناها مباشرة، لذا عكف على توصيلنا لمركز الجزيرة عسى أن نجد فيها فندقا يأوينا.

خلال الطريق كشف لنا عن هويته ومهمته النبيلة قائلاً:

- أنا اسمي سلام محمد، أعمل ضمن منظمة خيرية إنسانية. تطوّعنا للمجيء إلى هذه الجزيرة لمساعدة اللاجئين والمهاجرين في تأمين الطعام واللباس، وتوفير الخدمة، وتذليل الصعوبات... كل ذلك على نفقتنا الخاصة، دون دعم من الجهات الرسمية.

كنا في حيرة مما قاله؛ فالمنظمات الإنسانية كانت مجهولة لنا. لكن فضولي دفعني لسؤاله بابتسامة مترددة:...

- يا سلام، من أين أنت من العراق؟

أجاب ببساطة تحمل شيئًا من الغرابة:..

- لم أرَ العراق يومًا... وُلدت في الدنمارك، لكن أبي من مدينة الحلة.

ضحكت ممازحًا:......

- إذًا جدك الملك حمورابي أو نبوخذ نصر؟ هههه... هؤلاء ملوك بابل، ومدينة الحلة قلب بابل النابض. عليك بزيارة آثار أجدادك البابليين؛ فهم من شيّدوا حضارة تشهد عليها الدنيا، في العلم والبناء والقوة. وما الجنائن المعلّقة إلا شاهد على عبقريتهم... إنها من عجائب الدنيا القديمة!

ثم أردفت بنبرة أكثر جدية:...

- يا سلام، أنت إنسان مختلف... من نظرتك نستشعر طيبة غائرة في أعماقك، وسلوكك الصادق يعكس أخلاقًا أصيلة.... لا تظن أنك تتصرف بشكل عفوي، فهي ليست صفات مكتسبة، بل موروثة، جيناتٌ تطبّعت بالذات العراقية، ورثتها من والدك ومن إرث بابل العريق.

ابتسم وقال:

- والله كلامك منطقي، وأعدك، سأزور العراق يومًا ما... إذا تحسنت الأحوال.

ثم سألته عن لغته العربية التي يتحدث بها بطلاقة:...

- لغتك العربية جيدة، هل تجيد قراءتها وكتابتها؟

هز رأسه قائلاً:....

- لا، لا أقرأ الحروف العربية... لكنني أجيد الروسية والإنجليزية والدنماركية والألمانية، وأفهم اليونانية وأتحدث العربية بطلاقة.

كنا قد حمّلنا صندوق الباص بحقائبنا، إلى جانب كراتين السندويشات والعصائر وأكياس الشيبس. لمّا وصلنا إلى تلك الشقة التي عوّلنا عليها، وجدناها قد حُجزت مسبقًا من قبل نزلاء آخرين. فرافَقنا إلى مركز استقبال المهاجرين، حيث سعينا لتغيير الخارطية من الحالة السورية إلى الحالة العراقية.

توجّهنا إلى نقطة التسجيل، تلك التي ابتدأنا منها مشوارنا الأول. ولم نلبث فيها طويلًا؛ خلال عشر دقائق فقط، أتممنا إجراء التغيير. تحدّث سلام بلغة لم نفقهها- ربما كانت اليونانية أو الألمانية، بعد ذلك، أعادنا إلى المركز القريب من مكتب السفريات، والذي يجاور كافتيريا الميناء في قلب مركز الجزيرة.

كانت الكافتيريا في قلب الميناء تُدار من قِبل فتاتين تنبعث منهما أنوثة ساحرة وفتنة أخّاذة. وهناك، شغفتُ بتلك الهيفاء اللدِنة، العفراء الرشيقة، النُداحة، المذهلة. كانت ملامحها تفيض بالبهاء، ووجهها الرائق المضاء يسطع ببشرة سمراء دافئة، أشبه برمل البحر حين يغمره الغروب.

بشرتها المغنجة، الملساء، تشعّ وكأنها مرآة تعكس أنوارًا خفية، فتخطف الأبصار قبل القلوب، وتترك في النفس أثرًا لا

يُمحى. في مرورها، كانت تصيب عيون المارة بإشعاع لا يُقاوَم، وكأنها لحظة من حلمٍ عابر سكنت واقعنا.

كنت أتمعّن في سرٍّ دفينٍ يسكن تلك البشرة الخمرية، التي تغوي بجاذبية لا تُفسَّر، وتزيّن ملامح وجهٍ ناهدٍ يفيض بنغمةٍ تريح النظر وتستدعي الفكر. فيها لغزٌ يرهق القلب ويشغل البال، لا سيما تلك السمراء التي استوطنت خاطري دون استئذان.

صرت أتمعن بالعقدة المدفون في سر تلك البشرة الخمرية والمغنجة بالجاذبية، الموشح بها ملامح وجهها الناهدة بإمعان. بحيث تريح الذهن والنظر للذي يتمعن بملامحها، لما فيها من لغز يثير الفكر ويرهق القلب، أهجس في وجهها خلطةٍ مذهلة بين عيونٍ ساحرة وشفاهٍ كرزية قرمزية، وبشرة لاذعة، كانت تخطف الأفئدة المرهفة دون جهدٍ أو تكلّف. طلّتها تستحوذ على الأنظار والقلوب، وقوامها الميّاس يخطف الاتزان، كأن في مشيتها سحرًا يجرّد المرء من ملامحه وهويّته.

بين طاولات الكافتيريا، كانت تتحرّك كالنحلة، تنثر عبقًا وسحرًا على الزبائن، بجسدٍ نشطٍ، وحضورٍ مثيرٍ يأسر الجو. بعطرها الفوّاح، تكتسب اهتمام الجميع، وكأنها قطعة حلوى سكريّة ملونة، تدور حولها الحشرات، لا لتأكل، بل لتنبهر. وكأن في قوام قدها المياس يكمن لغز يجرد الشخص من قيافته وشخصيته.

ببشـــرتها المملوحـــة يكمـــن ســـيف ســـلطانها وقـــوة جاذبيتهـــا، مدعومـة بشـفةٍ غـرةٍ رقيقـة، محمـرة، كأنهـا شـظيت مـن كبـدٍ حـيّ، بمـا يغشـاها مـن دكنـة آسـرة. أنفهـا المبـروم يتقـدّم بشـموخ كأنّـه تمـرة ناضـجة، وعيناهـا عينـا ظبيـةٍ عربيّـةٍ حـرّة، فـي خـدودها صيفٌ يلتهب وإشراقةٌ صحراويّةٌ تنضح بالجاذبية.

كانـت فتنتهـا تثيـر شـغف المـارقين بهـا، أولئـك الـذين جفّـت عـروقهم فـي أبـدانهم وهـم يمطرونـها بوابـلٍ مـن سـهام الإعجـاب، نظـراتهم تشـوبها الريبـة وتضـمر نيـةً دفينـة، تسـكن جـوارحهم وأعيـنهم اللحوحـة الجارحـة، لمـا لهـا مـن جاذبيـةٍ صـرفة. يركنـون ذواتهـم علـى قلـوبٍ دكّهـا الهـوان، وقـد اصـطدموا بهـا كما تصطدم الصحراء بواحة خضراء.

مـا إن يغـوص المـرء فـي صـفاء وجههـا، حتـى تتسـاقط شـواظ حـدقات عينيـه الملتهبـة علـى جليـدٍ أسـيلٍ مـن خـديها ووجناتهـا، فتغشـيها بالخجـل، فتزيـدها لوعـةً وألقًـا واحمـرارًا وتأففًـا سـاحرًا. فتبدو الخدود كجلنارٍ يتقد في صحن وجهها.

بـل، بنظـرةٍ واحـدةٍ إلـى ملامحهـا المشـظّاة، يتيـه المـرء فـي أعمـاق ظنـه وتأملاتـه المنغرسـة فـي جـذور الفتنـة المحـرّزة، فتأخـذه بعيـدًا، إلـى دثـار فراشـه وسـهده وتسـمره مـع تلـك الفاتنـة الملذة التي تستوطن الخيال ولا تنطفئ شمعتها.

كانـــت الشـــفاه مطليـــة بحمـــرةٍ عنّابيـــة، مســـتوحاة مـــن دفء اللافنـدر، فتبـدو كجـذوةٍ مشـظة، ملتهبـة، تسـتقرُّ فـي بسـاط الوجـه. أمـا أنفهـا، برشـاقته السـامقة وانحناءتـه الحثيثـة، يزيـدها بهـاءً

وسحرًا، كشراعٍ يلقي بظلاله على محاسن وجهٍ يطفو في بحر الجمال. وعندما تنسدل ظلال حدقتها الغسقيّة كإطلالة مساءٍ هادئ، يشعر الناظر بغموض الخيال المطبوع فيها، فتغدو عيناها كواحةٍ مطرّزةٍ بسحر الغروب والبيد ورمالٍ ما عرفت لها نهاية..... كأنها وُضعت في الكافتيريا بعناية، كقطعةٍ من مشهدٍ مدروس، لتجذب الزبائن وتغمرهم بإغواء حسنها الفتّان، وجسدها الملس المّلدن، وعبقها الفائحِ الذي يُحاكي عطر الغواية. فكانت لهم جلدًا بصريًّا وسُكرًا حسّيًّا لا يُقاوم.

بعد أن أوصلنا لهذه النقطة ودعنا سلام وأصحابه لكثرة أشغاله المتعلقة بالمهاجرين المتدفقين إلى الجزيرة كسيل جارف، ولكنه حين غادرنا لم يتركنا: حيث ترك لنا رقم تلفونه وقال لنا بطيب خاطر:.....

- إذا ما احتجتم لأية مساعدة أتصلوا بي فلن أقصر في خدمتكم. وهذا رقم هاتفي...0000000000.

أملى علينا رقم هاتفه ثم تركنا بروح مفعمة بالرضا عنه وعن زملائه، لقد ترك فينا جمرة تستعر في الذاكرة لما له من تأثير نفسي لمسناه بقلوبنا قبل أعيننا وأيادينا. كان شفافا، واضحا في عمقه وظاهره، وصل بنا إلى حد كسر الحواجز وملامسة المشاعر، رغم قصر المدة التي تعارفنا بها..

صرنا نستقرأ شخصيته الإيجابية في المطعم والمقهى ونحن نتجول في شوارع الجزيرة القليلة، حقا هناك أناس لا يتثمنون قط، ومن الخطأ الحكم على البشر من نظرة خارجية..

وبعد راحة أنعمنا بها أجسادنا وغداء ملئنا به بطوننا الخاوية، توجهت وحسام إلى مكتب السفر القريب من الكافتيريا لتغيير تذاكرنا من فئة الطيران إلى فئة الباخرة، والتي ستتحرك لأثنا مساء اليوم التالي في تمام السابعة مساءً. فيما صادق اختفى بين زحمة المهاجرين.

اتجهت لمكتب السفر برفقة حسام الذي لا يفقه شيئا من اللغة الإنجليزية.. بعد أن استمعت الموظفة لطلبنا قالت لنا:....

- عودوا لنا بعد ساعتين؛ حتى يباشر المدير عمله لنأخذ رأيه في الأمر.

عندها استلف حسام مني مبلغًا بسيطًا لشراء حاجيات لأطفاله، وتركنا في ركن الكافتيريا، أنا وابني، نراقب حركة الحياة من حولنا. هناك، وسط ضجيج المكان، كانت هي... كأنها نسمة بحرٍ في ظهيرة قائظة، تمضي بخفة بين الطاولات، تحمل في عينيها زرقة المدى، وفي خطواتها هدوء الموج.

كنت أراها ككائن من عالم آخر، لا تنتمي إلى صخب هذا الواقع، بل كأنها تجلٍّ من الأسطورة، خرجت من أعماق البحر تحمل في ملامحها سحره، وفي بشرتها دفء شمسه. كانت تحاول أن تتوارى عن نظرات الفضول، أن تنكمش في زوايا المكان، لكن عملها كان يفرض عليها أن تظل في الواجهة، أن تبتسم، أن تخدم، أن تمضي. كلما مرت، شعرت

أن شـيئًا مـن الضـوء ينسـاب فـي المكـان، يبـدد شـيئًا مـن الكآبـة، ويترك خلفه أثرًا لا يُنسى.

كنـت أهجـس بأنهـا هـي مـن تبـدي حرشـتها بالزبـائن دون قصـد منهـا، للفتنـة المشـعة التـي تركبهـا والغـائرة فـي بشـرتها، ولحـلاوة معانيهـا والنعومـة الغـائرة فـي قـوام الجسـد الباسـق، أشـعر بهـا تلسعني بفتنتهـا كلمـا مرت مـن أمـامي وهـي تتحـرك جيئـة وذهابـا فــي تقــديم طلبيــات الزبــائن، أصــفها بالشــمس وهــي تلاطــف الوجـوه المارقـة بهـا بـدفء حـرارة ووهـج فتنتهـا فـي يـوم تسـوده جمـود وعنـاء. فـي الوقـت الـذي بـه تحـاول أن تزيـغ عـن سـهام العيـون الجارحـة الموجهـة إليهـا، تحـاول الـتملص مـن مشـاغبة الجاحـدة منهـا، أن تنــزوي فــي جحــر الكافتيريــا لأطــول فتــرة ممكنة. لكن عملها يملي عليها واجبها في خدمة الزبائن.

كنـت أنظـر لهـا وكأنهـا ليسـت مـن صـنف البشـر، اهجـس بهـا حوريـة تجلـت بروحهـا الشـفافة مـن عمـق البحـر، اكتسـبت مـن لونــه لــون عينيهــا، ومــن ملحــه وشمســه ســمُرت بشــرتها، مثلمــا القى عليها وشاح هدوء ساحله..

كانــت تتبختــر فــي مشــييها. لنحافتهــا تشــعر بضــمور الخصــر، فيمـــا كانـــت أزرار قميصـــها الزهـــري المطـــرز بالـــدانتيل والمصـنوع مـن أقمشـة شـفيفة شـيفونية مفلجـة. مـع ارتخـاء وهـدل ياقـة القمـيص تكشـف عـن جـزء مثيـر مـن ثـدي الصـدر وهـي تــرق تحــت لدانــة القمــيص، بحيــث خــلال دورانهــا وانحناءتهــا تفلـج عـن عـالم خفـي يرتـع خلـف فـج القمـيص روح نـاهد كعجـرة رمــان ناضــج... مــا أن تميــل فــي عملهــا أو تنحنــي فــي تقــديمها

متطلبات الزبائن؛ تترقرق تلك العجرة بلطافة تكورها، فيطل جزء منها من خلف غمام القميص الزهري الشفيف، كقمر يتهادى بين الغيوم يلفت الأنظار أليه، لسحر ذلك التكور والأنوار المشعة من حوله؛ كانت تعكس سهام المارقين بها إلى أفئدتهم المرهقة، المراهقة، فتأسر هواجسهم. كانت ترتدي حمالة صدر بيضاء من النوع الرف الساند الذي يرفع الثدي ويكوره من تحت. حينها كنت أميد ببصري إلى تلك النجوم الغافية، محاولا تتبع مسار القمر الموارب الذي يطل علينا بين فترة وأخرى دون قصد..

فيما أضحت الروح تتلوى وهيَّ تتبع ظلها، تحاول أن تنط من قبضة يدي لمرسى المركب الدائر في بحر فتنتها. تلك الأفعى التي تلبست ذاتي؛ سعت لإثارة الفتنة ما بيني وبينها، جعلت الروح تلهث خلف تلك الحمامة الجاثمة في أيكها الضامر.

كنت أهجس بذاتي طفلة تود اللعب، لا تأبى مفارقة المقعد، أشعر بذاتي الداخلية تعاتب ذاتي الخارجية على سكونها وتقوقعها خارج أسوار تأملات النفس ونية المواجهة. تلومها على انزوائها في جحورها بعيدا عن قدرية الحالة، غارقة في تأملات عقيمة، غير مجزية، غير مجدية، خذلة في ومواجهة السحر الرابض في مفاتن وأعماق تلك الساحرة.

لم تسعفني طاقتي لمواجهة حقيقية تطفلي، لأطفأ شرر النار المستعرة في فؤادي، بين لحظة وأخرى أهجس بالروح تشذ عن طبعها، تود بشكل ما أن تصطدم ككرة بجدار تلك الساحرة، لتهز أشجانها، لتسقط ثمارها، لتدخل أسيرة نجوى

في جوف العقد الدائرة حولي، تود أن تقتحم الحواجز المنيعة لتجردها من سمة الجبروت الملتصق بها، لتميل إلى ضعف إرادتي هنيهة، عسى أن تعيد إليَّ كياستي.

في الحقيقة وجدتها تعتدي على سكينة الزبائن بالفتنة المشعة من ثنايا قميصها المقور من الظهر وتنورتها المقورة من جانب ساقها الأيسر، بحيث تُظهر ما خفي من سحر الباطن للزبائن، فتزيدهم جدلا وعبثا وتطفلا.

وهي تمور بيننا أهجس بها كموجة زرقاء تعبث بإرادتي كيفما تشاء، تبعتها فتبعت تأوهاتي، وددتُ أن أتنفس من خلالها الصعداء. بإطلالتها كتمت على أنفاسي؛ بعد أن رقصت الذات على نشيد عزفها، ارتقت الرغبة درجات الود فوددتْ أن تكلمها، أن تحتك بها بأي ثمن، حتى ولو على هامش الطلبية التي سندفع ثمن المغامرة بقيمة الأشياء التي نشتريها مقدما..

وأنا أتبع هدير موجها كنت أهجس بقسوة ذاتي الخارجية على روحي الترفة وهي تحد من عزمي، تقيدني، تذكرني بالقيم والأخلاق التي تربيت عليها، متمسكة بمبدأ الخُلق والثبات. كانت تحسب حسابا لقيمة الغربة بدقة متناهية، كي لا أنحرف أو أشذ قيد أنملة عن خط مسارها لوهدة الشواذ، والظلال. دائما ما تطرق رأسي بمطارقها الرنانة، تذكرني بقيمي وعاداتي ومكانتي... لكن سرعان ما تقف ذاتي الخارجية كجدار صلد، تطرق رأسي بمطارق الأخلاق، تهمس لي بعبارة ترددها منذ نعومة أناملي: "يا غريب كن أديب". وكأن

الغربة لم تعد محض مكان، بل حالة من الانفصال بين الحلم والواقع، بين ما أريده وما أعرف أنه لا يجوز

فيما لا تفارق ذهني أغنية المطربة عفيفة أسكندر "ديار غربة".

ديار غربة وتهت بيها .. ديار مالي بخت بيها.

صحت وين أهلي وين... جاوبني الصدى وين...

يا غريب أذكر هلك......

كل تلك الثورة العاطفية تفجّرت داخلي من أثر تلك الفتاة وهي على مشارف الثلاثين أو تزيد قليلاً. فكيف ستكون لو كانت صبيةً أبنة العشرين ربيعا وهي تتأتأ بعذوبة البدايات؟ ما مقدار ذلك الإشعاع الذي كان ليصدر عنها، حينما كانت في أوج الحيوية، في لحظة المراهقة المتقدة؟

لو كنت في سنها آنذاك، لخلعت ذاتي عني ورمتها طُعماً لوحوش اليم الكامنة في أعماقها. لربما جعلتني خاتماً يزين بنصر كفها، تتباهى باستبدادها أو أتباهى بالهلاك الذي اختارني تحت جبروت فتنتها.

الزمن، مهما علا سوطه، لم ينل من بهائها قطرة. لا بل بدا وكأنه تحابى معها، زادها وقاراً وكياسةً، وتلك البصيرة التي لا تتأتّى إلا لمن خبرته الحياة. الزمن لم يغيّر من إشراقها

شـيء يُـذكر، بـل صـقل الجمـال فيهـا كمـا تصـقل النـار الفضـة، لتبرق أبهى وأنقى.

خـلال مكـوثي فـي الكافتيريـا كـان قـد فـض شـحن هـاتفي الكلكسـي 3S تمامـا، مثلمـا رقـد فـي سبات دائـم هـاتفي الآخـر نـوع الآيفـون 5، بعـد أن قضـينا نهـارا كـاملا مـن الصـراع مـع الـزمن والبحـث عـن مـأوى. حينهـا وجـدت شـابا يجلـس قبـالتي يحمـل بيديـه شـاحنا يخـص هـاتف الكلكسـي، فطلبـت الشـاحن منـه لغـرض أن أتصـل بحسـام الـذي غـاب فـي دهـاليز الجزيـرة كـي يحضـر بـالوقـت المحـدد لتبـديل تـذاكر سفرنا قبـل أن ينتهـي الـدوام الرسـمي، ومـن ثـم تضـيع علينـا فرصـة السـفر... لـم يمـانع ذلـك الشـاب مشـكورا أن يسـلفني الشـاحن علـى الـرغم مـن أنـه كـان فـي عجالـة مـن أمره ليعود لمأواه.

تركـت الكافتيريـا وذهبـت لمكتـب السـفر لأشـحن الهـاتف حيـث المسـافة لا تتجـاوز خمسـين متـر بـين المـوقعين، كمـا توجـد فـي مكتـب السـفر مقـابس عديـدة مغروسـة فـي جدرانـه الداخليـة، لغرض تسهيل أمر الزبائن في شحن هواتفهم.

بقيـت جالسـا مـدة تقـل عـن نصـف سـاعة حتـى شـحن الهـاتف شـحنا جزئيـا، يكفـي لإتمـام بعـض المكالمـات الآنيـة.. حينهـا اتصـلت بحسـام كـي يعـود سـريعا إلـى المكتـب لتغييـر التـذاكر، ثـم ذهبـت أبحـث عـن ذلـك الشـاب لأشـكره وأعيـد لـه شـاحنه.. بحثـت عليـه فـي الكافتيريـا فلـم أجـده، سـألت عنـه المجموعـة التـي كـان يجلـس بجوارهـا والتـي كنـت أتوقـع حسـب رأيـي بـأنهم رفقـة،

لكنهم لم يرفدوني بخبر عنه، فيما قال لي أحدهم وكان بدينا يرتدي دشداشة بيضاء ويعتبر أكبرهم سنا:......

- أخي أنا أعرفه الشخص الذي تبحث عنه، هم في المخيم معنا، هات الشاحن، اطمأن، سأوصله له بنفسي.

اعطيته الشاحن وذهبت لمكتب السفريات.

ذهبتُ إلى مكتب السفريات، وكان حسام قد سبقني إليه، فدخلنا معًا طلبت من الموظفة تبديل تذاكر الطيران إلى تذاكر سفر بالباخرة. لكن ردّها جاء حادًا ويفتقر إلى أي نوع من المرونة. لم يكن هناك مجال للنقاش أو محاولة تجاوز العقد، بل قالت بصرامة:

- لا يمكن تغيير التذاكر. تذكرة الطيران أصبحت محروقة. ومع ذلك، يمكننا إعادة ضريبة المطار فقط، وهي بقيمة 100 يورو، لأنكم لم تسافروا.

اعترضتُ قائلة:...

- لكننا دفعنا 900 يورو، وهذا ليس عدلًا!

فأجابت دون تردد: ....

- آسفة، لا أستطيع مساعدتكم. أنا ملتزمة بالتعليمات.

فاستفسرت عن تكلفة السفر بالباخرة، لترد بأن:.....

- تكلفة الطائرة 120 يورو للشخص الواحد، أما الباخرة فتكلفتها 70 يورو.

كنّا خمسة بالغين يحملون تذاكر كاملة، من بينهم أنا وابني الذي تجاوز عمره الحدّ المسموح به لتذكرة الطفل. أما حسام، فكان برفقة زوجته، ووالدة زوجته، وطفلين يحملان تذاكر بنصف السعر. وبناءً على الأسعار الجديدة، أصبح علينا دفع مبلغ إضافي قدره 420 يورو لإتمام رحلتنا بالباخرة.

حينها اتصلت بسلام وشرحت له الموقف. طلب مني أثناء المكالمة، أن يهاتف الموظفة مباشرة ليحاول فهم اللغط الحاصل، والتفاهم معها لإنصافنا. لكن الحوار بينهما انقلب إلى جدال صاخب، بعد جدال واضح لم أفهم من المحاورة شيء زعقت الموظفة في وجه سلام ثم أعادت الهاتف إليَّ، حينها قال لي سلام:...

- قال سلام حينها بلهجة حازمة: لا تخرجوا من المكتب، نحن في الطريق إليكم.

بقينا في المكتب قرابة عشر دقائق بصحبة المدير، الذي حاولت مرارًا أن أستميله، دون جدوى. كان جامدًا، متجاهلًا تمامًا لوجودنا. ثم... انفجرت اللحظة.

دخل سلام ومعه فريق يتجاوز العشرة أشخاص، يحملون كاميرا تلفزيونية، أضواء كاشفة، ميكروفونات، أجهزة تسجيل، وأدوات إرسال. مجموعة تشبه فريق تحقيق صحفي

متنقل. بعضهم يرتدي قمصان الأمم المتحدة، وآخرون بشعار الصليب الأحمر. دخلوا فجأة، بفوضى وحركة خاطفة، فأحدثوا زلزالًا في أركان المكتب.

توقفت الأعمال، تجمّد الجميع؛ الموظفات، الزبائن، حتى المدير. كل شيء شُلّ بفعل المفاجأة. كأنهم اقتحموا المكتب بحثًا عن سبق صحفي، كأنهم أمسكوا بصيد ثمين بين جدرانه. راحت الكاميرات تدور حول الوجوه، تلتقط صورهم واحدًا تلو الآخر، بينما الفوضى تتصاعد.

لم يكن مجرد اقتحام... كانت هجمة إعلامية على فسادٍ مستتر. محاولة لفضح الأساليب الملتوية بابتزاز المهاجرين والتلاعب بمصائرهم. المشهد كان كصفعة أيقظت الجميع. أصوات الأجهزة وهالة الفريق الصحفي ألهبت العقول، شلّت الألسنة، وأثارت ارتيابًا عميقًا في نفوس عناصر المكتب. ارتعش الموظفون، بدا كأن العاصفة قد حطّت علينا.

الصورة التي دخلوا بها للمكتب، أصابت المكتب وموظفاته بالشلل تماما، بحيث الكل توقف عن عمله وبقيَّ مشدوه الفكر والنظر، صعقتهم الحيرة، كبلت أياديهم وألسنتهم بغرابة السلوك والاستفسار... ترى ماذا هناك؟ صغروا في دهشة وهم يصغون إلى الوجوه التي عبثت بأفكارهم وزلزلت كياناتهم، صاعقة تفرقعت فوق رؤوسهم على حين غفلة، شتت أذهانهم أصابتهم بارتعاد وارتعاب وخوف من ما سيحدث. مثلما أصابتنا المفاجأة، صرعت الجميع، وبالذات موظفات المكتب، الكل تجمد في مكانه حين شاهدوا الكامرة

التلفزيونيـة تـدور حـول وجـوههم وتلـتقط لهـم صـورا شخصـية واحـدا تلـو الآخـر، أنهـا هجمـة صـحفية لحـدث جلـل قـد وقـع فـي المكتب.

بـدخول سـلام إلـى المكتـب، كـان قـد أشـار إلـيّ لأدلّـه علـى الموظفـة التـي هاتفتـه. أشـرت إليهـا بأصـبعي، ومـا إن التفتـت نحونـا حتـى توجهـت الكـاميرا نحوهـا، فبـدأ سـلام يـزأر بكلمـات إنجليزيـة حـادة، تنضـح باللباقـة والمسـؤولية، وكـأن كـل حـرف منها نُحت بدقة ليكون طعنة في كبريائها.

كانـت لحظـات مسـمّرة، وكـأن الـزمن توقـف. الكلمـات التـي أطلقهـا كأنهـا صـفعات متتاليـة، أطفـأت بريقهـا، كمـا تُطفـأ سـيجارة داسـتها قـدم غاضـبة. شـحب وجههـا، وخفتـت صـوتها إلـى حـد الصـمت التـام. لـم تنـبس بشـفة، تجمـدت ملامحهـا، وصـارت تنظـر إليـه بعينـين واجفتـين مـرتجفتين، تطلـب الصـفح بعينيها قبل لسانها.

اعتــذرت علنًــا، بتلعــثم وانكســار، كــاد الــدمع أن ينطــق عــن خوفهـا. كانـت تعلـم أن هـذا الموقـف قـد يرسـم نهايـة مسـيرتها الوظيفيــة، خاصــة إن عُــدّ إســاءتها تجــاوزًا بحــق مهــاجرين منهكين، هاربين من أتون الحرب إلى صقيع البيروقراطية.

وخاطبها "سلام" بنبرة ملؤها السخط والحق:

- من أجلسك خلف هذا المكتب لتعاملي الزبائن بعنجهية وقلة ذوق؟ كيف تجرؤين على الزعيق في وجهي وأنت تدركين تمامًا أنك على باطل؟

ثم وجّه حديثه للجميع بصوت جهوري:

- ما ترونه الآن يُبثّ حيًّا عبر قنوات التلفزة، وسيشاهده العالم كله. هذه ليست مجرد لحظة غضب، بل كشف لعمليات نصب تُمارَس بحق المهاجرين.. هؤلاء الذين فرّوا من جحيم الحرب ليُستقبلوا بجحيمٍ جديد من الاستغلال والخداع.

أصفر وجه الموظفة، فتجمدت ملامحها في صمتٍ مذهول، بعدما اقتحم سلام وشلته المكتب بقوة وعرض مسرحي مباغت. كان المشهد كأنما خرج من شاشة السينما: كاميرات تلفزيونية، أجهزة بث، أضواء نيون تسطع في الوجوه، رجال متعددو الأدوار—صحفي يسجل، تقني يضبط جهازاً، وآخر يرفع عمود الإنارة المبهرة فوق رؤوس الموظفات.

تجولت العدسة بينهن، تلتقط توترهن المرتسم على وجوه ترتدي قمصاناً شفافة، تشير لانتمائهن لمنظمات دولية، من الأمم المتحدة إلى الصليب الأحمر. إحدى الفتيات أمسكت بسجل كبير، وأخرى كانت ترتدي قميصاً عليه شعار الإغاثة، وكأن في هذه اللحظة كل شيء انكشف.

ثم توجهت الكاميرا إلى الزاوية اليمنى، حيث جلس المدير مدهوشًا، لا يصدق ما يرى: هجمة إعلامية صاعقة، تجاوز فيها عدد المجموعة عشرة أفراد، كل منهم يؤدي دورًا في مشهد تحقيق ميداني يشبه الغارة الإعلامية المصوّرة.

ادّعى سلام أنه يمثل عدة منظمات إنسانية: الإغاثة، الصليب الأحمر، ويعمل مراسلًا لقناة فضائية تابعة للأمم المتحدة. مهمته، كما قال، ليست سوى كشف الحقائق ونقل معاناة اللاجئين للعالم، ليعرف الناس ما يواجهونه عند الوصول وبعده.

تقدم بثبات نحو المدير، الذي كان يراقب المشهد مذهولًا، فتوسمت فيه سمات الصحفي في قيافته ونبرة صوته، قبل أن يرميه بعبارات حادة:....

- أمامك 24 ساعة فقط! إمّا تُحلّ مشكلة المهاجرين بالحسنى، وإما يُغلق هذا المكتب إلى الأبد. كيف تتلاعبون بأناس هاربين من جحيم الحرب كيف تعطوهم تذاكر سفر طيران وهم بالأساس لا يملكون جوازات سفر، ثم هم في الأصل عراقيون وأنتم قد منحتموهم تذاكر سفر بهويات سورية، مستغلين جهلهم للغة اليونانية، سنبث كل هذا عبر قناتنا، مباشرة وعلى الهواء، أو تتحركون لحل هذه المأساة فورًا.

المدير أخرس وصار يتلعثم، فيما ظل سلام يطلق رصاصاته بوجهه الواحدة تالو الأخرى، بحيث لم يدع له مجالا للتنفس ليجيب براحة وهو يرى كم الرشقات التي توجهت إليه، أضحى أمام سلام كسدادة الرمي يتلقف رصاصاته، وهو واقف على رأسه كأسد ضرغام يود افتراسه، فيما لصم المدير فاهه، تهجس به كثعلب ماكر تفاجأ بدخول الأسد لوكره. وهو يفند له خطئهم قائلا..

- الغلطة الأولى وقعت بها الشرطة التي أخطأت بإعطائهم أوراق سورية وهم بالأصل عراقيون، والغلطة الثانية من المكتب الذي قطع لهم تذاكر سفر دون أن تطلع الموظفة على حقيقة أن كانوا يحملون جوازات سفر أم لا.. فما هو ذنبهم وهم لا يعرفون لغة التعامل في المكتب ليتحملوا خسارة 900 يورو؟ الذي هربوا بها من بلدانهم. لذا على المكتب تحمل غلطة الموظف وإلا نرسل تقريرنا التلفزيوني حالا..

تلك الصورة أرعبت المدير الذي بات يتوسل بسلام بأن يوقف التصوير والتسجيل وهو جاهز لكل طلبياته، وحل المشكلة وديا..... تم إطفاء الإضاءة والكامرة وأوقف التسجيل وقال له سلام..

- حول تذاكرهم من فئة الطيران إلى فئة السفر على متن الباخرة وأعد الفروقات إليهم..

- ممكن نعطيهم تذاكر باخرة على حساب المكتب، ولكن الفروقات لن نستطع إعادتها لآنها سجلت في برنامج الكومبيوتر الذي لا يمكن التلاعب به، وهذا يعني بأننا سنخسرها من جيوبنا..

هنا أتفق معه سلام على إعطائنا تذاكر السفر لنبحر على متن الباخرة بعد أن أخذ رأيي في الموضوع، وقد أخبره المدير بأن الباخرة ممتلئة تماما ولا توجد غرف شاغرة بها، إلا على سطح الباخرة..

فأومأت لسلام بالموافقة، وقلت له أنها ليلة من الممكن تحمل مشقتها بدل الانتظار لأربعة أيام أخر حتى تعود الباخرة من رحلتها المكوكية.

بذلك أمر الموظفة إعطائنا تذاكر الباخرة، أستلم سلام تذاكرنا كاملة، ثم خرجنا من المكتب منتصرين بوجوه مفعمة بالنشوة بفضل ذلك الشهم الذي برع في إدارة الأزمة لصالحنا، خرجنا وبسمة النصر مرسومة على الوجوه قاطبة بما فيهم مجموعة سلام الذين انبهروا من فرض قدراته على المكتب. كنت أشعر بهم أكثر فخرا وفرحا منا بالنصر وبقائدهم، الفتيات يبتسمن، الشباب مبتهجين، فيما غص وجه سلام بنشوة عذبة بانت في عينيه، حينها عبر عن نشوة اصابته رافعا يده وفي كفه يمسك التذاكر، مطلقا كلمة نعم بالإنجليزية بصوت عال (يس)، كأننا كنا في جبهة حرب وخرجنا بظفر مبين...

في تلك الأثناء ودعناهم لتكملة أشغالهم الإنسانية التي يشرعون بتقديمها في خدمة المهاجرين، شاكرين جهودهم الجبارة التي بذلوها بخصوصنا... وهو ذاهب لعمله قال لنا...

- تذكروا؛ أن واجهتكم أية معضلة أو ضائقة أتصلوا بي..

شكرناه ثم ودعناه وأصحابه....

*****

الليلة الأخيرة في الجزيرة

كانت الساعة حينها تشير إلى الرابعة عصرا، الشمس ساطعة في السماء، يشوب الطقس حرارة خفيفة، حيث درجات الحرارة تقارب 25 درجة مئوية.

لولا براعة هذا الفتى الغيور، ودخلتهم كمجموعة التي فاجأ بها الجميع بما فيهم نحن، لما فلحنا بنيل التذاكر، لقد هجم عليهم كالوحش، كسب الجولة من اللحظة الاولى بسر لباقته وقوة شخصيته وجرأته ورباطة جأشه، حيث كان برفقة خمسة رجال وستة نساء، أشاعوا الفوضى داخل المكتب، هذا ما أرعبهم في بداية الأمر، جعلهم يتوقفوا عن إدارة أعمالهم لغاية فض الأشكال بيننا.....

ما ارعب المدير والموظفات كون الزمرة مثلت دور الصحافة الحرة، إضافة إلى ارتدائهم قمصان منظمة الإغاثة التابعة للأمم المتحدة.. بدخولهم المفاجئ كمجموعة، كانوا أشبه بفريق تلفزيوني حقيقي، ربما هم فعلا يمارسون هذا النشاط من أجل توصيل نشاطاتهم وصورهم وعملهم الإنساني للعالم، كونهم حاملين كامرة تلفزيونية وجهاز أرسال وجهاز تسجيل صوتي. الصورة بمضمونها عبرت عن سبق صحفي لواقع عملهم ومكتبهم، فالخبر إذا ما صدق ونشر في الصحافة ووسائل التواصل الاجتماعي وقنوات التلفزة العالمية، كانت ستعود بالوبال على المكتب، كون المكتب في هذه الحالة يمثل الحكومة اليونانية وهو الوحيد في الجزيرة. كل تلك الصور قلبت موازين القوى لصالحنا على رؤوس موظفي المكتب.

كان المدير قد عرف بأنه إذا ما غال في عناده، فأنهم فعلا سيتمكنون من توصيل أصواتنا لقنوات التلفزة، ومن ثم لمنظمات الأمم المتحدة U-N والتي ستدين وتحاسب الدولة، مما يعني بأن المكتب حتما سيغلق ويطرد كادر موظفيه من العمل للانعكاسات المتتالية التي ستحدثها ضجتنا داخل وخارج اليونان، ذلك ما دعا المدير أن يخرس ويصم فاهه، بقي يتوسل بسلام على إيقاف التصوير وإطفاء شعلة الإضاءة وحل الأشكال بشكل ودي

بعد أن حلت مشكلة التذاكر ذهبت وحسام نتجول في الأزقة والشوارع بحثا عن فندق يأوينا، تاركين أغراضنا إلى جانب

زوجـة حسـام وحماتــه وأطفالــه جالسـين علــى رصـيف الشــارع بجانـب الكافتيريـا. صـرنا نجـوب الطـرق بحثـا عـن الراحـة بعـد أن تماهـا التعـب فـي الجسـد، بعـد أن التصـق بنـا كلـون البشـرة لا ينبغـي أن ينفـك عنـا، أغشــى جوارحنــا ووجوهنــا بظلالــه. طــال البحـث عـن الراحـة دون أن نجـد لهـا ثلمـة فـي العيـون ترفـأ بنـا. أجـزم بأننـا قـد طرقنـا جميـع أبـواب الفنـادق ولـم نجـد فيهـا غرفـة شــاغرة، لــم نجـد مــن ينتشـلنا مــن التيــه العابــث فــي فكرنــا المضـطرب، هجسـت بأقـدامي قـد تآكـل كاحلهـا لخشـونة الأرض المصـبوبة بـالحجر. بـت أسـحل بهـا الـدروب ذهابـا وإيابـا كمكينـة الحصــاد حتــى كرهتنــا الــدروب لتكـرار تجوالنـا بهـا، تلـك الطـرق شــفطت البســمة مــن وجوهنــا والقــوة والقــدرة مــن عضــلاتنا، آلمتنــا، انتهينــا مــرغمين لصــف القــدر، أكــاد أجــزم بــأن تلــك الأزقـة جزعـت محاولاتنـا، شـاع اليـأس والظـن السـيء بنفوسـنا كعث الدود بأوراق الشجر..

عـدنا أدراجنـا للكافتيريـا، جلسـنا قـرب الشـاطئ لسـاعة زمـن ثـم تحولنـا مـع الغـروب لحديقـة عامـة صـغيرة نـريح بهـا أجسـادنا.. لشـدة تـدفق المهـاجرين كانـت قـد امـتلأت بـالزخم؛ حتـى لـم نجـد فيهـا أمـاكن تكفينـا الجلـوس بهـا.. فـي البدايـة جلسـنا تحـت جـذع نخلـة قرابـة نصـف سـاعة، ثـم انتقلنـا لمسـطبة كانـت قـد تركتهـا عائلــة لجهــة مــا. تراصــفنا علــى المســاطب الخشــبية الموزعــة علــى اطــراف الحديقــة، فأخــذت وأبنــي مســطبة جانبيــة تحســبا لبقائنــا تلــك الليــة دون مــأوى حتــى الصــباح، فيمــا جلــس وســام وعائلته على مسطبة أخرى قريبة منا.

هكذا بقينا جالسين في العراء حتى العاشرة ليلا، بتنا نعاني من عدم وجود حمام عام لقضاء حوائجنا وغسل الكدر من وجوهنا، فيما مال الطقس للجاجة البرد مع تقدم ساعات الليل، بعد أن باتت تلسع أجسادنا نسائمه الباردة..

طلبت من حسام أن يتصل بسلام ويخبره عن وضعنا. وبالفعل أخبره بأننا نفترش الأرض، الفنادق معبئة بالمهاجرين... وكان فيما سبق قد أبلغنا بأنه يمكنه تدبير لنا مأوى قرب سكناه إذا ما عصيت الأمور أمامنا. ذكر له:..

- الأطفال هلكوا من البرد، خائف عليهم أن يمرضوا، بحثنا كثيرا عن مأوى فلم نجد سكنا يأوينا.
- توجد شقة رخيصة بقيمة 10 دولار للسرير ولكنها تبعد مسافة 50 كم، إذا ما رغبتم نأخذكم معنا إليها إلى حيث أسكن..... قال سلام ذلك.
- لابأس نحن موافقون.
- لكني يجب أن أنهي عملي قبل أن أذهب لهناك، لابد من أن نمر على أحد الكامبات لتوزيع الأغذية عليها، واذا ما رغبتم بمساعدتنا سنأخذكم معنا..
- بالطبع أكيد نحن في شوق لذلك.

وافقناه الرأي ولم ننتظر سوى دقائق حتى عطف علينا وصف عجلته بمحاذات الحديقة التي كنا منسدحين بها. كانت الساعة تقترب من حدود العاشرة والنصف مساءً، حينها أتجهنا لكامب المهاجرين الذي يقع على الطريق، حملنا أنا وأبني

وحسام وسلام والفتاتين المغربيتين كراتين السندويشات وصرنا نمر على الخيم المطروحة على مساحة واسعة حتى مررنا على جميع الخيم، موزعين عليهم قوارير الماء وسندويشات الجبنة.

وأنا أوزع على مجموعة من الشباب، تقدم أحدهم مني وسلم عليَّ..

- السلام عليك يا أخي..
- وعليكم السلام.
- ألا تعرفني؟ أنا صاحب شاحن التلفون الذي أخذته مني في الكافتيريا ظهر هذا اليوم...
- يا أهلا وسهلا، أعذرني، لم أركز على وجهك جيدا، الظلام اغشاني، وأرجو أن يكون قد وصلك الشاحن، عندما عدت لم أجدك، فاضطررت أن أسلم الشاحن لصاحبك البدين ذات الدشداشة البيضاء الذي كنت جالسا بجانبه.
- أي بدين؟ هؤلاء ليسوا بأصحابي، أنا لا أعرفهم.
- معقوله !!! هو الذي أشار إليّ بمعرفتك، وهو الذي قال لي: أني أعرفه ساكن في الخيم معنا، سأوصل الشاحن له لا تهتم!.... أيا كلب.. أيا حقير.. حتى وأنت بهذه المحنة تفكر بالسرقة؟ حتى وأنت هنا تبيع ذاتك من أجل شيء تافه؟ مع الأسف ضاعت الكرامات والقيم.

حاولت أن أستخرج من جيبي 20 دولار لأعطيه له كتعويض عن ثمن الشاحن، إلا أنه أبى ذلك ولم يتقبله مني قائلا ..

- فداك الشاحن، أنت بعملك الجليل في مساعدة اللاجئين قد أخجلتنا.

ثم صافحته وودعته، حينها قلت له ...

- هذا الجمع مثل حقل السنابل، بعضه ثقيل عزيز نفس، مليء بالحب والكرم، وبعضه خاو، ضعيف، وضيع، تكسرها النسائم.

في ليلة هادئة تلامس خيوطها وجوه من أنهكهم التعب، أتممنا عملنا في حدود الحادية عشرة، ثم شددنا الرحال إلى السكن الذي يبعد خمسين كيلومترًا عن مركز الجزيرة، طريقه المتعرج يخترق التلال كأننا نمر في ذاكرة جغرافية طواها الزمان. كان سلام يقود السيارة بسرعة لافتة على طريق قديم لا يُطْمأنّ إليه، ممر ضيق متشقق أشبه بلوحة زجاجية مهشمة، تارة يختفي الإسفلت ويحل التراب بفعل تعرية الزمن، وتارة تبتلعنا الانحناءات بين الهضاب والوديان السحيقة.

جلست الفتاتان المغربيتان في مقدمة الحافلة بجوار سلام، وأنا وابني خلفهما مباشرة، بينما اختار حسام وعائلته المقاعد الخلفية. وأثناء الرحلة، تلقى سلام اتصالًا من والده الذي أراد الاطمئنان عليه. كان حديثه مزيجًا بين العربية والدنماركية،

وكــأن التعبيــر بلغتــه الأم خانتــه فاســتعان بلغتــه الثانيــة ليكمــل الفكـرة. بعـدها نـاولني الهـاتف، فتحـدثت إلـى والـده الـذي رحـب بي بصدق ودفء، وقلت له بإخلاص:...

- تحيـاتي يـا أبـو سـلام، أتمنـى أن ألتقيـك يومًـا مـا لأشـكرك علــى حســن تربيتــك لابنــك، فهــو رجــل نبيــل، شــهم، أصــيل، مملــوء بـــالغيرة والنخــوة والكــرم. أتمنـــى لـــه التوفيق في حياته، فهو يستحق كل خير.
- فرد الوالد بكل تواضع:
- أبنــي طيـب وخلـوق، وإذا احتجـتم شـيئًا لا تتـرددوا، فهـو لا يقصر.

فشكرته قائلاً:

- لقد أغـدقنا سـلام بكرمـه، وخـدمنا بمـا فيـه الكفايـة، ونسـأل الله أن يجازيـــه عـــن أفعالـــه الطيبـــة بمـــا يســـتحق. الله يحفظه لكم.
- بعدها سألته عن جذوره، فقال:
- أنــا مــن مدينــة الحلــة، مــن قبيلــة تمـيم، وأعمــل مهندسًــا مدنيًا.
- الجــذور واضــحة وطيبــة، ســعيد بســماع صــوتك، تقبــل مني تحياتي.

كــان ســلام يقــود ســيارته بســرعة جنونيــة بــين صــحارى وتــلال جــرداء، تنكشــف ملامحهــا تحــت وهــج المصــابيح الأماميــة. تمــر

بـين الحـين والآخـر كتـل داكنـة مـن أشـجار الصـنوبر تبـدو لنـا، في العتمة، كهوات سحيقة أو كهوف ملتصقة بسفوح التلال.

وفـي منعطـف حـاد مـن الطريـق، ظهـرت حافلـة ضـخمة قادمـة مـن جهـة القريـة. كـان المنعطـف يجـاور تلـة مـن اليمـين ووادـيًا سـحيقًا مـن اليسـار، يمتـد بمحـاذاة الطريـق لنصـف كيلـومتر تقريبًـا. غيـر أن سـلام لـم يعـر اهتمامًـا لا للحافلـة ولا للـوادي، وظـل متمسـكًا بسـرعته الجنونيـة غيـر مكتـرث بـالخطر الـذي يحـدق بنـا. . لـم أشـهد براعـة سـائق كمـا كـان يقـود سـلام فـي تلـك اللحظـة، بحيـث لـم يهتـز ولـم يرتجـف ولـم يرتعـد ولـم يرتعـب قيـد أنملـة مـن مشـهد التنـين الـذي واجهنـا، بقـي محافظـا علـى كياسـته وسرعته وهو يمر بجانب الحافلة بذات السرعة.

مـرّت لحظـة المواجهـة مـرت الحافلـة مـن جانبنـا وكأنهـا تلامـس عجلتنـا، أكـاد أجـزم بأنهـا لـم تبتعـد أكثـر مـن أربعـة أصـابع عنـا فـي أخطـر نقطـة مـن الطريـق. كأنهـا كانـت اختبـار لقـدرات خارقـة؛ كانـت الحافلـة فـي سيرها تفتـرش بـلاط الشـارع بحجمهـا الضـخم، كتنـين تبتلـع الطريـق قياسـا لحجـم مركبتنـا لضـخامتها، فيمـا عجلتنـا كانـت عليهـا أن تخـرج مـن الطريـق بمقـدار قـدم لتتلافـى الصـدام، غيـر أن سـلام نفـذ بجوارهـا بتلـك المسـافة دون ارتبـاك أو اهتـزاز، فيمـا قلوبنـا وجفـت، تعلقـت بـين الخـوف والـذهول، بينمـا النسـاء صـرخنّ مـن هـول المجازفـة. لمسـت المسـافة التـي كانـت تفصـلنا عـن الحافلـة بنظـري، والتـي أقـدرها لا تتجـاوز شـبرا فـي أحسـن حـال... فيمـا هجسـت بالإطـار

الجانبي للباص كأنه قد خرج عن نطاق الشارع الرئيسي وصار يتمرغ بمحاذاته في التراب المحاذي لجوف الهوة...

بعد أن تجاوزنا الحافلة بسلام، شاكرين الله على النجاة، نظرت إليه وهو يبتسم كأن شيئًا لم يكن. الجميع كان وجهه مشوبًا بصفرة الرعب، ما عداه. فقلت له:

- يا سلام! أنا نجونا من الغرق في البحر، لكنك كدت تقتلنا على اليابسة؟
- لا تخف، أنا في الأصل بطل سباق الرالي.
- الله يحفظك، لكنك نسيت أن المصائب لا تُعلن قدومها، إنها تهبط بلحظة خاطفة.
- تعودت على السرعة المجنونة، المجازفات هي طريقتي في الحياة. أجد فيها متعتي، بل أصبحت جزءًا مني.

تابعنا الطريق، وبعد أن تجاوزنا عشر كيلومترات، عندها توقفت العجلة فجأة لإسعاف المرأة البدينة، بدت عليها آثار الغثيان والخوف من جنون السرعة..... عندها كنت سألت إحدى الفتاتين بلطف:

- هل تتحدثان العربية؟
- أحفظ بعض الكلمات فقط، قالتها بخجل.

تسلّل النعاس إلى الأجفان مثل ضيفٍ يعرف طريقه دون استئذان. الكدر نزل بثقله على الأجساد، أغرق الأطفال في نوم عميق، وبتنا نترقب الوصول ونحن منهكين. وصلنا

المكان عند حدود الثانية عشرة ليلاً، ونحن أشبه بمن عاد من معركة روحية وبدنية طويلة.

حطّ الرحال في جنة من الهدوء - حملنا أمتعتنا ودلفنا إلى قصر لطيف من طابقين. تسللنا إلى الطابق العلوي، وراح كلٌّ منّا يتمتع بخصوصية غرفته. كانت الفيلا مرموقة، تحتضنها حديقة نضرة من جميع الجهات، تتوسطها شجرة رمانٍ عتيقة رفلت أغصانها بوفرة الثمار، تعانقها نسائم ناعمة، ومشهد مسبحٍ واسع يزيد طوله على عشرة أمتار يكاد أن يكون مرآة القصر وهو يغازل خيوط الشمس.

حين استقر بنا المقام، اكتسحنا الخمول، كأنما انهمرت علينا حقنة من نعاس. تركنا كل شيء على حاله، وتمددنا في أسرّتنا واستسلمنا لنومٍ عميقٍ طال حتى لسعتنا شمس الضحى من النافذة المفلّجة، توقظنا بنعومتها.

كان الخمول قد تناغم مع الوسن الذي داعب أجفاننا، تخلل لخلايانا دون إذن، تسرب لأعضاء الجسد كحقنة مخدرة، نامت أجسادنا وجلت عنها تعب الأيام، انسل الوسن إلى العيون ببطء، لذة الرقاد كانت شديدة، والحقيقة بعد دخولنا غرفنا تركنا كل شيء على حاله ثم تمددنا في أسرتنا، نمنا في سبات طويل، فلم نصحى إلا بعد أن لسعتنا شمس الضحى عبر النافذة المفلجة.

أستيقظنا بحدود العاشرة صباحا، فطرنا شرائح الجبن التي كنا قد اشتريناها مع الصمون الفرنسي من أحد المحلات

المفتوحة قرب الحديقة التي استرحنا بها، تجنبا للحظات الحرج..

قبل أن يغمرنا سبات الكدر، تطلعنا إلى راحةٍ تبدأ بنقاء الجسد، اغتسلنا ثن غسلنا ثيابنا التي أثقلها الوسخ وتعب الطريق. لم يكن في متناولنا غسالات كهربائية، فاغتسل القماش بأناملنا المتعبة، وماءٍ دافق وصابونٍ بسيط.

نشرنا الملابس على الأسيجة والسلم الخشبي علّ النسيم يتكفل بتجفيفها، رغم أن آثار العناء ظلّت منثورة على القماش، ترفض الزوال بسهولة. ضيق المغسلة وعدم توفر طشتٍ للغسيل جعلا المهمة عسيرة، ولكن الإنسان يُدبّر أمره بما يتاح، ويستخرج من الصعوبة بساطًا يهيّئه لخطو الرحلة القادمة. المهم أننا أزلنا غبرة الطريق وحديقة الأمس عن ثيابنا، نتهيأ بلطافة لرحلة المساء التي تنتظرنا، حيث ستقودنا الخطى إلى عتبات أثينا.

في ذلك العصر، وبرغم اعتدال الطقس الذي مال قليلًا إلى البرودة كما كنتُ أشعر، انتهز ابني وحسام وأطفاله فرصة الأجواء الهادئة ليقضوا يومًا بهيجًا يفيض بالمرح في مسبح القصر. طفت فوق سطح الماء إطارات ملونة، تحولت إلى أدوات سباحة بأيدي الأطفال الذين غرقوا في اللهو والضحك، بينما كنت أراقبهم من شرفة النافذة المطلة على المسبح، يرشون الماء ويطشونه بحماسة طفولية لا تُقاوَم.

اقتطف حسام بعض حبات الرمان من الشجرة القريبة، رمى إحداها نحوي، فالتقطتها بسهولة. جلسنا نأكل الرمان ونغوص في جمال اللحظة، والجزيرة تحيط بنا بحلّتها المائية، تحت شمسٍ مشرقة ونسيمٍ عليل يلامس الأرواح قبل الأجساد.

في الجهة المقابلة، كانت هناك فيلا فسيحة، أقرب ما تكون إلى نادٍ لتلك القرية، جمعت في مسبحها حشدًا من النساء والرجال من كبار السن، يرتدون لباس البحر، يستمتعون بأشعة الشمس وهي تداعب بشرتهم وتغمرهم بدفئها، ينهلون من نعيمها لإكساب أجسادهم خشونة الطقس نعومة، وبشرتهم لمسة من السمرة البرونزية التي تزيدهم بهجة وإشراقًا.

شعرت بألفة واضحة بين العجّزة، كأنهم فريق سباحة متكامل، وهم مطروحين على أسرة المسبح، تلك الملونة بألوان الطيف...

في المساء، كنا على موعد مع سلام ليقلّنا إلى الباخرة التي كان من المقرر أن تنطلق في تمام السابعة مساءً. غير أنه تأخر كثيرًا عن الحضور، فتسلّل القلق إلى قلوبنا؛ فالمسافة تزيد على خمسين كيلومترًا، والقرية تفتقر إلى وسائل النقل العامة، ولا يوجد فيها مرآبٌ يُعتمد عليه. لم يعد سلام من عمله إلا متأخرًا جدًّا، ما زاد الأمر توترًا.

انطلقنا من الفيلا قرابة السادسة مساءً، برفقة سلام والفتاتين المغربيتين، متجهين نحو المرفأ. قبل المغادرة، دفعنا أجرة

الغرفة لصاحبة الفيلا، وهي امرأة سبعينية طيبة القلب، وقد بلغت عشرين دولارًا عن الليلة.

تمامًا كما فعل في انطلاقتنا الأولى، عاد بنا سلام نحو الجزيرة بذلك الجنون الجميل في القيادة. رغم رداءة الطريق، كان يقود بثبات وتَرَكُّزٍ مدهش، متخطّيًا تحديات الطريق وسخرية السرعة.

بلغنا الباخرة في اللحظات الأخيرة، إذ كنّا آخر من صعد على متنها. وعند الوصول، ودّعنا سلام والفتاتين شاكرين لهم حسن التعاون والتعامل. فقد تركوا بصمةً لا تُمحى في قلوبنا، شاهدةً على نبل أخلاقهم ولطف سلوكهم، فكان أثرهم فينا علامةً من التاريخ لا تُنسى.

لم يغادروا المكان إلا بعد أن تطمأنوا من ارتقائنا سلم الباخرة وهم يرفدوننا بنظرات فيها بريق تلك العشرة القصيرة، متمنين لنا سلامة الوصول ونحن متجهين لسطحها. وبعد أن ارتقينا الباخرة بخمسة دقائق تحركت الباخرة.

بعد أن تركناهم بقيت أتساءل مع ذاتي:...

بعد أن فارقناهم، بقيتُ وحدي أراوغ أنفاسي، أفتّش بين فتات الذكريات عمّن مرّوا كالعطر في ممرات القلب، كم من إنسان صافٍ، تلمع عيناه ببريق الصدق كما تلمع قطرة ندى على وردة فجرية؟ هم قِلّة، كأنهم رسل من عالم آخر، لا يهبطون إلا بين الحين والآخر، كأنهم مذنب هالي، لا تراه إلا مرة في

العمر. سلام أحد ذلك النموذج الذي يحمل في تفاصيله رقيًّا لا يُشترى، وصفاءً لا يُمزّق، هو أحد أولئك الغرباء الذين يُشبهون الأساطير في هدوئهم. كل من يشبهه، لا يتركون وراءهم سوى أثر ضوء، طيفٍ خافت في الذاكرة، كأغنية عتيقة تنبع من الراديو فجأة فتتسلل للقلب دون استئذان. أهجس بهم... كنُجوم لا تراها إلا إذا ابتعدت عن ضوضاء العالم، ووقفت في صمت الصحراء تُحدّق في السماء.

الباخرة

في مدخل الباخرة، وزّع أفراد الحراسة على كل مسافر كيسًا صغيرًا يحتوي على شطيرة دجاج، وعلبة عصير برتقال، وتفاحة ناضجة.

ارتقينا سطح الباخرة، حيث كانت المقاعد الخضراء مخصصة لذوي التذاكر الاقتصادية، لكنها لم تكن سيئة كما توقعت؛ بل وفّرت قدرًا من السكينة والراحة. كان السطح غير مكشوف للعراء كما ظننت، بل مجهزًا بكراسٍ مرتبة تشبه قاعة سينما واسعة، مزوّدة بشاشات تلفزيونية تعرض أفلام كرتون للأطفال، بالإضافة إلى مصابيح وحمامات نظيفة. تفصل بين المقاعد ممرات ومساحات مريحة، على خلاف القاعات المغلقة المكتظة، ويوجد باب يؤدي إلى السطح الخارجي لمن يرغب في تأمل البحر أثناء الرحلة.

كانت الباخرة تحمل نحو ألفي مهاجر، غصّ السطح بهم من جنسيات مختلفة: عراقيين وسوريين وأفغان وأفارقة، كلٌّ يحمل قصته وأحلامه.

التقيتُ حسام مرتين فقط، إذ بدا كمن اختار العزلة، يخطط للهروب ربما، حتى يتجنب دفع المبلغ الذي أنفقته عليه في الجزيرة. كان قد حجز مقعدًا مع زوجته على طرف السطح، بعيدًا عنّا وعن الأنظار.

تحركت الباخرة قرابة الساعة السابعة مساءً من رصيف جزيرة متيليني، تمامًا عند أطراف الشفق، قبل أن تذوب الشمس في هوة الغسق وتسقط في البحر بهدوء. حينها، شعرت بشيءٍ غريب... كأن الغسق ينفث غباره في الأفق، يتصاعد دخانه من الشرق ليغمر الأفق البعيدة ويطفو فيه، كريح مغبرة تنتهي تدريجيًا في عتمة موشّحة بلون الحنين. كانت تتداخل وتتراجع مثل سحب داكنة تتجمع بهدوء لتغلق السماء، لتسرق من البحر بهجته وتألقه في لحظة تأمل.

كنا ننسلّ بهدوء من شاطئ الجزيرة نحو أعماق البحر، وكلما ابتعدنا، بدت حدودها وكأنها تتنهد شوقًا لفراقنا، تودعنا بملامح من السلام واللطف، حاملة بين رمالها وبناياتها ذكريات لم تفارق الذاكرة، وإن تظاهرنا بتوديعها. تبادلنا النظرات والحسرات مع تلك الزوايا التي آوتنا رغم قصر المدة، لكن وقعها في النفس كان عميقًا، ينبض ودًا وحنانًا.

وكلما ابتعدنا، ازددت يقينًا بسحر تأثيرها النفسي. شعرت وكأنني ألمح فيها فكر أرسطو في اختياره لها ملاذًا من الضجيج، لما تمتاز به من هدوء وجمال وهواء نقي ينعش الذهن والقلب. كانت، ولا تزال، ملجأً خالصًا لسحر الفلاسفة وفتنة الشعراء، حيث ينطلق الخيال في مساحات لا تحده ضوضاء أو عبث.

تركتها وهي تلوح لنا عن بعد، لائذة في غر عاطفتها، تبدو وكأنها غرقت بحزن سمج، فظ حين تركناها، كمن يفارق حبيبته الغالية..

كانت الشمس تميل رويداً نحو البحر، في طقسٍ سرمديٍ من الشوق والحنين. لا تستأذن، تميل نحوه كأنها أنثى تتخلع من ضوءها، وتعبر المسافات لتغتسل في موجه، لتدفن لحظة عناء اليوم في حضنه، بل تأتيه كمن يعود من التيه. البحر، في المقابل البحر يفرد لها قلبه الأزرق ويهيئ نبضه لعناقها، كمن يحفظ العهد حتى يسكن هديره، وتخفت زفراته، ويتهيأ لترجمة كل تنهيدةٍ ضوئية جاءته من البعيد. ويهمس لها بسرٍ لا يفهمه سوى الأفق الذي يشهد لقائهما منذ الأزل.

لم يسبق أن غابت الشمس دون وعدٍ، ولم يبح البحر بمللٍ من عناقها المتكرر. كلاهما يعرف الآخر كما يعرف الإنسان حلمه القديم الذي لا يزول، كأنهما اتفقا قبل ولادة الزمن على أن يكونا مثالاً للثبات والوفاء.

وفي زاوية خفية من هذا المشهد، يقف إنسان يتأمل، يتعلم من تلك اللغة الصامتة، ويتساءل: هل يستطيع أن يحب كما تحب الشمس؟ هل يمكنه أن ينتظر كما ينتظر البحر، دون كلل أو شرط؟ وفي هذا الغروب، يكتشف الإنسان أن الحب لمن يعرفون أن الوفاء هو فعلٌ يوميٌ يشبه الغروب: صادق، متكرر، يجدد نفسه. لا يحتاج إلى كلمات، بل إلى طقوسٍ لا تخون.

الحب الصادق يولّد طاقة نورانية في النفس تخترق جدران المستحيل، فتنساب في الروح كنسيمٍ عذب، وتُشرق تأثيراته على الكون من حوله.

أهجس بزفّة الشمس للبحر تشارك فيها الأسماك والنوارس والبجع والفلامنكو، وهي تزحف بأناقة خلف سفر الغروب، وتهدل بأصواتها احتفاءً بهذا اللقاء العذب. وكأنها ترقص فرحًا لاحتضان الضوء بالماء، كما تفرح بمشهد اللقاء حين تعانق الشمس خيوط الفجر في لحظة ولادة جديدة.

في كل فجر تعود الطيور والاسماك تشكرها على وهج يوم جديد، تتمنى لها نهارًا ممتلئًا بالعطاء. ومع تباشير الفجر تودع الشمس البحر لتذهب لعملها، كأنها لا تنفصل عنه إلا تعود له، وكأنها تولد من جديد في حضنه.

أهجس بالشمس خجلةً وهي تنزوي برفق في حضن البحر، تحمل شوقًا يكاد يعصف بها من فرط حرارته. متعبةٌ من يومٍ شاق، بذلت فيه دفئها للحياة جمعاء.

راعت الطير والشجر والبشر، رقّت للتربة الجافة، ولامست بشجونها أرواح العباد. نفحت فيهم الدفء، وواست وحدتهم، وانتشلتهم من ظلام الصقيع ووحشة الوحدة. أنعشت الفسائل الظمأى، وخلخلت غزار التربة، ورشقت جلود الحيوانات وأوراق الشجر بفوتونات من الحنان، فارتقت بها الحياة، وانتعشت نسائم الروح في الأرجاء.

هكذا شغلت الشمس الكون كله، ثم عادت في هدوء لتستقر بين أمواج البحر، تلتمس منه السكينة والطمأنينة، تطوي

نورها تحت سُدمه، لتتغذّى بالمودة والطاقة استعدادًا ليوم جديد ينبض بالعطاء.

تلك الطقوس بقيت على ما هي عليه تسحر الناظرين وهي تكرر ذاتها كل يوم أمام أنظار البشر، تغرز فيهم قيم تلك الألفة والمحبة الأزلية الصادقة. رغم ذلك بقي البشر لا يستقون من تلك المشاهد الحية عبرا تبجل علاقتهم الأسرية بالعطاء والراحة والديمومة، لم يستقوا تجاربهم من نتاج الطبيعة المأمورة بأمر الله، رغم أحاسيسهم المرهفة التي تعبر عن الأفراح والأتراح في فترات أعمارهم..

قبل أن تنزوي الشمس في جحور الغاب، كانت قد شقت الباخرة عباب البحر بجبروتها وهي متخذة مسارا مستقيما في سراط لن تنثني عنه، بعد أن انعطفت غربا باتجاه أثينا.

مضت بنا الباخرة وهي تحمل على متنها آمال هؤلاء المهاجرين كأمانة لتضعها بين أيادي أقدارهم التي ستتولى أمورهم فيما بعد، لتكن دليلا أمام سعي هؤلاء المساكين الهاربين من جحيم واقعهم المأساوي، والراجين ببذر أحلامهم البنفسجية على بساط الغد، ليلتمسوا من خلالها سعادة تشف جوارحهم، لتوشم الوجوه المسجورة بالصبر بعد فراق الأحبة والوطن.. حيرة طافقة في حدقات العيون لا يستشعر بها سوى أصحابها، جراء الهم الرائب بين طيات الغد المجهول، تاركين البراكين الخامدة تتفجر في الذاكرة، لا لنتجرد منها، بل لكي لا ننسى أمسنا وهوانا واحبائنا.

صرنا نصالح بعضنا البعض، نآزر بعضنا البعض، لنخفف من سطوة الهم والغم الجاثمة على صفيح النفس. الوحل الذي علق بأطمار ثيابنا جعلنا نتأمل غدنا بشيء من الاحلام البنفسجية، بحثا عن استقرار وسعادة تجيل عنا متاعب الوطن والطائفية.

مضت بنا الباخرة بعزم ثابت وهيَّ تنث علينا عبق من شذى الأمل، تشد من أزرنا، تصبرنا على ضيم الزمن الذي التصق بنا. بتنا نستلهم الصبر والحلم من قوة عزمها في مواجهتها عباب البحر، وإصرارها الدؤوب على بلوغنا رصيف الحلم الذي نسعى خلفه، متأملين بلوغ برج الحياة، تلك المنارة التي أضحينا نرى جنائنها المعلقة بين مداعبات وهمسات الغد الدافئة وهي تطرق مسامعنا وذاكرتنا بأنغام السعد والتروي.

أمل مهموز في ديجور الغد يشحذ عزيمتنا على مواصلة الدرب رغم مطبات الزمن، هاجس خيال رسم لنا الأفق في فج ضيق دون وضوح معالم المصير، عبث في ذواتنا بشيء من طيف حلم غشي مع غزل نسيم البحر...

خلال الرحلة الطويلة، شدّتني لحظة غروب الشمس، حين لامست بثغرها المتقد ثغر البحر البارد. تحولت إلى جذوة مشتعلة، تغشي الأمواج بنورها، إذ شظّت إشعاعها على الأرجاء، فلامس وطيس الفرحُ النجوم، واستشاطت الأمواج ترقص استقبالًا للشمس.

أصبح إشعاعها شرائط مذهبة تعوم فوق سطح الموج، بدت من بعيد كأنها ضياء مصابيح تتطاير من شعل غائرة في عمق البحر، تُحدث بانكساراتها أضواء سحر تعلقت قروؤها في السماء كألوان الشفق.النوارس تهدلت فرحًا وسرورًا، تطبق شفاهها على شفاه البحر من فرط الشوق المخزون فيها.

ربما أنهكها جهدها طوال النهار فهوت كحجر صوان بأحضان البحر، فصارت تستنجد بالسماء لتنتشلها من شر الغرق.. كنت أشتاف منظر الغروب بشغف، كأنها لحظة لن تتكرر. فعلا بعد التجارب وجدتها لحظة لن تتكرر، أو تختلف من يوم لآخر لاختلاف كثافة الرطوبة ودرجة الحرارة وسرعة الرياح، لذا كنت أرى الشفق كل يوم بألوان جديدة زاهية.

ارتدت الأجواء رداء الظلال كعباءةٍ من الحزن والسكون، وبدت تلك الملامح تطفح في وجوه النجوم التي شجّت السماء بأنين بحثها عن الشمس في دروبٍ لفّها العتمة. حتى زادت النجوم من إشعاع ضيائها، تنثره على تلك الآفاق والدروب، دون أن تملك قدرة تعويض سحر الشمس. فهادنت السماء الأسى، وقد اختنقت حزنًا لغيابها، فارتدت رداء السواد حسرةً وعزاءً لها.

كانت الباخرة قد مضت بنا باستقامة، لم تعرج بمسارها إلا قبل أن تصل العاصمة أثنا بقليل، حينها ماجت تشتط بين الجزر المنتشرة في بحر إيجة.

لطـول مـدة الرحلـة، التـي تجـاوزت إحـدى عشـرة سـاعة، تَغلغـل الكَـدَر فـي ملامـح الوجـوه كبشـرة النسـاء التـي خطهـا التعـب. لـم يكـن بالإمكـان أن نزيلـه، فقـد قضـينا الليـل نتنقـل بـين شـقف النـوم علــى كــراسٍ جلديــة أضــنت أضــلعنا وأرهقــت أعناقنــا، وبــين التجـوال علـى ظهـر البـاخرة التـي احتضـنتنا بجمالهـا الخيـالي. سـحر المنظـر المتجـدد خلـف البـاخرة أسـرنا، ذلـك التيـار الهـادئ الـذي رافقنـا منـذ صـعودنا، مختلفـاً عـن المشـاهد الماضـية التـي رافقتنا في قاربنا المطاطي.

فـي تلـك الليلـة الطويلـة، اخـتلط الكـدر بجلودنـا، كـأن البحـر أراد أن يخـتم علـى أجسـادنا توقيعـه الأزلـي. إحـدى عشـرة سـاعة مـن المسـير فـي البحـر، كنـا نتجـول فيهـا بـين أنصـاف نـوم وركـلات المقاعــد التــي ضــيّقت علــى أرواحنــا التــنفس، وبــين نســمات بحريــة تُــرغم العيــون علــى الاســتيقاظ لحضــور مشــهد ســاحر فوق سطح الباخرة لا يتكرر.

كانــت البــاخرة تمضــي، والمــاء خلفهــا يرســم شــريطاً مــن زبــد البحـر كضـوء متجـدد، كمـا لـو أن البحـر نفسـه يعيـد رسـم الحـدود بـين الواقـع والحلـم. صـعدنا السـطح، وكانـت السـماء قـد بـدأت تبسـط نجمهـا علـى أرواحنـا. لـم يكـن الصـمت سـوى موسـيقى خفيفـة تعزفهـا أنفـاس البحـر، وعيوننـا تتجـول بـين المجـرات، نبحث عن حكايات الفلك في أفق متألق.

كـل نجمـة كانـت وطنًـا، كـل كوكـبٍ كـان صـديقًا، وكـل مجموعـةٍ نجميــة كانــت أســطورة تنتظــر أن تُــروى. الزهــرة اســتقبلتنا بابتسـامتها، وعطـارد، كنقطـة حمـراء خجولـة نائمـة فـي الافـق،

حيّانا من بعيد الدب القطبي الذي أضحى دليلنا لبيات الجهات الأربعة، وبنات نعش كأنهن يرقبن خطوتنا. سهيل أضاء الطريق، والجوزاء والعذراء والأسد والسرطان والثور كأنهم يراقبون باخرتنا من سماء المسرح الكبير.

وفي لحظة ما، شعرتُ بأننا لا في البحر فقط، بل في أعماق أنفسنا متجهين إلى تلك المجرة، في رحلة تستنطق النجوم، وتمنح السماء وجهاً جديداً كل دقيقة. كانت الباخرة على ضخامتها، مجرد نقطة ضوء تجري وسط شارع طويل وعريض يدعى درب التبانة.

كنت أوضح ذلك لأبني على قدر معرفتي القليلة بالنجوم ومواقعها، والتي تعلمتها من أبي وأخي الكبير حين كنا صغارا ننام فوق أسطح المنازل في ايام الصيف الحارة، كانوا قد تعرفوا على تلك النجوم لأنهم استخدموها في مشاويرهم الليلية قبل التكنلوجيا. تلك النجوم كانت دلائل طرق أجدادنا في الصحاري ومازتال سارية لقوافل البدو في الجزيرة العربية وشمال أفريقيا...

بتنا نتفرج بصمت على نجوم السماء وعلى الزبد المتدفق من باطن البحر خلف حرث الباخرة وهي تشق عباب البحر بدوران محركها الضخم. كأنها تقدم لنا صورة مصغرة عن الانفجار الكوني الذي حصل قبل ملايين السنين، تبين لنا توزيع النجوم في مسار درب التبانة، اجد تشابها بين آثار العصف الذي تتركه الباخرة خلفها من فوران زبد البحر، وتلك الماثلة فوق رؤوسنا في جوف السماء المنتشرة على

مـدى شاسـع مـن الفضـاء الكـوني. أشـبه البـاخرة المتبختـرة فـي وسط البحر بالزمن الجارف لتلك النجوم التائهة في فلكها..

حينها سألني أبني عن برجه فقلت له:...

- أنـك مـن مواليـد بـرج الجـوزاء والـذي يتصـف أشخاصـه بالطيبــة والــذكاء الشــديد ومحبــة العلــوم والرياضــيات والفيزياء.

كانــت البــاخرة عملاقــة، تشــق عبــاب البحــر بثبــات وجــلال، مكونـة مـن سـبعة طوابـقٍ كأنهـا قـارةٌ عائمـة، تمضـي فـي مسـارها بخطــىٍ مــن يقــين لا يخبــو، دون أن تهتــز بنــا أو تعبــأ بســلطان المـوج. لـم نشـعر بـدوار البحـر، ولـم يطرقنـا قلـقٌ ممـا يخبئـه لنـا البحـر؛ كأنهـا تحمينـا مـن تقلّباتـه، وتمنحنـا شـعورًا بالأمـان وسـط عالمٍ متلاطم.

فــي بدايــة الرحلــة، ســحرنا منظــر البحــر وتلــول الجزيــرة وهــي تبتعـد عنّــا بصــمت الــوداع. ظلــت عيوننــا معلّقــة بتضاريســها، وكأنهــا تســتجدي لحظــة أخيــرة قبــل الفقــد، تتوســل الــزمن ألا يمضــي. شــعورٌ عميــق بــالحنين اعترانــا، حــزنٌ خافــت يســكن النظـرات، فهـذه الجزيـرة رسـمت ملامـح عمـرٍ مضـى، وتركـت في القلب جدارياتٍ من ملح البحر ورمل الذكريات.

كانــت الحيــاة علــى ظهــر البــاخرة أشــبه بفــيلم ســينمائي حــي، مشـاهد متلاحقـة مـن الأحـلام والتحـديات والمشـاعر المتضـاربة. الأطفـال يشـاهدون أفلامهـم الكرتونيـة فـي صـالة العـرض، بينمـا

الكبــار يتــابعون قصصــهم الحقيقيــة، قصــص هجــرةٍ وتــوقٍ وقلــق، ومزيجٍ عجيبٍ من الترقب والصبر والمتعة المغلفة بالحيرة.

رحلتنــا بــدت كأنهــا اختبــارٌ لقــدرتنا علــى التحمــل، علــى مرافقــة الأمــل رغــم ثقــل الحقيبــة المملــوءة بالماضــي. كــل لحظــةٍ كانــت تتــوهج داخلنــا كنبضــةٍ مــن حيــاةٍ جديــدة، وتغــوص فــي أعماقنــا كموجةٍ خافتةٍ من خوفٍ وشغفٍ وأمل.

بــدت رحلتنــا كومضــةَ ضــوءٍ خاطفــة، انبثقــت مــن شــرارة فكــرةٍ وُلِــدت تحــت وطــأة الظــرف. تــدحرجت أمامنــا ككــرةٍ تتمايــل فــوق دروب التــوق، تمرغــت برغباتنــا، واغتســلت بفــيض أفكارنــا، فانبعثــت منهــا ألــوان الطيــف، بتنــا نســير خلفهــا دون وعــيٍ، منســاقين إلــى فتنــة الضــوء، منجــذبين لمباهجــه، حتــى تلقفتنــا الرغبة واستحوذت علينا.

صــرنا بطبيعتنــا نتنقّــل مــن لــونٍ إلــى آخــر، ومــن فكــرةٍ إلــى أخــرى، حســب شــدة الظــرف وقســوته، نلهــث خلــف الهــوى ومــا يغرينــا، حتــى دكــت أقــدارنا أســافينها فــي ألــواح أحلامنــا علــى جزيــرة مــاتليني، فخطّــت عليهــا ذكريــاتٍ لا تُنســى، وبخاصــة ذلك اللقاء النبيل مع الشهم المدعو "سلام العراقي".

علمتنــي الحيــاة أنّ الــذكريات المُــرّة تبقــى راســخةً فــي الوجــدان كنجــومٍ لا يخفــت بريقهــا، تغــذي الــنفس بســموم النــدم، وتــوخز الطمــوح إذا مــا تعثّــر بلوغــه. أحيانًــا، تكــون تلــك الــذكريات أشــبه بجــراحٍ غــائرة لا تُشــفى، تحــذرنا مــن تكــرار الألــم، وتُعمّــق وعينــا بالمخــاطر الكامنــة خلــف الرغبــات. لقــد اجتاحتنــا حالــة ذات

أعماقٍ متقلبة، صارت تسحق رغباتنا وقدرتنا على الاحتمال بأتراس الزمن المراوغ، تدفعنا نحو مراجعة الذات أمام مشهدٍ تتداخل فيه الأمنيات بالحسرة، والضوء بالظل، والتجربة بالحكمة.

حين شرع الظلام يتفشى في خواطرنا مع سير الباخرة؛ هجسنا بلسعات البرد تهاجمنا، فدلفنا لداخل الباخرة هربا من وخيزات ريح الفجر الباردة، لنستريح على كراسينا الخضراء.. حينها سرقتنا الفِكَر، امتقعت الوجوه وهي ترنوا إلى طمح الذات ودجن مسارات أهدافها واحلامها.... بات الذهن يتقلب على حجر أمس، يتنقل بنا بين لتع الفراق وبؤسه وبين هم الغد ونغصه، تلك الصور بتنا نراها تحوم فوق رؤوسنا كحمامات ترفرف بارتفاعات مختلفة، نهجس بأهداف قريبة نراها بوضوح وأخرى غائرة ماهية بعيدة المنال، هكذا أغشتنا الحالة، جزلتنا وأغرتنا بغاية لم نتأكد من حيثياتها...

الصالة التي جمعتنا كانت تعج بالفوضى، حتى طغى اضطرابها على اضطراب أفكارنا. كان الضجيج المتصاعد من شجار اندلع بين عائلتين تجلسان جنبًا إلى جنب على فسحة ضيقة بين المقاعد، حيث حاول كل طرف الاستئثار بها لينام بعد أن فقد الراحة على الكراسي. احتدم التوتر، وبدأ أفراد العائلتين يتبادلون الإهانات والتراشق بالألفاظ البذيئة، إلى أن تدخل الحرس لفض النزاع.

في موقف آخر، تصاعد الخلاف بين شابين بسبب احتكار أحدهما لمقبس شحن الهواتف، رافضًا السماح للآخر

باستخدامه. وبسبب تعنتهما، تحوّل الجدل إلى سبّ وضرب، لينتهي الأمر بندوبٍ وجراحٍ واضحة في وجهيهما، ما استدعى تدخل الشرطة التي احتجزتهما مؤقتًا حتى وصولنا إلى أثينا.

وفي أرجاء الباخرة، بدت الحركة مستمرة. الممرات والمقاعد تحولت إلى ساحات سهر وسمر، وفوق سطح الباخرة تباينت النوايا: فهناك من يجري اتصالًا بعزيز، وهناك من يقضي حاجته، بينما غالى بعض الشباب في مشاعر المرح، فراحوا يضحكون ويتبادلون النكات بلغات لم نفهمها، وآخرون كانوا يروون قصص هروبهم لأصدقائهم...

كان على متن الباخرة أكثر من ألفي مهاجر، جاءوا من بقاع مليئة بالعُقد والتجارب المتراكمة: أفارقة، عرب، فرس، أتراك، هنود، أفغان، وبعض الوجوه المسطحة من جنوب شرق آسيا. الكل تجمع تحت سقفٍ واحد، يرطن بلغته الخاصة، حاملًا معتقداته وأفكاره المتباينة.

الكل تجمع تحت سقف الباخرة وصار يرطن بلغته، لغات مختلفة وديانات عديدة وأفكار متناقضة. لذا تجد الفوضى صارت لها صدى عند الجميع، نتيجة البراجم الحاصلة بين المجموعات، اختلط فيها اللسان بالدين بالفكر، لم تكن مجرد ضجيج عابر، بل كانت صدىً داخليًا يوقظ التوتر في نفوس من يطلبون السكينة، فتبدو لهم عبثًا صاخبًا يشبه طنين الذباب، وتُخلف فيهم أثرًا من التشتّت والصداع والدوار، كأنها ترسم خطوطًا مربكة على صفحة رؤوسهم.

بصراحة هناك من لم يهتم براحة الآخرين فمضى مع أصحابه في شوشرة صاخبة وضحك مضجر بلغ حد القرف، وآخرون تجادلوا بلغات متناقضة، مما ولد ضجرا واضحا في نفوس الآخرين، ذلك السلوك العبثي أثر على العوائل سلبا. وهناك من فرش بساطه بين الكراسي من نساء ورجال وأطفال بعد أن وصلوا لحالة عدم التحمل، لذا غطوا أنفسهم بعبيهم وبطاطينهم دون أن تصغي آذانهم لطنين الفوضى الدائرة حولهم، لشدة التعب الذي اصابهم وأرهقهم. وهناك من تعسف وقسى بسلوكه مع الآخرين فزاد من الفوضى شقفة...

في ظل تلك المعمعة كنت أحاول أن أجد فسحة لأبني ليرقد قليلا كي يتحمل عبء الغد الذي لا نعرف كيف ستؤول بنا الأمور، إلا أنه ظل جالسا على كرسيه في عناد وإصرار لا يأبى أن يغير من نهجه حتى أدركه النعاس ومالت رقبته على كتفي الايمن بعد ان تراخى جسده وترنح تماما على جنبي.

عند ولادة الفجر، وفي لحظة شروق الشمس، استقبلنا وهجها البهيّ ينساب من عمق البحر، وكأنها تفقس من قشرتها ككتكوت يكسر بيضته الأولى. خرجت الشمس باقةً صفراء مشبعة بابتسامة صباح عريضة، زهرة عباد الشمس تطل من القمقم، تنثر دفئها بنعومة على كل من حولها. فرحت بها النوارس والنجوم والأسماك والبشر؛ الجميع استقبلها وكأنها رسالة حب من السماء.

تسلقت سلم النهار بخطى هادئة، ثم راحت تدك ألواح الظلام بإشعاع فوتوناتها، تطرده من الأفق بعزمٍ رقيق، حتى غابت

آثــار الليــل تمامًــا، وانتصــب النهــار بضــيائه المتــألق مــن دون شوائب.

أجمــل مــا فــي ســفر البحــر هــو لحظتــا مــوت وولادة الشــمس؛ لحظـة شـروقها ولحظـة غروبهـا. حـين تغـرق فـي عمـق البحـر، تبكـي عليهـا الأسـماك والطيـور والنجـوم، وكأنهـا تفقـد مصـدر الحيـاة. وحـين تولـد مـن جديـد، تسـتقبلها النـوارس أولًا، جذلـةً مسـرورةً بمجيئهـا، فتصـدح بأناشـيد الفـرح، ترافقنـا بأجنحتهـا حتى دخولنا ميناء أثينا.

مــا أن شــاهدنا النــوارس تحــوم، حتــى أدركنــا أننــا اقتربنــا مــن إحـدى الجـزر أو مـن مرسـى البـاخرة فـي أثينـا. كـان بيننـا وبـين محطتنـا الأخيـرة نحـو سـاعة، وفـي تلـك الأثنـاء، نزعـت الأجـواء وشـاح السـواد عـن وجههـا، وبـدا لهـا وجـه جديـد ناصـع. الزرقـة أخــذت تتــراقص مــع حركــة الأمــواج، وكأنهــا تتــدفق بــودّ مــن عمـق البحـر إلـى عمـق السـماء. وأحيانًـا، كنـت أشـعر بأنهـا تهـبط من السماء لتغوص في البحر.

الألـوان امتطـت سـنابك الأمـواج حـول البـاخرة، مبهـورةً بغـزل ضـياء الشـمس الـذي يحفـز بريقهـا. كتـل الظـلام التـي أثقلـت النفـوس انحسـرت، ثـم تراخـت فـي السـدم، وذابـت كالجليـد تحـت وهـج النـور، حتـى لـم نعـد نـرى سـوى زرقـة ممتـدة، مـن فـوق ومـن تحـت ومـن كـل الجهـات، بتـدرجاتها الجذابـة التـي تأسـر النظر وتغمر القلب بنشوة الوصول.

أثينا

مع رسو الباخرة على رصيف الميناء، تراصّ الناس على السلالم ثم تدافعوا، فتدفّق الجمع كعصف الجراد نحو منافذ النزول. احتشد سيلٌ من البشر أمام أبواب السلالم، عازمين على النزول سريعًا إلى المرأب الظاهر من نوافذ الباخرة، أملاً بالحصول على عجلة أجرة تقلهم إلى وسط المدينة. كانت العجلات الخصوصية المصطفّة على طول شارع المرسى تفوق عدد عجلات الأجرة المتكتلة في داخل المرأب، بسبب الأعداد الهائلة من المهاجرين، الذين لا تستوعبهم تلك العجلات جميعًا.

ما إن توقفت الباخرة حتى اندفع الركّاب عبر منافذها العديدة المفتوحة أمامهم، في مشهدٍ عشوائي لن يتكرر، أشبه بتدفق دبيب النمل عبر ثقوب بيوته. انطلق الجميع نحو المخارج، يحملون حقائبهم فوق رؤوسهم بسبب ضيق مدخل ممرات السلالم. ورغم عددها، فإنها لم تكن كافية أمام العدد الهائل من المسافرين. فقد غصّت غرف الباخرة بالنزلاء عن بكرة أبيها، إضافة إلى الذين افترشوا سطحها وجلسوا على كراسيه.

ومن خلال نظرة تفحصية، قدرتُ عدد العجلات الموجودة بنحو مئة عجلة، ولو فرضنا أن كل عجلة تنقل خمسة ركّاب، فإننا سنحتاج إلى نحو أربعمئة عجلة لاستيعاب الجميع. ولهذا السبب، بدا تدفق مهاجرين عشوائيًا، نظراً لقلة عدد العجلات مقارنةً بالمسافرين.

كـان انسـياب الحشـود مـن طوابـق البـاخرة السـبعة متزامنـة مـع وقـوف البـاخرة، صـاحب ذلـك اختناقـات عديـدة نتيجـة التـدافع والـتلاحم علـى السـلالم. بفعـل السـرعة المفرطـة والرغبـة الجامحـة لـدى الجميـع للوصـول إلـى هـدفهم. تـزاحم الجميـع وتـدافعوا للخـروج مـن نفـق البـاخرة، حتـى صـار السـيل يحمـل بعضـهم الـبعض فـوق مـوج حركـة الـدفق المسـتمرة مـن الخلـف. اشـتد الـزخم عنـد عنـق منافـذ السـلالم الضـيقة، التـي لا تتسـع لأكثـر مـن شخصـين فـي آنٍ واحـد. وغالبيـة أولئـك المتحمسـين للنزول السريع كانوا من الشباب والمراهقين.

فـي خضـمّ تلـك الفوضـى التـي امتزجـت فيهـا الألـوان، تلاشـت ملامـح حسـام وسـط الزحـام. أو بعبـارة أخـرى أخفـى نفسـه عمـدًا بـين حشـود البشـر، كفقـدان إبـرة فـي كومـة القـش. تـاه تحـت الأقـدام المتسـارعة، اختفـى عـن نـاظري تمامًـا. لـم ينبئنـي بموعـد نزولـه، لـم يـودّعني، ولـم يتطـرق إلـى النقـود التـي أنفقتهـا عليـه. ومنـذ تلـك اللحظـة لـم ألمـح لـه شـبحًا ولا ظـلًّا. غـاب حـين تـأخرت قليلًا وسط زحمة المنافذ... وغاب كأنه لم يكن.

بعـد أن وطئـتُ الأرض، سـارعت بالبحـث عـن حسـام خـارج نطـاق البـاخرة، وفـي المـرأب، وعلـى امتـداد الشـارع الرئيسـي حيـث اصـطفت العجـلات الخصوصـية... لكـن دون جـدوى. معظـم العجـلات كانـت قـد امـتلأت وغـادرت مواضـعها، ولـم يتبـق سـوى القليـل، أعـددتها بعينـي، وميّـزت ملامحهـا، لكنـه اختفى من الساحة كرمشة عين... صار أثرًا بعد عين.

تصفّحت زوايا المكان المكتظ، دقّقت في وجوه العابرين، لكن لا طيف له ولا ظلّ يشير إليه. كأنه فصٌّ ملح ذاب في اليم. لم أكن أتوقع منه غدرا كونه برفقة عائلته، خاصة بعد ما قدّمته له من تسهيلات في الجزيرة. لطالما سمعت منه كلمات مزخرفة... لكنها كانت، على ما يبدو، طلاءً لوجهٍ لا أعرفه حقًا.

ما منعني من هجره وتركه كونه أبن بلدتي ووهج الذاكرة التي خُيّل لي أنّها تشفع له. منحتك الودّ بلا قيد، وأطعمته من إحساني، فرد الجميل ببؤس الطبع، وبُعد الضمير. اكتشفته مجوفًا من القيم، بلا نخوة، ولا كرم سجايا، وإذا بالإحسان لديه لا يُراعى، كمن غسل وجهه ببوله، ما أبشع الصورة وما أبلغها. اما انا فلا يؤسفني فراق من لا يُبقي للودّ وزنًا، فأنت مجرد عابر، سقط قناعه، وانكشف وُطؤه.

كانت العجلات تتحرك أمامي كدبيب النمل، هجست بأن المرأب ستنفذ عجلاته، حينها كانت أمامي فرصة أخيرة استغليتها قبل أن تفلت بعد أن عجزت من إيجاد حسام، كلَّ سعيي، أيقنت بأنه قد فل، شلف دولاراتي وأختفى، أستغل فرصة الزحمة ليتملص من التزاماته المادية، هجست به وزوجته التي وافقته سلوكه من طينة واحدة قذرة، فسلمت أمره لله ليجازيه على فعلته النكرة.

أبتِ النذالةُ أن تُفارقَ أهلَها

فهيَ في العظامِ نخرٌ

وفي الروحِ دبيبْ.

تخالُه يزهو بنفسِه مُتباهياً

ولا يدري أنَّ العضالَ

لا يشفِيهِ طبيبْ.

حينها استأجرت عجلة أجرة لوسط مدينة أثنا وبذات لساحة أمونيا التي توسطها، عسى أن أجد له أثرا فيها، حيث أننا كنا قد أتفقنا على أن ننزل فيها ونتجول في ثناياها ليوم أو يومين، ومن ثم ننطلق بعد ذلك لمقدونيا..

تعتبر أمونيا منطقة وسطية زاخرة بالمحلات والبضائع، تتفرع منها الطرق المؤدية لبقية النواحي، إضافة لذلك تحتوي على مرأب رئيسي لنقل المسافرين خارج أثنا، وهي منطقة شعبية، رخيصة ماديا، قياسا لمناطقها الأخر..

***

لم يخطر ببالي يومًا أن أجد نفسي تحت وطأة الشك بين صفة الغِلّ والنذالة التي انكشفت، وبين براءة يرتديها ونية يخفيها. كنت أنظر إلى الأمور بعفوية مطلقة، لا أحمّلها ما لا أحتمل، غير أن أصداء المواقف المتكررة زجّت بي نحو الحقيقة، حتى بات وقعها يصمّني عن التجاهل، ولم أعد أشك في ما خفي خلف دموعه المتململة ولا في زيف نظراته المتلبّسة بالصفاء.

بدأت الرحلة بعفوية من جانبي، بينما شرع هو في التخطيط بدقة، مستغلًا الفرص، متحسّبًا لكل خطوة. كنت أراه بين أطفاله، فأنسى ما اقترفه، وأتطلع إلى ما بعد الصحبة، إلى الألفة والدعم. أما هو، فكان يحسب المسافة بميزان الجيب، متأففًا من طول النفق الذي عليه أن يجتازه دون خسارة، متوجسًا من الحبل الملتف حول عنقه.

أردته عضدًا وسندًا، أتكئ عليه في كسر قيد الغربة، لكنه أرادني سلّمًا يصعد عليه نحو غايته.

تلك التجربة علمتني درسا بأن لا أطمأن لكائن ما، أن لم أكن على صلة متينة به. خلال تلك الأيام كشف لي عن النفس المريضة الأمارة بالسوء، تلك التي تعشعش في داخله دون أن يصون كرامته - المثل يقول "الصديق وقت الضيق"، ومعدن الأنسان الحقيقي يبان في المحك، في أوقات الشدة والسفر، إلا أن عناصره الكيميائية كانت فاسدة أغشت نظري، فلم تؤثر بورق عباد الشمس لمعرفة معدنه قط.

خلال إقامتنا القصيرة في أثينا، استأجرت غرفة في فندق "ليدو" الشعبي، الواقع في أحد الشوارع الفرعية المؤدية إلى ساحة أمونيا، بمقابل 40 يورو للغرفة التي تضم سريرين. كان الفندق محاطًا بزحمة الأسواق وباعة الأرصفة والباعة المتجولين، بينما كان يواجهه نادٍ ليلي يقع في شارع عرضي يصل بين شارعين رئيسيين. وعلى بُعد نحو مئة متر من الفندق، يوجد مطعم كباب عراقي ومقهى يديرهما رجل مصري.

في اليومين اللذين قضيناهما هناك، تجولنا في الأسواق، اشترينا حاجياتنا، وابتعنا حقيبتي سفر وبعض الملابس وحذاءً مطريًا، لنبعث الحياة من جديد في أنفسنا بعد أن تخلصنا من ملابسنا القديمة التي أنهكها الطريق. كنّا نخرج من الفندق قرابة الساعة العاشرة صباحًا، ونعود بعد الظهر، حوالى الثانية أو الثالثة، لنتناول وجبة الغداء في المطعم العراقي، ثم نرجع بهدوء إلى الفندق.

كان لي طقس يومي خاص: أجلس في الشرفة المطلة على واجهة الملهى والشارع الجانبي بين الثالثة والخامسة مساءً، أراقب حركة الناس والصخب المتصاعد من المكان، ثم نخرج في وقت الأصيل لنكتشف أماكن جديدة حتى ما بعد الغروب. بعدها نعود مجددًا إلى المطعم نفسه لتناول العشاء، ثم أرجع إلى ذات الشرفة لأستمتع بمشهد الأضواء الفسفورية المنبعثة من الملهى وسط أجواء راقصة تعج بالأغاني الصاخبة.

كنا نحرص على العودة المبكرة خوفًا من التأخر والتعرض لما لا تحمد عقباه في مدينة لا نعرف خفاياها بعد؛ كأن نصادف مجرمين أو لصوصًا، خاصةً وأننا لا نفقه شيئًا من اللغة اليونانية، ولا نعلم الكثير عن الأوضاع الأمنية فيها.

جلوسي الطويل في الشرفة منحني نافذة مفتوحة على مشهد الشارع وتحولاته اليومية؛ الناس المارة، الداخلون والخارجون من الملهى، بين سُكارى ومشعوذين وشحّاذين وباعة متجولين.

على بعد نحو مئة متر من جهته اليسرى للملهى كانت تقف حاويتا قمامة متراصتان عند حافة الرصيف. كانوا عمال النظافة التابعون للبلدية يفرغونهما صباحًا مع بدء ساعات العمل، غير أنهما تمتلئان من جديد قبيل غروب الشمس، كما لاحظت خلال يومين من المتابعة.

في ذات المشهد، يظهر شحّاذان بغرابة لافتة، وكأنهما موظفان في دائرة مختصّة بنبش النفايات ورميها في الشارع. يتجولان في الأزقة، لا يتركان حاوية إلا بعد يجردوها من محتواها بتمزيق أكياسها وبعثرة محتوياتها على الأرصفة والشوارع، فتتّسع رقعة القمامة حول الحاويتين كما تتسع بقعة نفط تسربت فجأة من خزان.

كان أحدهما ضخم البنية، تتدلى من وجهه لحية حمراء كثّة، والآخر هزيل، كأن التعب قد استوطن جسده وملامحه حتى بات جزءًا منه. ومن خلال مراقبتي لهما، بدا جليًا أنهما يبحثان عن أي شيء يُؤكل أو يُلبس، مهما كانت فائدته ضئيلة، أو عن تحفة قابلة للبيع، أو حذاء مهترئ، أو ما يشبه ذلك من فتات الحياة.

شاهدت أحدهما ينزل داخل الحاوية، ينبش أكياس النفايات، يمزّقها وينثر محتوياتها خارجها، فتنقل الريح عفن القمامة إلى مسافات أبعد، ويغدو المشهد منفرًا لا يُحتمل، لما يحمله من بشاعة وشذوذ.

عثـر صــاحب اللحيـة علــى حـذاء رياضــي وقمـيص أبـيض، أمـا الآخـر فوجـد فسـتانًا نسـائيًّا بنفسـجي اللـون ومعطفًـا رجاليًّـا بنيًّـا مثقوبًـا مـن تحـت الإبـط. ارتـدى المعطـف ورمـى الفسـتان، وجمـع كـلٌ منهمـا غنيمتـه تحـت إبطـه، ثـم توجهـا لنـبش الحاويـة التاليـة بنفس الطريقة.

الفقـر، هـذا الوجـه المـؤلم، يتفشّـى فـي الكثيـر مـن البلـدان، وفـي بلـدي مـن يعـيش نفـرا علـى فتـات المزابـل رغـم وفـرة الخيـرات. غيـر أن السياسـيين، يلهثـون خلـف البهرجـة ويغفلـون عـن وجـع الشعب وضعفه...

هـذان المعتوهـان كأنهمـا رفيقـان فـي السـكن والمعيشـة، فـي اليـوم التــالي كــان المتسـول النحيـف قـد عثـر علـى كـيس فاكهـة تفـاح، صـار يتفكـه منـه ويضـيِّف صـاحبه. حينهـا شـعرت بمأسـاتهما فـي الوقــت الــذي عطفــت روحــي علــى عمــال النظافــة المســاكين، الـذين كـانوا يعـانون كثيـرا مـن تصـرفات هـذين المعتـوهين فـي تنظيـف الأمكنـة، حيـث بعـد أن ينبشـان الحـاويتين يتركـان المكـان على ما هو عليه في منظر بشع مقزز..

حـين همـدت الشـمس واسـتحال الشـارع ظـلًا للضوضـاء، جلسـت أرقـب المسـرح العشـوائي أمـام الملهـى. كانـت ليلـة ترتجـف علـى إيقاع السكر والضوء.

أجســادٌ مترنحــة، ضــحكاتٌ لا تعـرف المعنــى، شــهواتٌ تتسـكع علـى الأرصـفة بـلا وجـل. امـرأة أسـكرتها الرغبـة قبـل الكحـول، تهـاوت علـى صـدر البـائع الخجـول تطلـب مـن الحيـاة مـا لا يبـاح،

وفتــاةٌ أخــرى تســتند إلــى رفيــق يتمايــل كأنــه جــزء مــن صــخب المدينة.

راقصــةٌ وحيــدة تــرقص للهــواء، تــوزع ابتســامتها كنشــوةٍ عاجلــة، وأخــرى تغنــي وتكشــف صــدرها للعتمــة، بينمــا رفيقهــا يحــاول ســتر مــا لا يُســتر، قبــل أن يســقط ويضــحك علــى فوضــاه. كلهــم كــانوا هنــاك، نجومًــا فــي عــرضٍ لا مخــرج لــه، والموســيقى تتأرجح كأنها قلبٌ ينبض بما تبقى من الليل.

أمــا أنــا، فقــد كنــت مجــرد شــاهدٍ يبتســم خلــف كــأس المــاء... أضــحك، لا علــى أحــد، بــل علــى الحيــاة حــين ترتــدي قنــاع الهــزل المفرط.

مــع الغــروب ومــا بعــده، تحــوّل الشــارع أمــام الملهــى إلــى مســرحٍ فوضــوي يضــج بالحركــة والانفعــالات. كنــت أجلــس مســتمتعًا بمراقبــة الــداخلين والخــارجين، أرقــب جوقــة الســكارى وهــم يترنحــون فــي مشــيتهم، نســاءً ورجــالاً، كــلٌ مــنهم يعكــس ملامــح الليل بطريقته.

إحــدى النســاء، وقــد أنهكهــا الشــراب، باتــت تشــاكس بائعــا متجــولا يفتــرش الأرض، تترجّــاه بمــا لــم يكــن مألوفًــا، تغــازل، تقبّــل، وتجلــس فــي حضــنه، ســاقاها ممــدودتان أمامــه، تدفعــه بمشاكســة وهــو يحــاول صــدها حيــاءً، تتكــرر محاولاتهــا حتــى ضاق بها ثم تحول من مكانه.

بينما خرجت امرأة أخرى، لا تكاد قدماها ترفعان جسدها، تتعلّق برقبة رفيقها المتمايل بدوره، يضحكان معًا على عثراتهما، كأنما السكر أطفأ الشعور وتوهّج بالهزل.

وفي زاوية أخرى، كانت شابة رشيقة ترقص في وسط الشارع على أنغام الموسيقى الصاخبة، ترسل ابتساماتها للمارة كأنها توزّع فرحًا مؤقتًا.

ثم ظهرت أخرى بصحبة رجل يترنح يدور حول نفسه كمصراع الريح، لم يكن قادرًا حتى على الثبات. سقط أرضًا ثم لفرط الضحك سقطت فوقه. جلسا في وسط الشارع يضحكان على بعضهما. مشاهد غريبة مفعمة بالطرافة والعشوائية، اختلط فيها الهزل بالعجز، والرقص بالانهيار، فيما الموسيقى تظل تصدح حتى بعد منتصف الليل، ثم تخفت شيئًا فشيئًا لتصبح نغمة داخلية لتبقى لساعة إضافية من السكون.

وفي تلك الأثناء، كنت أرتشف الماء البارد، أبتسم بذهول وأنا أراقب امرأة أنهكها السكر، تتمايل تدور في مكانها دون أن تتحكم بذاتها، كأن جسدها يرقص بلا وعي... لحظات لا تُنسى من مسرح الحياة الليلي.

لا أدري أين تكمن تلك المتعة وهم يصرفون عليها اموالهم وكرامتهم، بعد أن يفتقد الشخص قيافته وعقله واحترامه وشخصيته وهو متسكع في الطرقات. أحيانا يسقط أرضا، يتمرغ في الوحل والتراب وهو لا يعرف طريقه....

حين يقبلون على الملهى، يأتون في كامل أناقتهم، يختالون بثيابهم، كأنهم في عرضٍ لا يُغفل عنه الجمال. لكن حين يخرجون، يغادرون بذات بالية، كسيفة، بملابس مهلهلة، بلا قيافة ولا وقار.

أهجس بالإنسان حين يسقط خلف رجاء السكر، وراء تلك الروائح العطنة الطاعنة، يخسر ذاته، ويهدر قدره وهيبته ووقته، مقابل نشوة عابرة وسخطٍ متراكم من الناس من حوله. فالمهانة التي يتعرض لها، ليست مجرد لحظة تائهة، بل صفعة تطال شخصيته ومكانته بين الآخرين. إنها الطامة الكبرى، تلك التي لا يدركها إلا بعد فوات الأوان، حين تبهت المرايا في وجهه، ويجد نفسه صغيرًا أمام ذاته أولًا، ثم أمام المجتمع.

وفي زاوية من الشارع، تحت الملهى ذاته، كانت هناك امرأة بدينة تفرش بساطًا، تضع عليه ملابس نسائية، بعضها جديد وبعضها مستعمل، تبيع لتعتاش. إلى جوارها يقف رجل عجوز، يبسّط أمامه شيئًا من القرطاسية ولعب الأطفال.

في تلك الزاوية، وجدت ما يستحق الاحترام حقًا: كرامة الإنسان حين يُكافح بالممكن، لا حين ينهار خلف المتاح. احترامٌ لتلك المرأة وهذا العجوز، اللذين حرثا بأيديهم الطريق نحو لقمة عيش تُؤكل بكرامة، لا يُهدر لأجلها الوقار.

كانوا الباعة المتجولون ينتشرون على أرصفة الشارع من بعد الثالثة عصرا، بعد أن تنتهي فترة الملاحقة القانونية من

قبل دائرة البلدية لهم. شيء جيد وذات قيمة ثمينة أن يعتمد الإنسان على مجهوده البدني وفكره النير في كسب رزقه، وأن كانت الأرباح شحيحة..

الشارع الذي كنت أسكن فيه كان مفعمًا بالحركة، لا يختص ببضاعة بعينها، بل هو شارع منوّع وحيوي، تجد فيه كل ما يروق للسائح والمسافر، رغم بساطته. يضم محلًا للألبان، وآخر للحوم، ومتجرًا للملابس الجاهزة، ومحلًا لبيع الخمر، ومطاعم سريعة، ومحلًا للأحذية، وآخر للخضار، بالإضافة إلى متجر للأدوات الكهربائية، وصيدلية، وإسكافي وحلاق. إنه شارع نابض بالحياة، يكاد يحتوي على كل ما يحتاجه المرء، إلا ما ندر. أما الأسعار، فكانت في متناول اليد، أرخص من مثيلاتها في أماكن أخرى، ولهذا كان دائمًا مزدحمًا بالمارة.

أكثر ما كان يعجبني في هذا الشارع هو محل الألبان. كنت أعشق الخاثر، ذلك اللبن الذي يعلوه سطح طبقة من القشطة الصفراء تريق الفم وتغري الذائقة. كنا نفطر منه خلال إقامتنا في الفندق مع قدح شاي عراقي. كانت إدارة الفندق عراقية خالصة، إذ أن أصحابه هاجروا إبان الحرب العراقية الإيرانية، حاملين معهم نكهة الوطن ودفء الذكريات.

ينتهي هذا الشارع بمقهى يديرها أحد الأخوة المصريين تحتوي على قوارير الشيشة وطاولة النرد والشطرنج، كنت اجلس فيها لساعة قبل أن تغرب الشمس، نريح بها أقدامنا من

مكوكيـة التجـوال فـي شـوارع أثنـا، تعرفنـا علـى صـاحبها بسـهولة كونه يتكلم لغتنا.

خـلال إقامتنـا فـي الفنـدق، تعرفـت علـى شـاب عراقـي يحمـل الجنسـية السـويدية. كـان يـدّعي أنـه صـديق المهـرب الـذي تـولّى أمـر عبورنـا البحـر المـدعو أبـو علـي. عـرض علـيّ إمكانيـة نقلنـا إلـى السـويد عبـر مطـار أثينـا باسـتخدام جـوازات سـفر مـزورة، مقابل سبعة آلاف يورو للشخص الواحد.

منـذ اللحظـة الأولـى، لمسـت جشـع النصـابين يـدورون حولنـا كاليعاسـيب، ذلـك النـوع مـن البشـر الـذي يصـطاد فـي الميـاه العكـرة، مسـتغلًا ضـعف الآخـرين وحـاجتهم. كـان يعلـم أن ابنـي مريضـا بالسـكري، ويعـرف تمامًـا أن المهـاجرين لا يملكـون مثـل هـذه المبـالغ، ومـع ذلـك لـم يتـردد فـي محاولـة ابتزازنـا. كشـف لـي حجـم الطمـع الكـامن فـي نفـوس هـؤلاء المجـرمين، وجعلني أمقت هذه الحالة من الاستغلال البشع.

قـررت أن أتـرك هـذا الطريـق، وتوجهـت إلـى مـأرب البـاص، فالوصـول إلـى النمسـا بـات ممكنًـا. الحـدود فُتحـت علـى مصـراعيها بعـد فاجعـة غـرق الطفـل السـوري إيـلان فـي بحـر إيجـة، تلـك الصـورة التـي هـزّت ضـمير العـالم. لـم أفكـر فـي اقتحـام الطريـق إلا حـين أصـبح سـالكًا، أمـا مـن سـبقونا، فقـد عـانوا الأمـرّين، مشـوا فـي الغابـات، وتجنبـوا الحـرس الحـدودي، متنقلين من دولة إلى أخرى في رحلة محفوفة بالخطر.

كنت قد اتفقت مع أبني بأن نرتاح في أثنا ليومين، لننفض عن اجسادنا كلل الطريق وعبور البحر، ثم نغادر مع الناس العابرة برواق. منذ طفولتي كنت أتشوق لرؤية أثنا، لما قرأنا عن تأريخها وفلاسفتها الكثير والكثير، كأرسطو وسقراط وطاليس، وعن المدينة الفاضلة لأفلاطون....الخ، ذاك ما دعاني أن أتأخر فيها لأخرج قيء الحسرة التي عانيت منها آنفا، لذا بعد أن قضينا بها ليلتين ونحن نتجول في مرافقها؛ أخبرت مدير الفندق بخروجنا.

ما أن أغشانا الغروب بظلاله حتى تركت الفندق بعد أن تعشينا عشاءنا الأخير في مطعم الكباب العراقي. توجهت لمكتب الحجز الذي حجزنا منه رحلتنا مع لفيف من المهاجرين بأجرة 70 يورو للفرد...

كنا قد هيّأنا أنفسنا، أنا وابني، بكل ما نملك من عزيمة. وحين وصلنا إلى المكتب، وجدناه يعج بالمهاجرين المنتظرين داخله وعلى الرصيف، فسيفساء بشرية من جنسيات متعددة: عراقيون، سوريون، أفغان، أفارقة، عرب، وآسيويون من جنوب شرق القارة. كان المشهد مزيجًا من الترقب والتعب، وكلٌ يحمل حلمًا مؤجلًا.

وما إن توقفت الحافلة حتى صعدنا إليها، ووطئنا مقاعدنا المريحة بسهولة. تحركت الحافلة قرابة التاسعة مساءً، وغرقنا سريعًا في سبات طويل، إذ أن الظلمة الحالكة أغلقت أبواب المتعة بمشاهدة معالم اليونان التي كنا نمر بها.

ومع بزوغ الفجر، وصلنا إلى حدود مقدونيا الزراعية. هناك، بدأنا نعاني من برد الصباح القارص، حيث لم تسمح لنا القوات المقدونية بدخول أراضيها بسبب الزخم الكبير الذي خلفته الوجبات البشرية التي سبقتنا. انتظرنا على الحدود قرابة ساعتين، حتى جاء الأمر بالسماح لنا بالعبور، فتنفسنا الصعداء، ومضينا في طريقنا نحو المجهول الذي نحمله في قلوبنا.

*****

مقدونيا

سمح لنا بالتحرك ودخول أراضي مقدونيا قرابة الساعة التاسعة صباحا، سرنا بمحاذات سكة قطار وبحدود كيلو متر أو يزيد في أرض غسلتها الأمطار قبل ليلة من وصولنا. ليلة واحدة كانت كافية لتهطل السماء بما يكفي لغسل الأرض من شوائب الطريق، ولتفتح أبواب الريح على عبير العشب المبلل، والطين الحي ونشوة الصباح الندي. حين وطئنا تلك التربة الرخوة، بدا أن الوقت توقف عند رائحة العشب الزكية، حيث كل خطوة على الأرض تحمل عبقًا يختلف من مكان بعيد.

سرنا لأكثر من نصف ساعة بمحاذاة سكة الحديد، كأننا نلاحق أثر قطار لم يمر من هنا منذ زمن بعيد. متخطين البرك المائية في المنخفضات ونحن نحاول أن نسير فوق الحصى الناعم لنتجاوز طينة الارض، حتى تبدّى لنا المخيم التابع للأمم المتحدة والصليب الأحمر.

ألقينا حقائبنا في الزاوية كمن يفرغ همه في حضن مؤقت، جلسنا نتفكه ببرتقالة وتفاحة وكأننا نحتفل بيوم وصل لا يشبه سواه، ومعنا قارورة ماء وسندويشة جبن وزعت علينا مع أول ترحيب. كانت الوجبة بسيطة، لكنها اغنتنا عن حاجتنا، حيث تكمن في البساطة الحياة وفي الجبن مذاق حلم مؤجل.

داخل المخيم، راح العاملون يرتبون القادمين حسب القوائم، يفصلون بينهم وفق الجنسيات والفئات، كأنهم يجمعون

الشتات بحذر، محاولين قدر الإمكان أن يضعوا حاجزًا بين عروق الناس ومشاكل لون البشرة التي لا تعرف حدودًا.

آوتنا تلك الخيم لحد الساعة الواحدة ظهرا، بعدها جدولوا أسامينا في قوائم خاصة من خمسين شخص للقائمة الواحدة، وضعوا العراب في قائمة والفرس والافغان في قائمة والأفارقة في قائمة وجنوب شرق اسيا في قائمة.. لتجنب التعصب والمشاحنات والعنصرية. بعدها سرنا كمجموعات في مواكب متجهين إلى موقف القطار الذي يبعد مسافة كيلومترين عن المخيم لتبدأ من هناك الرحلة لغاية حدود صربيا.

في تلك النقطة تعرفنا على بعض منتسبي القوات المقدونية المرابطة هناك لتنظيم تجمعات المهاجرين. كانت هناك عجلتا زيل لنقل المشاة ومدرعتان وعجلة قيادة كلها روسية الصنع، كان أحد منتسبي القوة المتواجدة هناك يتكلم العربية بطلاقه، وحين سألته عن أصله أن كان عربيا، قال:..

- لا.. لقد عشت عشرة سنوات في الكويت كنت أعمل كرجل أمن في أحدى المولات.

سألت زميله الذي كان أول من أستقبلنا ورحب بنا- كان برتبة ملازم، عرفته بنفسي- ثم سألته عن حالة بلده وقدراتهم المعيشية. حاورته بالإنجليزية. فأجاب:..

- دولتنا فقيرة جدا، تعتمد على الزراعة، نكاد نعيش بالكفاف، مرتبي الشهري يعادل 200 يورو في الشهر...

حينها خاطبت ذاتي قائلا:.....

بلادي غنية زاخرة بالنعم - ولم تفسد الا بالشر الأثيم

فاقت الدنيا القا بسحرها- واليوم يرونها أجزاء وأقاليم

أفسد المسؤولون علينا الحياة، فعاثوا الفساد في البلاد، وعبثوا بخيرات الوطن ومنشآته. سرقوا ما سرقوا، ونهبوا ما نهبوا، حتى انتفخت بطونهم من التخمة. أسرفوا في الطغيان حتى فرّت الرحمة، وخلعت جلدها الرأفة، تكاد الوحوش تكون أرحم منهم، فهي إن شبعتْ تكف عن الصيد، أما هم فلا يشبعون أبدًا.

انتظرنا في تلك النقطة قرابة أربع ساعات، لكثرة الوجبات التي سبقتنا، افترشنا الأرض على شكل صفوف من ستة خطوط، يتجاوز طول كل صف مئتي متر. تراصّت الأجساد وكأنها خيوط بشرية متعبة، تتوق لعبور الحلم وسط واقعٍ متهالك.

مفارقة قاسية: أن يكون سوء حظ البعض مفتاح رحمة لآخرين. حين غرق الطفل السوري إيلان في بحر إيجة، التُقطت صورته لتغزو العالم، فهزّت القلوب وحرّكت الضمائر، وانفتحت أبوابٌ كانت موصدة أمام المهاجرين. قبل

تلك الحادثة، كانت القوافل البشرية تقطع أكثر من ألفي كيلومتر سيرًا على الأقدام، تتوغل في الغابات هربًا من مطاردات الشرطة. يعيشون هناك من أسبوعين إلى شهر، يتنفسون خوفًا ويقتاتون على الصبر، حتى يصلوا إلى مبتغاهم.

من ناحية أخرى شعرت بالقطار الذي يعمل بين جنوب البلاد وشماله وهو ينقل المهاجرين قد كلَّ وأجهد؛ نتيجة حركته الدؤوبة ذهابا وإيابا، كلَّ بتنقلاته المكوكية بين حدود اليونان وحدود صربيا، حيث كان في كل وجبة ينقل ما يعادل الف شخص، حتى قارب عددنا في حدود صربيا قرابة الفي مهاجر.

خلال فترة الانتظار صار أحد الحراس يمر علينا، يمازحنا، يسأل عن أصل انتماءاتنا.. معظم المهاجرين كانوا من السوريين والأفغان وعددا قليلا من العراقيين والأفارقة. وحين أدرك أحد الزنوج الذي كان يتوسط مجموعة من السوريين ذو البشرة البيضاء والعيون الصفر والزرق، قال له...

- إياك تقول أنك من سوريا فلن أصدقك..هههههه. صار يمزح معه لشدة سماره.
- لالا أنا من موزمبيق، ههههههه.

حينها ضحكنا جميعا...

خـلال انتظارنـا عـودة القطـار، تعـرف أبنـي علـى فَتـا عراقيـا يكبـره سنتين يـدعى ياسـر، هـذا الفتـى كـان وحيدا، لا يحمـل فـي جيبـه أيـة نقـود، ولا أعلـم كيـف سـمحوا لـه أهلـه مـن أن يهـاجر لوحـده بهـذا العمـر، كمـا أنـه لـم يوضـح لنـا الأسـباب التـي دعتـه للهجـرة، لكنــه أدعــى بأنــه أفتقـد والديــه بـدخول داعـش لمحافظـة صـلاح الـدين.. هـذا الفتـى كـان يلاحقـوه مجموعـة مـن الشـباب السـوري، طالبينــه دفـع مبلـغ 20 دولار عـن أجـرة نقـل سـابقة دفعـت بـدلا عنـه، لكنـه كـان لا يملـك نقـودا، فحـاول التخفـي عـن أنظـارهم فأنـدس بيننـا، رافـق أبنـي، احتمـى بـي.. فطمأنتـه وقلـت له:...

- لا بـأس يـا ياسـر، تعـال قـف إلـى جـانبي فلـن يتقربـوا منك، وأن طالبوك بالمبلغ سأدفعها عنك، لا تهتم.

بقـي ملاصـقا لنـا كطيـر وجـد رفيقـه، تسـليا معـا، مرحـان معـا، كنــت أهجــس بهمــا كمــلا بعضــهما الــبعض. كــان شــابا نشــطا، لطيفا، لازال زغب لحاه وشاربه في بدايته.

وحـين جـاء دورنـا فـي ركـوب القطـار، اكتشـفنا أن العربـات قـد امـتلأت عـن آخرهـا. فلـم يكـن أمامنـا سـوى أن نجلـس فـي الممـر الضــيق الــذي يصــل بــين الغــرف، وكأننــا حُشــرنا فــي شــريانٍ مسـدودٍ مـن قلـب قطـارٍ مثقـل بـالألم. لـم يُسـمح لنـا بالصـعود إلا بعــد أن دفعنــا ثمــن الضــعف واليــأس: ابتــزاز صــارخ، خمســة وعشـرون يـورو عـن كـل شـخص، فـدفعت خمسـة وسـبعين عنـي وعن ابني وعن ياسر.

بركوبنـا القطـار، شـطبنا اسـم مقـدونيا مـن سـجل الرحلـة، لا لأننـا اجتزناهـا براحـة، بـل لأننـا مررنـا بهـا كمـن يعبرهـا مختنقًـا، مسـلوبًا، مشـلول الحركـة. جلسـنا تحـت أحـد النوافـذ، متلاصـقين كأسـرى حـرب، لا يملكـون مـن أمـرهم شـيئًا، قطعنـا المسـافة الطويلـة التـي تسـتغرق أربـع سـاعات مجبـرين علـى تحمـل الوضـع. تسلل الخـدر إلـى سـاقي، كـأن الـدماء مـا عـادت تجـري فـي شـرايينها، وتمـردت أطرافـي مـن طـول الجلـوس بوضـعية خاطئـة، كنـا مجبـرين علـى ثنـي الركـب، لضـيق المسـاحة التـي تقـدر بنصـف متـر. لا متّسـع لتمديـد السـاقين، ولا راحـة فـي الجسـد، وبـين هـذا كلـه، أصـبحنا جسـورًا بشـرية يمـر فوقهـا المـارقون مـن اليمـين إلـى الشـمال وبـالعكس دون أن يكتـرث أحـد لمعاناتنا.

صـرت أريـح ذاتـي بـالوقوف تـارة وبـالجلوس تـارة.. مـا زادنـي إرهاقـا وتعبـا هـو نـوم أبنـي الـذي نَحِلَـتْ قـواه نتيجـة الإرهـاق الـذي شـاقنا، واضـعا رأسـه علـى كتفـي الأيمـن. بـت اتململ بـين الجلـوس والخـدر الـذي أصـاب سـاقيَّ، ومـداراة أبنـي فـي نومـه اطول فترة ممكنة.

أسـتمرت الرحلـة لأربعـة سـاعات مـن الـزمن، توقـف القطـار خلالهـا لمـرة واحـدة ولمـدة عشـرة دقـائق فـي مفـرق طـرق، لتفادي قطار القادم من جهة صربيا.

فـي صـباح خريفـي مشـمس كنـا ارتقينـا القطـار، كمـن يركـب القصـيدة. الأرض تمـدّ بسـاطها الأخضـر حتـى الأفـق، وتسـتعرض خُللهـا المتداخلـة مـن الصفصـاف، والصـنوبر،

والجوز، والأثل، تواكب خط السكة الحديد كما لو أنها تحتفي بالمارة. بعض الأغصان تمادت بخفة، مدّت أذرعها لتشاكس العربات وتخدشها، كأنها تود تذكير العربات بمودتها، تلوّح لوجوهنا، تستعير روح الريح لتلاطفنا. فصرنا نتجنب الوقوف عند النوافذ، خشيةً الخطر أن تصيب وجوهنا في غفلة من أمرنا.

كنا في مطلع الخريف، والفصول تتعانق على وجه الأرض. الخضرة تتخللها صفرة دافئة، وحمرة خجلى، ولون بنيٌ داكن يوشي الأطراف، وصفرة ملتاعة تزيد لمعانًا مع سطوع الشمس لتتحوّل المزارع إلى بساط فسيفسائي ممدود بلا نهاية. كأن الأرض تلبس حلة قوس قزح وتتمشى بها على أطراف الخيال. مزارع العنب، تلك المفروشة على السهل، تلبس ألوان الطيف وكأنّ الطبيعة نفسها رسمتها على استحياء مع خط سكة القطار، الألوان ممزوجة مع بعضها بعشوائية وبشفافية، تزداد لمعة مع ضوء الشمس، قلما نجد لها صورا شبيهة في بلداننا الصحراوية.

كثير ما أعجبتني هندسة مزارع العنب المائجة بأطياف الخريف وطيبة الأرض وزرقة السماء، أنها لوحة جذابة، فسيفسائية، بديعة، أبدعت بها يد الأنسان التي وضبت الطبيعة بشكل هندسي جذاب، فيما وضع الخالق من نفحة روحه بهجة بها، فبدت تشرق بكل صفاتها الجميلة. تجملها عناقيد الكروم الخضلة، وهي معلقة بأغصانها كقلائد على اختلاف أنواعها وألوانها.

ما أن توقف القطار في المفرق؛ حتى هجموا المهاجرين على المزارع، قطفوا العناقيد الدانية القريبة منهم، المزارع شاسعة لا أحد يستطيع حراستها، كأنها مزارع تابعة للدولة، بعرض 300 م وطول مئات الكيلومترات، ممتدة مع امتداد سكة القطار من حدود اليونان لحدود صربيا.

كنا قد أدركنا حدود صربيا مع غروب الشمس، توقف القطار على بعد 2 كم. ترجلنا من القطار، قطعنا المسافة في أرض مبتلة، لزجة، إلا أنها كانت أكثر صلابة من حقل الذرى التركي.. أدركنا مخيمٍا كان قد خصص لنا يبعد عن حدود مدينة صربية حدودية مسافة أربعة كيلومترات. المخيم يقع في أرض مرتفعة، يمر بها واد منخفض على بعد 300 متر من المخيم، يحيط به شريط من أشجار الصنوبر والصفصاف والأثل من كلا الجانبين، قطنا ليلتنا تلك في ذلك المخيم.

كان المخيم عبارة عن عشرات الخيم مصفوفة جنب بعضها البعض، في أرض قاحلة تتخللها بعض الشجيرات البرية المتناثرة بشكل عشوائي هنا وهناك. كل خيمة كانت مخصصة لتأوي ثلاثين فردا من أعداد المهاجرين.

*****

صربيا

دخلنا المخيم مع ولوج الغسق في الأفق، مع كثافة دخان الحلكة الذي حجب نور الشمس. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساءً حين توزعنا على الخيام المتراصة، محملين بأعبائنا المنهكة. أرضية تلك الخيام كانت مفروشة بكراتين ممزق مشبع بالرطوبة والبرد، وقد بلغت من الانحلال حد الذوبان في الطين.... سحبنا أمتعتنا بأجساد منهكة، أحدنا بدا كالبغل المتعب، خانته العزيمة، باحثًا عن مأوى يقيه عناء الساعات القادمة.

وما إن دخلنا، حتى انشغلنا بترتيب أوضاعنا، نحاول جمع كراتين إضافية نرصها تحت أجسادنا، فوق ذاك المهترئ الرطب من الكراتين، علّه يلين قسوة الأرض ويواسي أجسادنا في نوم مضطرب.... لكننا لم نفلح؛ كنّا كمن يبحث عن المستحيل في جوف مغارة مظلمة، لم نجد سوى تلك التي هرئها المطر، وأثقلتها الرطوبة، فصرنا نعاني من البرد وشدة الطقس في ليلة قاسية لا ترحم، هي الأقسى التي مرت على عمري.

في الوقت الذي كنت منشغلا في ترتيب موضعنا كانت الخيمة الرئيسية توزع بطاطين على المهاجرين دون أن نعلم، لم يحالفنا الحظ بالحصول على واحدة منها، لجشع البعض الذي يريد أن يستحوذ على كل شيء، الفوضى التي حصلت خلال

التوزيع منعت الكثير من الوصول لتلك المؤن... لكن ياسر أفلح في الحصول على واحدة.

تلك الليلة كانت ليلة ليلاء بالنسبة لي، عانيت بها من صعوبات جمة تكورت بغل لتتحف ذاتي بها، جارت عليَّ، اختارت صحبتي دون آخرين؛ حيث تخلل الصقيع إلى فج العظام، ورطوبةٍ تتسلل بصمت إلى أعماق الجسد. بقيت الوب في موضعي دون أن تغف جفوني لحظة واحدة، حاولت أن اسلك الوقت ونفسي دون جدوى، أحبطت عزيمتي، سحقت قدراتي، لم أحتمل جلد البرد وسقم الحالة وسأمها وتبرمها، افتقدت المقاومة تماما.

ولكن هذه المرة جاءت تزورني وحدي، اصطفَتني من بين الجميع، رافقتني بصحبةً من وجعٍ خالص. كأنها أرادت أن تروي حكايتها للذكرى من على مسرح جسدي المنهك، دون شهود سوى كراتين رطبة وملابسٍ لا تملك أن تؤازرني في محنتي. لم نحمل فرشا معنا، ولا نملك أكياس نايلون نغطي تلك الكراتين المستهلكة ليحجز الرطوبة عن اجسادنا.

جارت عليّ تلك الليلة، فلم أجد دفئًا إلا في أنفاسي، ولم أجد عزاءً في النجوم الخافية خلف السحب وهي تراقبني بصمت من بعيد. كل ما كان حولي ساهم في تشكيل مشهدٍ من القسوة: الأرض، الهواء، حتى الزمن نفسه بدا كأنه يسخر من محاولاتي البائسة لتمريره. تمنيت لو أنني أملك القدرة على اختصار الليل، أو على مدّ يدٍ من الذكرى تعيد لي لحافًا من الأمل القديم..... لكنني ما زلت هنا. وهذا البقاء، رغم كل

شيء، هو نوعٌ من المقاومة. حتى وإن كانت العزيمة محبطة، والقدرة مسحوقة، فالوجود بحد ذاته حكاية تستحق أن تُروى.

حين تخلّى عنّا المكان، لم يبقَ لنا سوى استخدام الكراتين التي استخدمت من قبل آخرين سبقونا. وجدناها ميتة، بلا روح، بلا دفء... مجرد هياكل من ورق مهترئ، متلبدة برطوبة الزمن، كأنها مناديل الحمام مستعملة. حاولنا أن نستنشق منها الأمل، فلم نجد فيها إلا العفن.

حين يأسنا من تغيير الحال، جعلنا حقائبنا وسائد تحت الرؤوس. لم تكن الوسائد رحيمة، لم تعيننا، كانت تحتوي على أشياء صلبة، إذ احتوت ما لا يحتمل قسوته الرأس: أقداحاً، زجاجة عطر، أحذية خشنة، ملاقط وسكاكين، وبعض الملابس الضرورية التي خانت اسمها... أشياء صلبة لا تنكسر، لكنها اضحت ذليلة لي كوسادة. جعلتها تحت رأسي كأنّيَ اتوسد حجارة.

كنا في أمسِّ الحاجة إلى نومٍ يحررنا من ربقة الكرب، لنتهيّأ لرحلة مجهولة المدى، لا نعلم ما تحمله من صعوبات. غير أن البرد والتعب التصقا بأجسادنا، لا يفارقانا، ينهشان الراحة منّا، وخصوصاً ما عشناه خلال أربع ساعات من الاهتزاز المتواصل داخل ممر ضيق في عربات القطار ونحن منحنين على أنفسنا. لم تذق أجسادنا طعم الراحة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ليلة قضيناها على مقاعد الحافلة أثناء تنقلنا من أثينا لحدود مقدونيا، وكأنَّ القدر ألقى بسهمه الثقيل على أبداننا، وأصابها بالإرهاق والكدر.

توقنـــا إلـــى غفـــوة تغســـل عنّـــا عنـــاء الســـاعات الماضـــية، كـــان النعـــاس يـــراود عيوننـــا بخفـــة، يتســـلل نحـــو الحـــدقات، يخطـــف الجفـــون، يرهـــق الـــذهن بثقلـــه ويضـــني الـــنفس بجســـامة المنـــون. تفشّـــى الأرق فـــي كـــل خلايانـــا، رأســـي صـــار أثقـــل ممـــا أحتمـــل، حتـــى بـــات التفكيـــر بذاتـــه صـــورة مـــن صـــور الإنهـــاك، تهكمـــت النفس وتيبّست العضلات، واستبدّ بنا التعب استبداداً.

بمجـــرد أن ملأنـــا بطوننـــا بسانـدويشـــات الجـــبن الموزعـــة علينـــا، تســـرّب الخـــدر إلـــى أجســـادنا كســـمّ هـــادئ. استســـلمنا لعبثيـــة الجلـــوس والســـهر، عنـــدها ارتمـــى ياســـر بجـــوار أبنـــي وتغطيـــا بتلـــك البطانيـــة الوحيـــدة التـــي حالفهمـــا الحـــظ بالحصـــول عليهـــا. غرقـــا فـــي ســـبات عميـــق، لـــم يســـتفيقا إلا حـــين بـــدأت خيـــوط الشـــمس تتسلق سلالم الصبح عند السابعة تمامًا.

أمـــا أنـــا، فبقيـــت فـــي العـــراء لا بقعـــة تحتـــويني، ولا غطـــاء يحمينـــي مـــن لســـعات عقـــارب البـــرد. هـــاجمني البـــرد بشـــكل مســـفر، اجتـــاحني دون مقـــدمات، تســـلل مـــن كـــل فـــجّ فـــي اللثـــام والثيـــاب والأكـــر والكـــوات والثقـــوب المنتشـــرة فـــي الجـــدران والجســـد، فأغشـــتني الرجفـــة مـــن رأســـي حتـــى قـــدمي. عبثـــت بأوصـــالي، فكـــري، ومشـــاعري. بقـــي الفكـــر مشوشًـــا، يـــوبخني علـــى تهـــوري وتضـــوّري، بينمـــا أُقنعـــت جســـدي بجلســـة قرفصـــاء الأســـير، أســـتمع إلـــى شـــخير مهـــاجرين ضـــائعين، كـــأني مـــتهم يصـــارع عقابه بصمت وعجز.

بقيـــت أعـــاني سُـــهود الصـــمت ووجعـــه، فـــي ليلـــةٍ بـــدت الأطـــول فـــي حيـــاتي. حاولـــت عبثًـــا أن أرتـــب أمـــري بكرتونـــةٍ بائســـة ادحســـها

تحت الجسد، أو فسحة أرجئها بجانب أبني أحشر جسدي بها، دون أن أجد موطئ أزجُّ به جسدي، أو أضيف تلك الورقة المهترئة فوق ما فرشت تحت ظهري، دون جدوى... لا الكرتون أسعفني، ولا الجسد استجاب لألمي.

القشعريرة سرت في كياني ككهربة لازمت الجسد، لا استطيع تحمل دبابير البرد التي لسعتني حتى الفجر، الحالة غلبتني. عجز تفكيري عن فك طلاسم الكرب، فبقيت أصارع هجمات البرد حتى لاح وجه الفجر على استحياء، ذاك الذي دعوت في خاطري أن يأتي قبل أوانه، علّه ينتشلني من فج الرجفة.

رغم ارتدائي كنزة مطرية مبطنة بالفرو، لم تشفع لي... كان البرد قد تخلل كل شيء، كأنَّ لا ساتر فوق الجسد. شعرت به يتدفق من عروقي نحو قميصي، كموجٍ هادر يغشي وجه الشاطئ بزبدٍ مالحٍ لا يعرف الرحمة...

ما زاد الطين بلة سوى ذلك العصف القذر المنبعث من خوار الشخير المتحلّق في أرجاء الخيمة، صخبٌ يوشك أن يُقشعر منه ستار الليل ذاته. ذلك الفصيل الذي اتخذ الخيمة وطنًا معنا، جعل من فضاءها حضيرةً خنازير تئن بالقرف وتضجّ بالأنفاس الثقيلة، حتى غدت رغبة النوم طيفًا يفرّ مذعورًا عند اقترابها من حواجب الحلم.

كلما أوشكت على الغوص في نعاسٍ وديع، فرت تلك الرغبة أمام قرقرة الشخير الدائر من حولي، يُضاف إليها لسعات عناكب البرد التي تأبى الرحيل، تتسلل بخفة وتنهش ما تبقى

مـن دفـء أحتمــي بــه. أضـحى الزعيـق المقـرف كتعويـذةٍ لا شـفاء منهـا تـرطن فـي صـوان أذنـي، يُهـيّج الأحاسـيس ويبعثرهـا أمـام وجوم صقيع ملتف حول جسدي ككفنٍ من صمتٍ الموحش.

زادت لسـعات البـرد نتيجـة الرطوبـة اللزجـة، وعسعسـة النسـائم البـاردة الـدائرة فـي تلـك الأجـواء المظلمـة بحثـا عنـي. لـم أسـتطع أن اروض ذاتــي خــارج الخيمــة، ولا أن أمنحهــا فسـحة أمــان فــي داخلهــا. كنــت محتــارا، لا أعــرف كيــف أتصــرف، أهجــس بتوقف مجرى الدم في قنوات الفكر أمام قسر الحالة المربكة..

كــان البــرد خــارج الخيمــة زمهريريًــا، مهينًــا، يجلــد الوجــوه والأبــدان بلســعات نســائم مشــققة، كأنهــا زُفــرت مــن جــوف عاصـفة. اضـطررت إلــى مغـادرة الخيمــة، لا طلبًــا للراحــة، بــل فـرارًا مـن غطـيط الشـخير الـذي لا يفتـأ يتـردّد فـي صـوان أذنــيّ، كنـت أجـد النـوم ترياقـا لبـدني، لكنـه صـار ترفًـا لا يُطـال. أمـنح نفسـي دقـائق معـدودة مـن السـكون، لكـن النسـائم كانـت أقسـى مـن الغطـيط وهــي تُقرصــني بــلا رحمــة، فتــدفعني للعــودة أدراجــي إلى ذات الحالة المقرفة.

فــي خضــم هــذا المشــهد، لمحْــتُ عائلــة تلــوب خــارج خيمتهــا. أصــابها مــا أصــابني؛ إذ لـم يجـدوا فـي داخـل الخيمـة عـزاءً مـن البــرد ولا مــلاذًا مــن الضــجر. فاضــطروا إلــى خلــق متــنفسٍ جديدا، فأشعلوا النار هربًا من صقيعٍ يتسلل إلى العظام.

وقفـت معهـم أشـاركهم وأتسـلى بتلـك النـار البائسـة، وهـي تحـاول أن تزجــر البــرد بلطافتهــا، كأنهــا كانــت تصــارع موجــات

الرطوبة في الأعواد مثلنا. لم تستطع مقاومة جلده القاسي، ولا عبثه الذي تسلل بين شقوق اللحظات، لضعف طاقتها التي استندت إلى سيقان الحطب المبلل، الذي لم يَفِ بالغرض... لكنها حاولت، على استحياء، أن تُنصف أحوالنا بشيء من المقبولية.

كانت النار أشبه برفيقة عاجزة، نحاول أن نمدها بالحياة وهي تتلوى أمامنا كخيط هزيل لا تقاوم الصقيع الذي استوطن الأرض والنفوس. وخلال وقوفي بجوارهم، تشاركنا أحاديث جانبية، نهمس بالمصير القادم، نغزل من الغموض خيوطًا من الاحتمالات القادمة، ونسقي بعضها لبعض كأننا نزرع الأمل في تربةٍ بور.

دار الحديث حول الخطوة القادمة. كنا كمن يُدوّن خطة نجاة فوق رملٍ رخو لا تقاوم ريح فكرة جديدة، لكننا كنا نحاول ألا نسقط في فخ المجهول، نتشبث بالثقة كقشةٍ عائمة فوق ذاك الطوفان.

في تلك اللحظات، لم يكن البرد عدونا الوحيد، بل الخوف من ألا تكون هناك نار أخرى، من أن يموت الحوار من الصقيع، من أن نتحول إلى مجرد أشباح تراقب احتراق الخشب دون أن تحترق. كان للنسيم الدائر في الأجواء حكم القضاء، كان أعتى وأشد قوة من النار المستعرة بأعواد رخوة،

صارت الريح تجلدنا دون رحمة، تصفع الخيمة وتعبث بوجوهنا كما لو كانت تتشفى، فيما تحاول النار الباهتة تكفّ

سقمها وسخطها، تسعى جاهدة أن تجلد البرد كما يجلد الجلاد المعتدين على الحرامي الاسير القابع في دائرة الوحدة في لعبة طفولتنا القديمة.

تذكّرت كيف كنا نلعبها بدربونة المحلّة، كنا نضع الحرامي داخل مركز دائرة بقطر متر، وكان هناك شخص يحميه نسميه الجلاد، يمسك برأس حبل طوله مترين، طرفه الثاني يكون بيد الحرامي. مهمة الجلاد هو جلد كل من يحاول أن يعتدي على الحرامي، فيما المجموعة المحيطة بالدائرة تحاول النيل من الحرامي بغفلة من الجلاد، حيث إذا ما جلد الجلاد أحدا من المحيطين بالدائرة عندها يحرر الحرامي ويدخل ذلك الشخص المجلد الدائرة بدلا عنه.. صراخ الأطفال، حبل الجلاد يتراقص في يده وهو يدافع عن الحرامي... كنا نضحك رغم الوجع، وكأننا نروض الألم بلعبة! هكذا صارت النار تحاول جلد الطقس وأنا أستتر بها قدر الامكان. نحاول التسلل إلى دائرة الحماية دون أن تلسعنا الريح.

أضحى الطقس خصمًا عنيدًا، يعاكس توجهاتنا كما لو أنّه يسخر من عنادنا. هربت إلى دفء النار كطفل يركض نحو حضن أمّه، أتنقل بين وهجها وسخط الخيمة، ولم أجد مأوى يريح جسدي المتعب ولا فكري المشتت.

قضيت الليل متوسّدًا اليقظة، حريصًا ألا أوقظ ابني المنهك. نظرت إليه وهو غافٍ، محاط بعبق السفر وتعب الطريق. حاولت مرارًا أن أضع رأسي على طرف الحقيبة، لكن ما بها

مـن صــلابة كــان يشـبه غلظــة الأيــام التــي نمـر بهــا، يضعضــع رأسي ويسلبني ما تبقى من راحة.

حينهــا، ســحبت ذاتــي مكرهــا لأجلــس وســط النــائمين، كــالحرس المكلــف بحمــايتهم مــن عــالم لا يــرحم. كــان الشــخير يــدور فــي الأجـواء كثقـلٍ يضـغط علـى رأسـي، غطيطًـا يتسـلل إلـى فكـري المنهـــك، والفكـــر نفســـه مســـحوقٌ بعنـــاء الســـفر ومجهوليـــة المصـير. لـم يعـد جسـدي سـوى قمـيص للحيـرة، يتنقـل بـين الأمـل والندم، وبين همسات الريح وصفعاتها.

أصـبحت أتـنطط بـين الخيـام، لا بحثًـا عـن دفـء، بـل عـن إجابـة. تــارة أمضــي إلــى خيمــة الحــرس الصــربي، نســأل عــن وجهتنــا القادمــة وكيفيــة اجتيــاز أراضــي صــربيا، وأخــرى أغــوص فــي وحـل النـدم علـى تمسّـكي بقـرار المجازفـة. وكـأنّ الليـل نفسـه يرغب في أن أندم، أن أندثر، أن أذوب بين الأجوبة الناقصة.

هكـذا، دواليـك، قضـيت الليـل بـين الـرقص علـى وقـع وخيـزات البـرد، وبـين سـكرة النعـاس ومطـارق الشـخير المزعجـة. لـم يكـن لــي مــأوى، لا جســدي وجــد ســكينة، ولا رأســي قَبِــل وســادةً فيهــا طمأنينــــة. كنــــت حارسًــــا لأفكــــاري، محاصــــرًا بــــالخوف، أراقــبهم... كــأنني فــي مهمــة غيــر رســمية لحراســة الغفــوة مــن اليقظة.

ثــم، وفــي لحظــة تجلــي، رأفــت بنــا الشــمس... ظهــرت مــن وراء رمــاد الليــل كــأمّ رحيمــة، تمــدّ علينــا دفئهــا، وتعتــذر علــى مــا صـــنعه الليـــل بنـــا. صـــرت ألـــتمس خيـــوط الـــدفء وهـــي تـــزج

بالراحـة فـي أوتـار العصـب. مـع مـرور الـزمن تكثفـت أشـعة الشـمس، غـدت حرارتهـا تطـرد البـرد وتـزيح تشـنجات الجسـد، فيمـا أضـحت النسـائم أكثـر رقـة وحنينـا وهـي تميـد خـدود الأرض بملمسـها الحريـري.. لـم تـنم عينـي، لكننـي أخيـرًا، شـعرت أن الـزمن بـدأ يتهـادى، كـأنّ المشـهد كلـه كـان فصـلًا مـن لعبـة كبيـرة، والنار فيها جلادٌ يحمي آخر ذرةٍ من إنسانيتنا.

مـع عـودة الشـمس دب نشـاط زهـري فـي الـذهن والجسـد، بحيـث نفضـت عـن ذاتـي سـواد التعـب والرعشـة وعبـث السُـهد والأرق، اسـتعدتُ حيـويتي، تركـت الإرادة تتحـدى الظـرف وتطـوي هـواجس الكـدر والملـل اتبابـا لتخطـي المشـوار القـادم الـذي لا نعرف عنه شيئا..

كنـا قـد جهزنـا أنفسـنا للرحيـل، غيـر أن الحـرس الصـربي منـع الجمـع مـن الحركـة بحريـة، منفـذا أوامـر كانـت قـد وصـلته هاتفيـا مـن مسـؤول المدينـة التـي تبتعـد عنـا بمسـافة أربعـة كيلـومتر تقريبـا، بحجـة تجهيـز حـافلات خاصـة لتنقلنـا لمآربنـا، طلبـوا منـا التريـث لحـين وصـول محـافظ المنطقـة. والحقيقـة غيـر ذلـك، كـانوا متخـوفين مـن أن نحـدث أزمـة فـي أسـواقها وفوضـى فـي شوارعها.

طـال الانتظـار، وكـأن الـزمن تعمـد أن يبطـئ خطـاه أمـام أعيننـا المرهقـة. كنـا نحسـب خطـوات الرحلـة القادمـة بينمـا نحـاول الـتملص مـن الطـوق الـذي فرضـه الحـراس حولنـا. ومـع ازديـاد أعـدادنا وتضـاؤل قـدرتهم علـى ضـبط الأمـور، بـدا العجـز واضـحاً فـي ملامحهـم. فلـم يتجـاوز عـددهم عشـرة حـراس، فـي

مواجهة آلاف من المهاجرين المتكدسين في العراء، وقد نفد صبرهم وضاقت بهم السبل.

انتظرنا وصول الحافلات لساعات، ومع حلول الساعة العاشرة صباحاً بدأ اليأس يتسلل إلى النفوس، فالوقت يمضي ونحن نحتاجه بشدة، فما يزال أمامنا مشوار طويل نأمل أن نقطعه قبل حلول الظلام. الليل هنا يهبط قاسياً، حيث تنخفض درجات الحرارة لتثقل الخُطى وتخمد العزيمة.

الكل كان مستعداً منذ السادسة صباحاً، حتى الأطفال الذين بالكاد يدركون ما حولهم، لكنهم يعانون أكثر من غيرهم. توزعنا على مساحة شاسعة امتدت لأكثر من أربعمئة متر طولاً، حتى بات من الصعب على الحراس السيطرة أو حتى المتابعة. تسلّل البعض عبر ظلال الأشجار المحاذية للوادي، مستغلين الوهن في النظام متجهين صوب المدينة التي تبدو واضحة في الأفق، كطوق نجاة متأهب للغافلين.

في الوقت الذي حاولت فيه الشرطة تطويق نقاط التسرب، كان الجمع قد تدفق من جهات أخرى، فانهارت السيطرة وبدأ الحشد يزحف كدبيب النمل، ينتشر عبر المحاور بتصميم متماسك يحمل بين طياته أمل النجاة.

في تلك الأثناء وصل أحد المسؤولين، كان يود جمعنا ليقسمنا إلى مجاميع ليخفف الزخم الزاحف على المدينة، لكنه جاء متأخرا بعد فوات الأوان. أضحى الجري يشتط ويشتد فيضه بنا، كسيل جارف لا يمكن صده. صرنا نحف الخطى إلى

مرائب المدينة، كل يبغي أن يصل حدود المجر أو كرواتيا قبل غروب الشمس.

حسنا فعلنا بتجاوزنا خطوط النظام الذي أرادوه يكون سجنا إلينا والذي كان سيأخرنا طويلا، ربما يضيع اليوم بأكمله دون أن نتجاوز حدود صربيا. إضافة إلى الملل الذي كان سيدب بأوصالنا، وحالة الاشمئزاز والتقزز التي سترهقنا... كما أن مسألة تدبير انفسنا تكون أسرع بكثير من أمكانية اهتمامهم بعدد يفوق ألفين شخص دون تهيئة قطار ينقلنا كما فعلت مقدونيا.. لذا كان علينا تدارك أمرنا قبل أن يحل الظلام.

صرنا نجيش في الأرض كالدبيب، نحاول أن نجد باصا أو عجلة تنقلنا إلى المرأب، ذاك الموقف الذي يبعد قرابة اربعة كيلومترات جنوب المدينة. التعب أكل من أرواحنا، وانعكس على أعيننا كوشم غائر في وجوه متغضنة بالهم.

تحرك الجمع، وبدأ السباق يجري على قدم وساق نحو موقف العجلات. السائقون كانوا هناك، ينتظرون أفواج المهاجرين المنهكين...

تخيّلوا هذا المشهد: ألفا شخص يتدفقون صوب مرأب ضيّق لا يوجد فيه عشرون عجلة! حتى لو قسمناهم إلى مجموعات من خمسة، فلن تنقل أكثر من مئة شخص بأفضل الأحوال. فما بالكم بشرطة المرور التي تلاحق السواق المدنيين بسبب تجاوزاتهم على حقوق عجلات الاجرة، والعجلات أصلاً ليست تابعة للنقل العام... ببساطة، نحن بحاجة إلى أربعمئة

عجلـة تكســي علــى الأقـل... كــي نغـادر هـذا المــأزق، ونمضــي إلى حيث نستعيد شيئًا من اتزاننا.

لـذا تهافـت الجمـع إلـى المـراب، كـل يـود أن ينفـذ بجلـده، كنـا نــدرك بأننــا ماضــون لازمــة حقيقيــة....كنت وأبنــي وياســر قــد أدركنـــا الموقـــف مـــع أول المجموعـــات، بعـــد أن صـــرنا نســـابق بعضنا البعض بسعي. لـم نفلـح مـع ثـلاث أو أربعـة عجـلات التـي واجهتنـا لتأخرنـا عنهـا لــ ثـوانٍ فقـط. لكـن بعـد عنـاء؛ حالفنـا الحـظ مـع العجلـة الخامسـة، نقلتنـا إلـى المـرأب الرئيسـي بــ 30 يـورو، علما أجرتها خمسة يورو..

تـم الاتفـاق بشـكل سـري بعيـدا عـن أنظـار الشـرطة، وقـد سـرى بنـا بطـرق متعرجـة طينيـة وعـرة وبـأفرع جانبيـة كـي لا تترصـده شـبكة الشـرطة.. ومـن أجـل أن يصـل المـرأب الرئيسـي الـذي يقبـع خـارج المدينـة، كـان قـد جـازف بعجلتـه وسـار فـي حقـل زراعـي مشـبع بميـاه الأمطـار، ممـا أدى إلـى غـرز عجلاتهـا عـدة مـرات فـي الوحـل الطينـي، صـارت تشـفط غـرين الطـين وتنثـره خلفهـا لمسـافات، فلـم نـتمكن مـن الـتملص مـن غـرين الطـين إلا بأعجوبـة. المسـافة إلـى المـرأب علـى الطريـق المعبـد لا تأخـذ خمسة دقائق، لكنه قطع المسافة بمدة تتجاوز نصف ساعة...

بعـد أن أدركنـا المـرأب وجـدنا فيـه حـافلتين فقـط وعـددا قلـيلا مـن عجـلات الاجـرة، كـل مـنهم يماطـل فـي تعاملـه معنـا، وقلـة مـنهم مــن توافــق وتحــرك لحــدود المجــر أو كرواتيــا، حيــث نقطــة العبـور تكمـن فـي المثلـث الجـامع بـين صـربيا والمجـر وكرواتيـا، والتي تبعد عنا قرابة 400 كلم من جنوب صربيا..

أما الحافلات الجاثمة لم تكن معدة للسفر، ولن تخرج إلا بمواعيد ثابته وأدوار محددة، أخبرنا أحد الصربيين بأننا ممكن استئجار عجلة من مرأب المدينة الداخلي.. حينها وصلنا للمرأب واتفقنا مع شاب صربي بنقلنا لحدود هنغاريا بأجرة 800 يورو بسيارته الخصوصية نوع بيجو التي قيمتها لا تساوي الف يورو.

وقبل ان يهيئ عجلته كنا قد جلسنا على كراس بلاستيكية بيضاء مطروحة أمام كشك صغير بجانب المرأب يبيع سندويشات الهمبركر، تغدينا وشربنا عصائر البرتقال والماء بمبلغ زهيد جدا..

كان يرافق السائق شاب يجيد الإنجليزية، هو الذي ترجم لنا وأتفق معنا على السعر، ولو طلب أكثر لدفعت له، لكنه صدم وتفاجأ من قبولنا بدفع المبلغ دون معاملة...

ذلك الشاب عندما وجد أبني يأخذ الأنسولين على وجبته، تقرب منه وجلس بجانبه يحادثه وينصحه بمرضه بالإنجليزية التي يجيدها بامتياز، حيث كان هو الآخر يحمل في جيبه قلم أنسولين، قال له :...

- دع قلم الأنسولين معك أينما تذهب، أنه مصدر حياتك.

تحركنا من المراب بحدود الحادية عشرة صباحا قاطعين مساحة صربيا طوليا باتجاه المجر، علما أن خارطة صربيا

ممتطاة من الجنوب والشمال، لذا تجد مسافة الطول ضعف مسافة العرض.

كانت طبيعة أرض صربيا تخطف الألباب؛ إذ تنوعت بين تلول متعرجة، وغابات وارفة، وسهول منبسطة تكسوها خضرة زاهية تمتزج بأجمات وشجيرات وردٍ متلألئ الألوان.

لكن أكثر ما شدّني فيها كان عاصمتها بلغراد؛ مدينة تتباهى بنظافتها وتناسق بيوتها المسقوفة بالأجر الأحمر، تبدو لنا كأنها مفارش حمراء مرصوفة فوق بساط أخضر ممتد إلى الأفق. فيما عن بعد تبدو وكأنها باقة ورد ترفل صدر الأرض، تأسر البصر وتسحر الناظر... مررنا بها وشطرنا قلبها ونحن نمضي بثبات في سعينا نحو غايتنا المنشودة.

بعد أن تجاوزنا بلغراد بساعة تقريبًا، راودنا شعور بالحاجة إلى دقائق من الاستراحة. توقفنا على جانب الطريق، نسترق لحظة نغسل فيها وجوهنا المتعبة وننفض عن ملامحنا وشاح الأرق الذي تراكم عليها كما تتراكم الغبرة على المرايا المعتمة.

وما أن قضينا حاجتنا، حتى ناديت على ابني الذي كان واقفًا خلفي: -

- تعال يا بني، ألقِ نظرة على هذه النبتة... إنها نفسها التي كنا نقتطف أوراقها المرة من حدائق أبوظبي.

تلك الأوراق التي اعتدنا جمعها في بداية أيام إصابته بداء السكري، حين كنا نجهل سُبل العلاج، فنعتمد على ما توفره الطبيعة من دواء.

حينها مددت يدي لأتلَمّسها... ثم فجأة انتفضتُ للخلف صارخًا، كما لو لسعتني عقربٌ خفيّة، قلت بألمٍ يشبه صرخة مفاجأة: "آه... لسعتني!" شعرت بأصابعي وقد شُلّت من حدة الوخز؛ ألمٌ نفذ كالإبر الساخنة إلى أعماق الإبهام والسبابة والوسطى، وتوزعت الأشواك الدقيقة على أطرافها بوحشية لا تُرى إلا بالشعور وتدقيق البصر، لدقتها.

سارع ابني إلى إحضار زجاجة ماء باردة، بينما كنت أسكبها على مواضع الوخز دون جدوى، فالألم كان أشد من أن يُغسل. احتقنت الأنامل واحمرت، وانغرست الإبر وكأنها خيوط من نار دقيقة.

انطلقت ضحكات من حولي، بل كركرة جماعية شارك فيها السائق الصربي الذي بدا غير فاهم لما يحدث، وياسر وابني الذي غرق في نوبة ضحكٍ لا تنتهي، جالسًا خلفي وكأنه يتشفّى بي بلطافة الابن المشاكس.

تلك النبتة لم تكن التي قصدتها... بل كانت شبيهة بها تمامًا، لكنها نبتة صحراوية وحشية تسلّلت بين الحشائش الخضراء وكأنها لم ترَ بشرًا من قبل. منحها الله سلطانًا تدافع به عن نفسها، وكانت تبدو كأنها تملك نفسًا أبية بكل ما تحمله الكلمة

من معنى، أدهشتني بقوتها وبتلك القدرة الغريزية على حماية ذاتها.

لم يهدأ الألم إلا بعد مضي ساعة أو يزيد، لكنها ساعة علّمتني أن التشابه أحيانًا لا يعني التطابق، وأن للطبيعة أساليبها الخاصة في التمييز بين من يعرفها ومن يحاول اقتحامها.

وأنا أدقق النظر في أناملي، رأيت ما يشبه مجموعة دبابيس نحيلة وصغيرة، دقيقة كزغبٍ خفيف على وجه أنثى في صباحٍ مشمس. كانت مغروزة في الإبهام، والسبابة، والوسطى، متشبثة بأماكنها كأنها وجدت لها ملاذًا هناك، لا تتزحزح ولا تُنتزع، رغم صلابتها وصغرها الذي يعجز الملقط عن التقاطها.

قبل أن ننعطف في طريقنا صوب هنغاريا، مال السائق يسارًا نحو نقطة التقاء الحدود الثلاثية بين صربيا وكرواتيا وهنغاريا. أدار رأسه نحونا وأخبرنا بلكنة إنجليزية يعلوها الوهن، أن الطريق المباشر إلى هنغاريا قد أُغلِق.

ونحن نسير في خطواتنا الأخيرة بعد أن تجاوزنا خفر الحدود ودخولنا أرض التماس، مرت بقربنا عجلة خصوصية بيضاء نوع تويوتا يقودها رجل عربي من المقيمين في صربيا والعاملين ضمن المنظمات الإنسانية، وفي اجتيازه لوح لنا وسألنا بلغتنا ونحن نسير جنبا لجنب مع بعض..

- هل أنتم مهاجرون؟

- أومأت له وأجبته بنعم.
- أتبعونا..

ثم توجه إلى السائق وكلمه بلغته، وفهمت منه أنه طلب منا أن نتبعه لحدود كرواتيا التي سهلت لنا معبرا عبر أراضيها لدخول هنغاريا بعد توتر العلاقة بين صربيا وهنغاريا بسبب تدفق المهاجرين العشوائية لأراضيها... تتبعناه لمسافة خمسة كم تقريبا، حينها توقفنا في محطتنا الأخيرة مودعين سائقنا الشاب اللطيف بالأحضان، ثم توجهنا راجلين لكرواتيا..

*****

كرواتيا وهنغاريا

خلال رحلتنا الطويلة، لم نلقَ سوى الاحترام والتقدير من الدول التي مررنا بها، وكان لكرواتيا النصيب الأكبر من التميز في استقبالها. فقد استُقبلونا بالورود والأغذية والفواكه والمياه والهدايا والملابس على امتداد الطريق من الحدود الصربية وحتى الحافلات التي كانت تنتظرنا على بعد كيلومتر تقريبًا. ثم نقلتنا حافلات حديثة إلى محطة القطار، ومنها انطلقنا نحو الأراضي الهنغارية.

وعلى جانبي الطريق الترابي المشجّر بأشجار الأثل والصنوبر والصفصاف، وقفت النساء والرجال خلف طاولات يزخر بها العطاء: بضائع تبرّعوا بها للمهاجرين. كانت الوجوه باسمة، يغمرها الحنان، وتفيض ودًا يشفي تعب الأرواح ويبعث الطمأنينة في القلوب المنهكة. استقبلونا بوجوه باسمه تكتنفها عواطف جياشة من الود والحنان صُبِثْ كراحة على أعتاب هياكلنا المنهكة. بحيث أشعرونا بشيء من العاطفة تجاه هؤلاء وعدم الندم باتخاذ قرار الهجرة. لقد منحونا شيئًا يشبه وسام ذكرى، شعورًا عميقًا بالدفء الإنساني لن يمحوه الزمان.

بسلوكهم الراقي خففوا علينا عناء الطريق وعقد الوطن العالقة بذاكرتنا، من مخلفات الميليشيات الوقحة بمختلف اتجاهاتها، إضافة لريب الاحتلال والفوضى التي زرعتها أمريكا وبريطانيا بين أوصال الشعب.

كنا قد وصلنا حدود كرواتيا بحدود الساعة السادسة مساء، قبل غروب الشمس بساعة تقريبا، وبعد أن حصلنا على بعض الغذاء والماء اختطفتُ حقيبة صغيرة من القماش من أحدى الطاولات وضعت فيها الأكل وبعض الفواكه لتأمين المسافة القادمة كي نتجاوز الازمات وندرك النمسا.

ما إن وصلت الحافلات، حتى انطلقت بنا إلى محطة القطار الواقعة على بُعد نحو عشرين دقيقة من نقطة الحدود. هناك، كان القطار ينتظرنا ليحملنا إلى تخوم هنغاريا، حيث أُخبرنا بأن المسافة لا تقل عن ساعتين من المسير.

تحرك القطار عند الساعة الثامنة مساءً، وفي مشهد أعاد نفسه، عُدنا للوقوف داخل الممرات الضيقة بين الغرف. كانت العربات مزدحمة عن آخرها، ولم نجد مكانًا شاغرًا داخل أي غرفة، فاصطففنا واقفين بجانب إحدى النوافذ التي عجزنا عن إحكام إغلاقها لخللٍ في درفها. تقبلنا الوضع على مضض، وقلت في نفسي:.....

- لا بأس، لقد تحملنا الكثير، ولم يبقَ سوى القليل... مجرد ساعتيْن، المهم أن نصل بسلام.

حين ودّعنا كرواتيا، تلك الأرض التي سحرتنا بحسن استقبالها وكرم أهلها ورقي تعاملهم. بدأنا نستشعر برودة الجو تتسلل من النافذة. جلسنا تحتها بصمت، نراقب الليل يهبط شيئًا فشيئًا، حتى أدركنا أرض هنغاريا بحدود العاشرة والنصف ليلاً.

كانـت تلـك اللحظـات تحمـل فـي طياتهـا تعبًـا ودفئًـا، امتزجـا بسكينةٍ غريبـة مـع وقـع العجلات علـى السكة الحديديـة... وكأننـا نقترب من ضفة أملٍ جديد.

ترجلنـا مـن القطـار، لنجـد أنفسـنا نسير فـي طريـقٍ طينـي ممـوج، يرافقنـا الحـرس بحـذرٍ وصـرامة. امتـد الـدرب نحـو ربـع سـاعة مـن المسير، كـأنّ الأرض تبتلـع خطواتنـا فـي صـمتٍ ثقيـل لـبطء سـيرنا بسـبب امتعتنـا. خلفنـا كـان يسـير ياسـر، الـذي وجـد فـي صحبتنا رفقة مؤنسة خففت وطأة الرحلة.

كانـت الأرض غـرين، مشـبعة بميـاه الأمطـار، ليّنـة كـأرض حقـل الـذرى العقـيم، لا تسـتجيب للقـدم، ولا تـرحم الأحذيـة الخفيفـة الرياضـية، أمـلاً فـي راحـة السـير. لكننـا لـم نجد فيهـا غيـر انـزلاقٍ يزيـدنا عنـاء. كـان الطـين كـالغراء، يتشـبث بالحـذاء، يرهـق عضلاتنا، ويجعل كل خطوة اختبارًا للصبر.

بـين ثقـل الأمتعـة علـى ظهورنـا، وغـل الطـين تحـت أقـدامنا، تأرجحـت أجسـادنا المنهكـة، لكننـا تحاملنـا علـى أنفسـنا، علـى أمـل أن تكـون المسـافة قصـيرة. غيـر أن عـبء الطريـق لـم يكـن جسـديًا فقـط... فـالحراس الـذين أحـاطوا بنـا مـن جـانبين لـم يمهلونـا راحـة، كـانوا يصـرخون فـي وجوهنـا، يحثوننـا علـى الجـري، يرموننـا بكلمـات نابيـة بلغـةٍ لا نفقههـا، لكنهـا كانـت مفهومة بالقسوة المتقطرة من وجوههم. يدفعوننا بأياديهم.

قابلونـا بوجـوه عابسـة. وحـدهم مـن طبعـت لهـم فـي أذهاننـا صـورا عـن الحقـد الـذي يتصـفون بـه، لا يمـدّون يـد مسـاعدة ولا

يقـدّمون قـارورة مـاء. معـاملتهم جلفـة، جافـة، كـأرض بـور صلبة، وكأننا نُجرُّ نحو المصير المحتوم، لا نحو أمان نتأمله.

لـولا مـوت الطفـل السـوري إيـلان غرقًـا فـي البحـر، مـا سُـمح لنـا بـالعبور مـن أراضـيهم... هـذه الحقيقـة المؤلمـة علّقـت فـي الأذهـان، لتُـذكرنا أن بعـض الأبـواب لا تُفـتح إلا حـين يُسـجَّل فقدٌ بشريّ في سجل التاريخ.

علـى أيـة حـال وصـلنا لعربـات القطـار التـي كانـت تنتظرنـا بعـد أن دب الهـلاك بأجسـادنا، كلـت أقـدامنا نتيجـة غرسـها بـالطين والـذي تعلـق بأحـذيتنا الخفيفـة، حينهـا صـرنا نشـتاق للراحـة أكثـر مـن أي وقـت مضـى، فـي ظـل بـرودة قارسـة سـاعدتنا علـى شـحن ذواتنـا بنشـاط أضـافي، عضـدت سـعينا فـي مواجهـة مشـاق الطريق..

لـم تتصـبب أجسـادنا عرقـا منـذ أن تركنـا الـوطن، لـذا كنـا نشـعر بشـيء مـن الراحـة مـن هـذا الجانـب لقلـة مجـالات الاسـتحمام، إضـافة لتلـك الطـرق المشـبعة بميـاه الأمطـار والتـي كانـت قـد سـرقت الطاقـة منـا مقابـل إغنائنـا بلطافـة الطقـس؛ الطـين الـلازب جعـل السـيقان تتخشـب، العضـلات تتصـلب، تهجـس بهـا كـأعواد القصب تتكسر من ثنية تغافلنا.

تخللـت تلـك الأرض حجـارة وحصـاة ناعمـة منثـورة فـي البقـاع، سـاعدتنا علـى تجـاوز محنتنـا، هجسـنا بهـا كرشـفة رحمـة منتبـذة مـن بـاطن الأرض، مقابـل تعسـف الوحـل وغـل الحـرس الهنغاري.

سرنا بين منحنيات المرتفعات الصغيرة، تحت وطأة سخط الحراس المحيطين بنا. وما إن وطأت أقدامنا عربات القطار، حتى عادت الأزمة ذاتها لتتكرر أمامنا: غرف العربات مكتظة بالمهاجرين، لا مكان نريح فيه أجسادنا المنهكة. توجهت إلى شرطي من الصليب الأحمر كان قد رافقنا من محطة كرواتيا، وقلت له بتوسّل:...

- بالله عليك يا صديقي، ابني يعاني من السكري، ولم نذق النوم منذ ليلتين. أرجوك، هل يمكنك أن تجد لنا غرفة ليتحمّل مشقة السفر؟

فطلب مني أن ننتقل لعربة أخرى، لكن دون ياسر بسبب ضيق المكان. وهناك، حُشرنا مع عائلة أفغانية مزعجة، تتكوّن من الوالدين وثلاثة أطفال. كان الوقوف في الممر أهون من معاشرتهم. ومنذ تلك اللحظة، فقدنا أثر ياسر نتيجة الزحمة، لكن رغم ذلك، تمكّنا من إيصالهم إلى النمسا.

على أية حال، تراخى الجسد وبدأنا نسبح في غياهب الكرى، بين غشاوة عينٍ أثقلها الوسن، وبين محاولاتنا أن نعين ذواتنا على تحمل عبث أطفالٍ مشاغبين وتصرم والد غال في ازدراءه بوجودنا. والدٍ غال في مزاحه الغلس، القرف؛ حتى أصبح بسلوكه المشين أشبه بإرغامٍ صامت على هجرنا الغرفة. كان دميم الخلق، لم يكن يراعي حجم الوهن الذي يكبل أجسادنا، ولا الوجوم الذي يكسو ملامحنا. تفنن في طرق العبث، تسفه كثيرا دون أدنى شعور وتقدير لما نحن عليه من ارهاق وتعب.. لكننا كنّا في موضعٍ لا يسمح

بخسارات إضافية. كنا كالأصم والأبكم نتيجة العناء الذي حل بالجسد، لم نهتم ولم نرطن له، أضحى احدنا كضرير متمسك بعصاه، لن نتزحزح ولو أضرم النار في الغرفة وفي اطفاله.

حالة فرضت علينا وفرضت عليه دون موافقته، فنحن لم نصدق أنفسنا ونحن جالسون على كراسٍ داخل الغرفة لقطع مسافة عشرة ساعات من الطريق، مجنون من يترك موقعه بتلك الظروف العقيمة. امتصت الكراسي ما تبقى من فتات الطاقة في أجسادنا، حتى غدونا أسرى تعبٍ لا يُقاوم.. لقد قضينا ليلتنا كيفما اتفق بحيث مع تحرك القطار بحدود الحادية عشرة ليلا، بدأتُ أتوه بين مسارات الفكر، وأطيافٍ الوسن، وسلطانِ الكرى الذي استحوذ على الوجدان. ابني، صغيري، استسلم تمامًا للرقاد، لم يأبه لضجيجٍ ولا شغبٍ، غاص في سباتٍ عميق كمن نام نومة أهل الكهف، فلم يفتح عينيه إلا حين توقف القطار في النمسا عند السابعة والنصف صباحًا.

استبان الهدف وتلاشت العقد أمام وقع خطواتنا، ترقص على ترنيمة فرح، إذ وصلنا أرض النمسا. بات الأمر سيان بالنسبة لواقع مصيرنا الذي بات واضحا، أضحى الحلم ملموسًا؛ إذ ببلوغنا هذه الأرض قطعنا الشك باليقين، وانتشت مشاعرنا بفرحة كانت مكبوتة، مدفونة في أعماقنا، لكنها أشرقت فجأة ودفقت في الذهن والقلب والجسد راحة لا توصف. نسينا مشاق الطريق، كمن أمسك قرص الشمس بيديه، لتبقى الأحلام مشتعلة فوق نوايانا وغاياتنا التي دفعتنا نحو الهجرة.

كنا قد ولجنا في قوس الغاية التي لطالما أنشدناها في دواخلنا، وتفتحت أمامنا أبواب الدول، نستبشر ببصمتنا فيها، ونرسم بها مستقبلاً يسهل مسيرتنا ويحقق أهدافنا.

ما إن ترجلنا من عربة القطار، حتى سرنا قرابة كيلوين في فسحة أرض منبسطة، بعرض خمسين مترًا؛ أرض خضراء صلبة، تحاذي من اليسار شارعًا معبدًا، ومن اليمين غابة وارفة بأشجار الصفصاف والصنوبر الباسقة، تمد ظلالها كأنها تحنو علينا. تحولت تلك الفسحة إلى مساحة لقضاء الحاجات، إذ بالكثيرين يتجهون إلى الوادي المحاذي للغابة للتبول.

واصلنا السير حتى بلغنا أول نقطة استقبال لنا داخل حدود النمسا. جلسنا قرب موقف مخصص لعجلات الأجرة، أنشئ خصيصًا لنقل المهاجرين إلى العاصمة فيينا، التي تبعد سبعين كيلومترًا. منذ لحظة نزولنا، بدأنا نبحث بين الجموع الزاحفة عن ياسر، الذي غاب بين الوجوه. بذلنا جهدًا في موقف السيارات دون جدوى، وعندما يئسنا، تركناه؛ كان قد بلغ مراده، وحقق هدفه.

*****

فينا – النمسا 2015\10\2

في نقطة الاستقبال وزعت علينا المياه والعصائر والساندويشات والشبس، أكلنا، شربنا، غسلنا وجوهنا من كدر الطريق قبل أن نقتني تذكرة تنقلنا لفينا.. تأخرنا في المكان قرابة ساعة زمن بحثنا فيها عن ياسر فلم نجده، غار في سدم الزحمة، صار أثرا بعد عين، تماها في المد البشري، لكننا تطمنا عليه بعد أن أوصلناه لبر الأمان...

اضطررنا أخيرًا إلى اقتناء تذكرتين تقلّانا إلى وسط العاصمة فيينا، بلغت قيمة التذكرة سبعين يورو، والمسافة لمركز مدينة فينا الحلم سبعين كيلومترًا عن النقطة التي نقف فيها.

وما إن جلسنا في مقاعد عجلة الأجرة شعرنا بلوغنا الغاية، وما أن بدأت العجلات بالدوران؛ حتى انصبت عيناي على معالم النمسا التي طالما تاقت روحي لرؤيتها. كانت البلاد تكشف وجهها الباسم لنا شيئًا فشيئًا، كأنها تخلع عن وجهها خمار الوجل من خلف التلول وانحناءات الطريق، لاحت لنا ملامح فيينا التي يفوح منها عطر النظافة والرقي، بدت تتلألأ منها صور المحبة التي احتفظت بها في قلبي منذ أمد وعيي دون أن أراها.

ربما السبب يعود إلى تلك الفتاة النمساوية الساحرة اللطيفة التي قابلتها يومًا ما في صنعاء اليمن، تلك التي غرست محبتها ومحبة بلادها في أعماقي. أو ربما لوتني أغنية أسمهان العذبة "ليالي الأنس في فينا، فينا روضة من الجنة"،

هي من خطّت ملامح المدينة على جدران روحي وذهني، أو لعلّ الإعلام الذي طالما تغنّى بجمالها ونظافتها حرّض زغب المشاعر فدغدغها برفق... وربما هي كل تلك الأسباب مجتمعة، وربما لا شيء منها سوى شعور دفين أغشى القلب... ما يهمني، أنني وصلت أخيرًا إلى مكانٍ كنت أنتمي إليه دون أن أعرف كيف أو لماذا.

حقيقة لا أعرف لغز محبتي لهذا البلد، حيث المحبة لا تحتاج لأسباب لتفرض وجودها، أحيانا تنبع من همسة تشذب الذهن فتغز القلب واحيانا تحتاج لانقلاب وفوضى في الذات ليطرأ ذلك الإحساس الخفي للبزوغ في الوجه والحدق. لكني في كل الاحول أهجس برياح تلك المحبة حفت أوراق شجرتي فأضحت أكثر نضارة وألقا. أهجس بالذاكرة جلت غبرة الزمن عن وجه أحاسيسي ومشاعري فصورت لي فينا كجوهرة لامعة أكثر إشراقة مما تخيلت وتصورت سابقا..

حين دخلت العجلة قصبات فينا، بدا المشهد كأني أقلب صفحات الإعجاب والحنين برفق النسيم الرائق. ارتجّت الذاكرة فجأة، كأنها كانت تنتظر تلك اللحظة لتُعيد بث تلك الأغنية الشهيرة التي علّقت قلوبنا بحلمٍ تحقق أخيرا؛ بتنا نراها تُغنّى أمامنا كما رسمها خيال طفولتنا، ببريق عيني أسمهان ورهافة صوتها العذب. ذاك الصوت الشجي المتشح بجمالٍ فتاة خجولة، تسلّل عبر منافذ الحس كضوءٍ يتسلل من شق نافذة إلى غرفة مظلمة، فأيقظ فينا عصف المشاعر، حيث اختلط الجمال بالحسن حتى برق جوف الأحاسيس

بشرارة الود. كأنّ لكل خفقة قلب رنيناً خاصاً يُحاكي نغماً من نغم أسمهان. المحبة حينها لم تكن كلمات ولا حتى لحناً، بل كانت تلك اللحظة الممتدة بين غنج الأغنية وارتعاش القلب، حين تتجلى "فينا" كقصيدة لا تنتهي.

خلال المسير، لم تزغ عيني عن مشاهدة معالمها، دهشت بحسن تنظيمها ونظافتها وترتيب أبنيتها وبثاث أشجارها، فعلا أنها تستحق أن تبجل بالجنة للرقي المشرق والظاهر على معالمها. لمست ذلك حين لمست رقي ناسها وجمالية شوارعها وحدائقها ولطافة أجوائها وجوها وهدوئها، حيث كنا قد دخلناها مع وجه صبح الأربعاء في 2\10\2015 بحدود التاسعة صباحا.

أوصلتنا عجلة الأجرة لنقطة قريبة من محطة القطار الرئيسية، في تلك البقعة أستأجرنا فندقا تديره إمرأة عراقية مسيحية بسعر 60 يورو للغرفة ذات سريرين، تلك العراقية كانت قد هاجرت إلى النمسا أبان الحرب العراقية الإيرانية في ثمانينات القرن الماضي. تعاملت السيدة العراقية معنا برقي واحترام، ربما شمت في جلودنا رائحة الوطن التي افتقدته منذ أمد، والتي لازالت عالقة بأبداننا وثيابنا كألوانها.

خلال مكوثنا فيها ليومين، كأني أطفأت جمر الشوق والوله المتقدة في صدري منذ أن ادرجت تلك الأغنية في رف الذاكرة، بدخولنا المدينة توردت واحمرت وجنات الشوق مع خطوات أقدمنا ونحن نتجول في مرافقها الهادئة الجميلة وشوارعها العريضة، كأنّ تلك الأغنية التي أضاءت الروح

بنورها بثت ذلك النور في مرافق المدينة، بتنا نغزل خطواتنا على أرصفتها العريضة، وكل زاوية فيها تهمس لنا بأحاديث الجمال والطمأنينة. شعرت وكأن أبواب الفردوس، التي لطالما خُيّلت إليّ أنها مغلقة، قد انفتحت أمامنا برقةٍ وعفوية، تحت وقع الشغف وانبعاث الذكرى...

على الرغم من أننا لم نتجول إلا بمحيط الفندق الذي سكنا فيه، فلم نبتعد كثيرا لجهلنا بمعالمها ولغة ناسها، إلا أنها كانت تبتسم لنا برقتها ونظافتها أينما حللنا، كأنها قد لمست ذلك الشوق المدفون في جوارحنا، فأطفأت لهيب الجمر بحسن مناظرها وصفاء سمائها، فأراحت بذلك سرائرنا.

كنا قد ألتقينا بخال أبني الذي كان قد هاجر قبلنا بستة أشهر، وذلك بعد أن أعلمناه بمكان سكنانا. في زيارته لنا، أقترح علينا بأن نذهب إلى مخيم استقبال المهاجرين، حيث توزع فيه المستلزمات التي ممكن أن تخدم المهاجر لتكملة مشواره لغاية السويد.

بصراحة كنت أرتعب من ذكر أسم السويد المرتبطة في مخيلتي بصقيع الثلج وزمهرير البرد، حيث كلما سمعت باسمها يتبادر لذهني ليالي الشتاء الموحشة الطويلة، فأشعر بقشعريرة تدب في الجسد أمام تلك الصورة المغروسة في الذهن منذ الصغر... بابتسامة واحدة، غيّرت مفاهيم، ووسّعت شرايين التقدير لهذا البلد، حتى شعرت بأنني قد وطنت البلد قبل أن تطأ قدمي ترابها.

سـرنا لمخـيم اللاجئـين وخاصـة حـذائي الـذي عبـرت بـه حقـل الـذرى كنـت قـد رميتـه فـي جزيـرة ميتيلينـي بعـد أن كسـر كعبـه.. اسـتقبلتنا فتـاة نمسـاوية شـابة بعمـر الـورد فـي غايـة الحسـن والجمـال. طيـفٌ نمسـاوي كـان يشـهق علـى بوابـة المخيم، بانـت كأنهـا مقطوعـة شـعرية مـن حلـمٍ هـارب، فتـاة بعمـر العشـرين، تشـعّ كأنمـا الياسـمين قـرر أن يتجسـد بهيئـة بشـراً، لمـا لهـا مـن فتنـة وألـق وسـحر وعذوبـة قـل نظيرهـا بـين النسـاء، لمـا فيهـا مـن فـيض يتمنـاه كـل رجـل فـي الأنثـى. عنـدها كـان الغسـق قـد عـانق الهـواء، وموجـات التعـب تركـت لهـا وقـع علـى الوجـوه. غيـر أنهـا كانـت كـوردة تفـيض القـا وهـي تغـازل أضـواء المصـابيح المسـائية بمرحهـا، وترفهـا ومزاحهـا، وكأنهـا معجونـة بكيميـاء الجاذبية..

جمالهـا كـان مـن ضـمن الكمـال الـذي يقمصـها، جميـل ملامحهـا، بـديع صـفائها؛ تهجـس فـي تلـك البسـمة التـي تعـرج علـى شـفتيها حمـرةٍ فاقعـة مـن وهـج السـرور، عكسـت إشـعاع "فيّنـا" بوجوهنـا بتلـك الطاقـة واللطافـة التـي انعكسـت علـى ملامحنـا بـلا اسـتئذان، كأنهـا مـرآة تعكـس أجمـل مـا فـي الإنسـان مـن حنـان. لـم تكـن مجـرد لحظـة عـابرة، بـل كانـت إعلانـاً حيّـاً عـن طيبـة هـذا الشـعب وروح تلـك الأرض، للتـداخل الجميـل الـذي حصـل فـي أجـواء الألفة واللقاء والبساطة التي جَمعتنا بها.

تحـت وهـج الأضـواء المنعكسـة عـن ملامـح وجههـا، راحـت تنثـر عبـق رقتهـا وابتسـامتها بسـخاء علـى ملامحنـا، وكأنهـا تنفحنـا بلطافـة الـورد حـين يفـوح بعطـر الأنوثـة الغـامرة. كانـت

حضورها امتداداً لأحلامنا، صلة الوصل بين ما نبتغيه وبين ذلك الأفق الذي نحلم ببلوغه. تحفة نادرة متلألئة، لما في طلتها من سحر وأناقة وجاذبية. كانت ترتدي قميصا شفافا أبيض مع بنطلون جنس أزرق. عكس الرشاقة وجميل قدها المياس....

كنا قد تأخرنا في الوصول إلى الخيمة، دخلناها مع زحف الغسق بينما كانت الأبواب توشك على الإغلاق. لكنها، ببشاشتها سمحت لنا بجولة سريعة في الخيمة. كم كانت نبيهة ورقيقة حين اختارت لي ولابني ستر مطرية مبطنة بالإسفنج، تقي برد الشتاء، وأرفقت معها حزمة جوارب دافئة لمقاومة صقيع ثلج السويد...

عند مغادرتنا للمخيم، وقفت معنا تلك الفاتنة برقّة قلبها وروحها الترفة تمازحنا بكلمات عربية حفظتها من مهاجرين سبقونا، وكأنها تهيم في تعلّم المزيد من المفردات، ذكرت لنا كلمات - شوربة، رز، حلو، عين، دولمة، شعر، بيض، شكراً - كلمات نطقتها بمرونة كأنها تلعب على أوتار لغتنا، ترجو أن تفهم أسرارها لتطوّق بها قلوبنا.

كنت أبادلها الحديث بالإنجليزية، شرحت لها معاني كلمات تصفها حقاً: جميلة، فاتنة، طيبة، ساحرة، وجه... كلمات ما وجدت إلا لتصف حضورها الآسر. بدت فرحة معنا وكأنها أصبحت جزءاً من ذاك اليوم الجميل باللقاء، كما لو أن الزمن منحها لحظات لتجسد فيها المحبة العفوية التي تنفح القلب دفئاً وطمأنينة. وبعد قرابة عشر دقائق من الملاطفة والمزاح، بدا

الوقت يستدرجنا نحو الرحيل. وعند استئذاننا منها، فاجأتنا بعناق دافئ، حيث ألقت بنفسها على صدري، تعبيراً صادقاً عن محبتها، ثم بادلت ابني وخاله نفس العناق، وكأنها توزع دفء روحها علينا بلا تردد.

كانت تلك اللفتة منها نسيجاً من العاطفة الجياشة التي أغرقتنا في فيضها، غسلت بها تعب يومنا وإرهاق السفر، وتركت فينا أثراً لا يُمحى- همساً في الذاكرة، وتنهيدة في القلب، وصورة تخلّدت في وجداننا للأبد.

في اليوم التالي أتصلت بصديقي قاسم المقيم في ألمانيا؛ أستفسر منه عن أفضلية البصمة في النمسا أم السويد أم ألمانيا؟ فكان رده لي...

- نصيحتي لك؛ أذهب إلى السويد.

حينها شكرته لدرايته بالقوانين والأنظمة الدائرة في المنطقة، فأخذت بنصحه.

خلال تجوالنا في أسواق فينا، اقتنيت كنزات قطنية بيضاء وأخرى حمراء لي ولأبني وبجامة زرقاء ورصاصية لرحلتنا القادمة.

في ظهيرة يوم 10\4 قطعنا تذاكر سفر من محطة القطار إلى الدنمارك وبالذات لعاصمتها كوبنهاجن، آملين أن ندخل السويد من خلال مدينة مالمو السويدية القريبة منها.

كانت قد راجت حينها إشاعة ترمي إلى أنه إذا ما دخلنا حدود ألمانيا فأن شرطتها ستجبرنا على البصمة فيها، في الوقت الذي به غاية مرادنا أن نبصم في السويد.. إلا أن عامل السكة المدعو رشيد وهو كردي من العراق يعمل في محطة فينا طمأننا حين قال لنا:..

- الشرطة لا تتفحص قاطرات الليل، أنما تتفحص قاطرات النهار فقط... وكان لابد للقطار من أن يجتاز أرضي ألمانيا ليصل إلى العاصمة الدنماركية كوبنهاجن، المسافة تتجاوز 1200 كلم.

أخذنا بمشورته وتوكلنا على الله. وبذلك طوينا صفحة النمسا...

*****

ألمانيا

تحرّك القطار نحو السابعة مساءً، دون أن نعلم متى تجاوزنا حدود الأراضي الألمانية. وعند الساعة العاشرة ليلاً، توقف القطار في محطة جنوبية قرب ميونخ. صعدت الشرطة الألمانية إلى العربات، باحثة عن المهاجرين، حتى أُفرغت العربات تماماً منهم.

كانت بين أفراد الشرطة عددٌ من الشرطيات الحسناوات، تبدو الواحدة منهن كوردة عباد الشمس، ينسدل شعرها الأشقر كأطياف الحرير، وتتلألأ بشرتها بلون الثلج الناصع، تزينها حمرة شفاه لطيفة، ووهج يفيض من الوجنتين كاللّهب، يمتد ليشعل زرقة أعينهن الخلابة. تلك العيون النجلاء، المغشّاة بلون البحر، تشعّ بنور خاص، كأنهن حوريات خرجن من أزقة الخيال.

يكتمل هذا المشهد الفاتن برشاقة القوام المغمور بالأنوثة، ومع ذلك، ومع ذلك تجد في ثنايا تلك الملامح المضيئة تكمن صرامة تعكس بعضاً من الطبع الألماني؛ صلابة مغلفة بالجمال، تجمع بين الجاذبية والقوة، في صورة تختصر التناقض الساحر في الشخصية الألمانية.

بعد أن نزلنا من القطار نقلونا في حافلات مخصصة كانت تنتظرنا لمخيم يبعد مدة نصف ساعة عن موقع المحطة. هناك أجبرونا على أخذ بصمة الإبهام، حيث أخبرونا بأن هذه البصمة هيَّ بصمة أمنية لا علاقة لها ببصمة التوطين. علمنا

فيمـا بعـد بـأن هـذه بصـمة جنائيـة تعـرفهم بـالمجرمين المنتمـين لعصـابات داعـش والمليشـيات الوقحـة.... بعـد أن بصـمنا طبعـوا لنـا هويـة البصـمة، ثـم سلموها لنـا لألا نُحجـز مـرة أخـرى خـلال تواجدنا في ألمانيا.

لـم يُسمح لنـا بمغـادرة المخيم إلا بعـد التاسـعة صـباحاً مـن اليـوم التـالي. بقينـا جالسـين هنـاك، فـي جملـون واسـع أشـبه بقاعـةٍ للسـجناء، نتـوزع فـوق كـراسٍ خشـبية ومسـاطب وسـط صـالةٍ تتخللهـا قنـوات البـرد مـن كـل جانـب، وكـأن الفضـاء نفسـه يتـآمر علينـا بصـقيعه... حينهـا وزِّعـت علينـا بعـض السندويشـات، وُضِـعت معهـا قطـع مـن الصـابون وقـارورات شـامبو، وكأنهـا تعويض بسيط عن انتظار لا نعلم مداه.

ومـع مـرور الوقـت، بـدأ البـرد يتسلّل إلـى أجسـادنا كضـيفٍ ثقيـل لا يعـرف الرحيـل، يـدق أسـافينه فـي مفاصـلنا، أمـام تدفئـةٍ عـاجزةٍ عـن انتـزاع تلـك الرجفـة العبثيـة مـن أجسـادنا. احتمينـا بمـا تـوفر مـن ملابـس وأغطيـة، لففنـا بهـا أنفسـنا كيفمـا يشـاء القـدر، نتصـالح معه كلما ضاق بنا الحال.

أضـحت العلاقـة بيننـا وبـين الظـرف وطيـدة، تاريخيـة، تجـاوزت الدبلوماسـية، تسـللت إلـى دهـاليز النفـوس، باتـت سـريرية، متبادلـة، أخـذت العقـد تأخـذ طـابع الألفـة معنـا، مـا عـدنا نسـتهجن زيارتهـا لنـا، ربمـا نـزوره دون قصـد أو ويزورنـا بقصـد كنـزوة يطـل علينـا فـي أسـوء حالاتـه، ليعرقـل أمزجتنـا ثـم يتركنـا فـي دوامـة التفكيـر ومحاولـة إصـلاح الشـأن. ربمـا نـزوره دون قصـد أو ويزورنـا بقصـد كنـزوة يطـل علينـا فـي أسـوء حالاتـه، ليعرقـل

امزجتنا. ربما نستغرب إذا ما تأخرت علينا فترة طويلة، لم تعد مفاجآته تدهشنا، فقد باتت زياراته لنا جزءاً من طقوسنا، يأتي حين يشاء ويختفي حين يشاء. كأنه غدا فرداً من تفاصيل حياتنا... لا يُعاب، لا يُستبعد...

قضينا تلك الليلة بشيء من الفتور الذاتي، حيث أضحينا والظرف الغير موائم أصدقاء مرحلة؛ كأننا نعرف بعضنا البعض من أمد طويل، نتبع غله ويتبع براءتنا، نراقب سخطه ويراقب عفويتنا، بحيث لا نستغرب من زيارته المفاجأة لنا متى ما شاء، وبالموعد الذي يشاء.

حينها أدركت أن الإنسان لا يملك إلا أن يُكيّف ذاته مع ظرفه، مهما كان قاسياً أو غريباً. فذاك السجين، الذي طوى السنوات في دهاليز العزلة، يروض وحدته حتى يصير السجن جزءاً من ذاكرته، لا من واقعه. يتجاوز قيده حين يتعلم أن يتجاهله، فيتحرر ذهنه وإن بقي الجسد خلف القضبان، يتحرر من قيد السجن، يجعلها غير موجودة إلا في مخيلة الناظرين له من خارج القضبان..

ونحن لا نختلف كثيراً عن ذلك السجين، تعلّمنا التأقلم مع القهر، حتى استطعنا أن ننتصر عليه بصبرنا. تعوّدنا الإذلال، والعذاب، والشقاء كأنها ضريبة الانتماء لوطن تمزقه أنانية من لا يرون أبعد من كراسيهم. حكام أغراهم البذخ، فأحالوا كراسيهم عروشاً من فراء، وجيوبهم خزائن لا تشبع، وصورتهم زينة تخدع.

لكن الطغيان لم يكتفِ بنهب الداخل، بل لاحقنا لعناتهم إلى منافي الغربة، حيث أصبحنا نتسكع بين الدول بدون راع، بواقعٍ لا يعترف بنا، نحمل خيبات أوطاننا على أكتافنا، نجرُّ ذلاً وعجزاً على أرصفةٍ لا تشبهنا واسرة تلفظنا...

في حضرة الليل، حين يشتد السهد وتغمرنا ظلال الهواجس، نجلس نعالج ما ألمّ بنا بالصبر والسلوان، نغزل من خيوط السهر عباءة من التجلّد... أحيانًا يبالغ الظن في تخميناته فيبلغ شواظ الهلوسة، حيث تتقافز الصور والأفكار أمامنا كأشباح طريفة أو كوابيس متجهمة. في لحظة، يبدو كل شيء مضحكًا، وفي أخرى، يتحول إلى عقدة نفسية أو جزع داخلي لا يُفسر. لكن، ما إن تمر تلك العاصفة، حتى يعود الإنسان إلى رشده، ويكتشف أن ما مرّ به ليس إلا جزءًا من دورة الحياة، تلك الحياة التي لم تُخلق لتكون سهلة، بل لتُعاش بكل ما فيها من منغصات وصعوبات.

الحياة السهلة لا طعم لها. لقد خُلق الإنسان ليكابد، ليفكر، ليبني، ليعمر، وليسمو بذاته نحو منصات القيم. خُلق ليعبد الخالق، ويسير بشرائعه نحو المجد، لا ليغفو في راحة زائفة.

وهكذا، وجدت نفسي في مخاض جديد، لا أرى أزمة، بل اعتبرتها شكلًا من أشكال الجهاد، جهاد النفس في سبيل حياة أفضل، حالة أكثر وعيًا، أكثر سموًا، وأكثر قربًا من الحقيقة.

تلك الليلة كانت من ليالي المحنة، حيث لم يكن الألم جسديًا بقدر ما كان نفسيًا، يغور في أعماقنا ويثقل أرواحنا. أرهقنا التعب الفكري، وأحاط بنا الضياع الذهني، كأننا نُساق في متاهة لا مخرج منها. كنا نجهل المصير، لا نعرف إلى أين نتجه، ولا كيف نتصرف، ولا بأي وجهة نلوذ. دائرة الشك كانت تطبق على أفكارنا، تجرّنا إلى التيه، وتغمرنا بالأسئلة التي لا إجابة لها.

لكن، في خضم هذا الظلام، كان هناك نور خافت ينبعث من الإيمان: "أينما تكون، فثمّ وجه الله معك، يفتح لك أبواب الفرج." تلك الحقيقة وحدها كانت طوق نجاة، حين خذلتنا السبل، وأوصدت الأبواب أمام سعينا، وبات كل ما نعرفه عن موقعنا أننا قريبون من مدينة ميونخ الجنوبية.

لا دليل معنا سوى هواجسنا، ولا رفيق لنا سوى الصمت. هواتفنا، التي كانت نافذتنا إلى العالم، خذلتنا هي الأخرى، بعد أن فرغ شحنها وتوقفت عن ملاطفتنا، كأنها أعلنت انسحابها من معركتنا الصغيرة.

كنا وحدنا، لكننا لم نكن وحدنا حقًا. ففي كل لحظة ضياع، كان هناك يقين خفي بأن الله لا يترك عباده في التيه، وأن الفرج يولد من رحم الشدة، وأن كل مأزق هو بداية لحكمة جديدة.

لم تكن إرادتنا حرة، لم يكن الأمر بأيادينا، قيدتنا الشرطة بإجراءاتها، ثم أننا لا نعرف أين نتجه لتكملة مشوارنا، في

ظل صمت عائم يحيط بنا، بحيث لم نكن نفهم لغتهم ولا هم يفهموا علينا إلا بالنز اليسير وبلكنة إنجليزية، حيث تكالب الظرف والزمن والوطن علينا في تلك اللحظة، أصبحنا نلوب في عنق زجاجة دون أن نجد حلا لأزمتنا.

تحركنا صباحًا باتجاه الطريق المؤدي إلى الشارع الرئيسي الذي يبعد عنا قرابة ثلاثة كيلومترات، بينما كانت زخات المطر الشفيفة تتراشق على وجوهنا وكأنها تختبر صبرنا. رافقتنا عائلة إيرانية مكونة من طفلين ووالديهما، وكان الرجل يعاني من مغص شديد، فيما بدت الزوجة ساخطَة من سوء القدر؛ إذ تُركنا جميعًا نواجه مصيرنا بأنفسنا، دون عون أو دليل، لا نعرف وجهتنا ولا محطة نلجأ إليها، والبرد يلفنا والسماء الغائمة ترش علينا مطرها الناعم بلا هوادة.

مضينا في ذلك الطريق الوحيد، نجر خطواتنا المتثاقلة وسط ملتو وملابس مبللة وأجساد منهكة ومطر لا يفك مزاحه معنا. بلغ بنا اليأس حدّ أن نشير لكل سيارة تغادر المخيم، على قلّتها، علّها تشفق علينا... لكن لا أحد استجاب، وكأن القلوب لقساوتها اضحت غلسة لا تعرف الرحمة. تبادلنا حمل الأعباء فيما بيننا، نمشي بخطى السلحفاة خلف من سبقونا، نتتبع أثرهم كأنما نحن ظلالهم.

وبعد ساعة من السير المضني، بلغنا الشارع الرئيسي بشق الأنفس، عضلاتنا منهكة، وأنفاسنا ثقيلة، وقد أثقلتنا الحقائب التي حملناها عن العائلة التي رافقتنا، فزاد ذلك من عجزنا وتأخرنا... لكننا وصلنا، بصمت ال

أخيـراً توقّفـت إلــى جانبنــا عجلــة مــن نــوع BM6 ذات سـبعة مقاعـد، اسـتأجرناها بغـرض الوصـول إلـى محطـة القطـار. كـان سـائقها العجـوز يجهـل اللغـة الإنجليزيـة، إلا أننـا اسـتطعنا التفـاهم معـه رغـم ضـعف لغتـه. أخبرنـا بأننـا قريبـون مـن ميـونخ، ولكـن لــم نكــن نعــرف المســافة الدقيقــة التــي تفصــلنا عنهــا. خــلال الطريــق، ســألته إن كــان باســتطاعته إيصــالنا إلــى مدينــة هـامبورغ، حيـث وجـدت العجلـة فرهـة، فسـيحة، ومريحـة، ولـم يمـانع طلبنـا، لكنـه اشـترط أجـرة قـدرها 800 يـورو. اتفقنـا عليهـا مناصفة بيني وبين العائلة الإيرانية المرافقة.

تحركنــا نحــو هــامبورغ فــي حــوالي العاشــرة والنصــف صــباحاً، مسـتعينين بتطبيـق GBS. لـم ألمـس اختلافـاً واضـحاً بـين طبيعـة أرض صــربيا وألمانيــا، باســتثناء الطــرق: إذ بــدت طــرق ألمانيــا أوســع وأكثــر أناقــة. أمــا الــتلال، الخُضــرة الممتــدة، والغابــات المتنــاثرة فكانــت متشــابهة إلــى حــد بعيــد، واســتمتعنا بالمنــاظر حتى وصلنا هامبورغ قرابة الثالثة عصراً.

لقد أوصلنا إلى محطة فرعية، وأصر السائق أنها محطة هامبورغ الرئيسية، رغم أن مظهرها أوحى لي بعكس ذلك. ارتبتُ في الأمر، ولاحظت أنها أشبه بمحطة بضائع، فسألته بلطف:...

- هل أنت متأكد أنها المحطة الرئيسية؟ لا تبدو كذلك.
- نعم، حسب تطبيق GBS.
- هل لك أن تسأل أحداً؟ أشك في الأمر.

توجه نحو رجل على دراجة هوائية، سأله عن محطة القطارات التي تغادر إلى الدنمارك، فأجابه بأنها تقع في الطرف الآخر من المدينة، ويجب عبور الجسر فوق نهر الإلبه.

وصلنا إلى الجسر، وكان مغلقاً بسبب مرور قطار. اغتنم الأطفال فرصة التوقف، وذهبوا للتبول في فسحة تحت الأشجار. بعد عبور القطار، فتحت البوابة، ومضينا في طريقنا حتى ظهرت أمامنا قبة خضراء ضخمة تعلو محطة هامبورغ الشهيرة، فدخلناها ونحن نلهث من طول الرحلة وارتباك الطريق. في المحطة، دلّنا شاب إلى مكتب بيع التذاكر، فاشترينا تذاكر السفر إلى كوبنهاغن، على أمل أن تنطلق الرحلة خلال ساعة.

غسلنا وجوهنا من أثر الأرق المتراكم، وأرحنا أجسادنا المرهقة. خلال تتبعي لأبني كنت أنظر له نظرة ألم وغصة تعتريني، أهجس بذاتي كأني قد ورطته في مشوار الهجرة، كأني قصمت ظهر مستقبله وأنا أقوده إلى المجهول الغائر في أعماق الظن، ذلك الذي نرنو إليه وهو يبتعد عنا، يتخفى تحت قش الهواجس، يتماهى أمام أصرار إرادتنا التائهة في مخمصة التفكير. هجست خلف ذاك المجهول تقف إرادة تحارب سعينا، في الوقت الذي به أفكر بتعبيد وتعميد مستقبله الذي تقطعت خيوطه بمقص ظرف الوطن والقدر. كأنني قصمت ظهر أحلامه، وقذفته في بحر الظنون، حيث يسكن المجهول خلف ستار الهواجس.

رغم كل ذلك، كان هادئاً، مطيعاً، يتبعني بصمت. وكأنه يدرك أني جازفت بحياتنا لنحظى بفرصة حياة كريمة، بعدما سحق الوطن أحلامنا بفعل الحروب، والطائفية التي نسفت أرواح كثيرين منا بلا ذنب.

ونحن نتجول في حوض المحطة الواسعة وبعد أن اشترينا ساندويشات دجاج وقضينا حوائجنا وغسلنا وجوهنا، واجهني أحد الشبان من المتطوعين ضمن فرق الصليب الأحمر لإغاثة ومساعدة المهاجرين، ومن الذين يتكلمون العربية. كان يرتدي قميص الصليب الأحمر الفسفوري، سارعت لأسأله عن موقف القطار المنطلق إلى الدنمارك... أين يقف؟ ومتى ينطلق؟ لجهلنا اللغة الألمانية. فقلت له:...

- عفوا يا أخي ممكن سؤال..
- تفضل أخي..
- ممكن أن توضح لنا في أي خط يقف القطار الذاهب إلى الدنمارك ومتى سينطلق؟ فنحن لا نجيد الألمانية.
- هل أنتم من المهاجرين؟
- نعم.
- إلى أين تودون أن تصلوا؟
- إلى السويد.
- تعال معنا، نحن نوصلك إلى السويد دون مقابل.
- حقا؟

- نعم؛ حاول إعادة التذاكر للموظف وأسترجع فلوسك وأتبعنا. خلال ساعة زمن من الآن سننهي أمر سفركم بأذنه تعالى.
- شكرا لك، أسمح لي بثوان وأعود أليك..

ذهبت إلى مكتب بيع التذاكر محاولا إعادة التذاكر لكن دون جدوى، حيث الموظف أبى تسوية الأمر وقال لي بالحرف الواحد...

- المباع لا يرد.

لم تنفع محاولتي معه، وكي لا أتأخر عن مجموعة الصليب الأحمر، أهملت الموضوع لشعوري بعدم قدرتي على تسوية الأمر، لذا فضلت القناعة وتبعت المجموعة التي كانت تسير خلف قائد المجموعة، وهيَّ فتاة جزائرية مشرقة الوجه، ثلاثينية العمر، كانت بمثابة المشرف العام على أعمالهم وتوجيهاتهم .. تلك الفتاة الجميلة، الشابة استقبلتنا برحابة صدر وبوجه باسم متلألئ وطيب خاطر منقطع النظير، حينها قلت لها..

- عفوا يا أختي أني اقتنيت تذاكر سفر للدنمارك، والموظف أبى أن يرجعها، لذا أني أتبرع بها لمنظمتكم وبطرقكم الخاصة حاولوا أن تسترجعوا قيمتها وتستفيدوا منها.

في البداية أبت أن تأخذ التذاكر مني، لأنها تعرف بأن معظم المهاجرين لا يملكون أموالا تكفيهم مصاريف الطريق، ولكني قلت لها وبطيب نفس..

- لا وقت لدي من المجادلة أو أعادتها فأن بقيت معي ستفتقد قيمتها، ستكون مجرد ورق.

حيناها أخذتها مني شاكرة مبادرتي.

كانت قد أرشدتنا خلال صعودنا القطار بأن ننزل في مدينة كيل، ومنها نتوجه إلى ترافاموندا التي تنطلق منها الباخرة إلى السويد، والتي ستنقلنا إلى مدينة (يوتوبوري) Gothenburg في السويد.

ركبنا القطار المتوجه لمدينة كيل ومن ثم توجهنا لترافاموندا الواقعة في أقصى الشمال، حيث وصلناها قبل غروب الشمس بعد سفر دام ساعتي زمن.

تجمعنا في محطة نقل البواخر التي لا تبعد عن محطة القطار سوى مسافة عشرة دقائق مشيا على الأقدام. كل منا جلس في بقعة ينتظر حلول الفرج لتبدأ رحلتنا الأخيرة.. لقد جلس أبني متربعا على أرضية الميناء وكأنه قد حمل هموم الرحلة على كاهله وفي وجهه الف علامة استفهام، وفي قلبه شجن بمفارقة والدته التي تركناها على سدة الفراش بعد أن كانت قد أجرت عملية جراحية، حينها جلست بجانبه أكلمه..

- هـا حبيبـي، أجـدك لسـت علـى مـا يـرام، بـم تفكـر؟ لا تيـأس، لقـد قطعنـا كـل المشـاوير بسـلام والحمـد لله، لـم يبقى أمامنا سوى الخطوة الأخيرة.
- لا تهـتم يـا بابـا، نحـن تجاوزنـا بحـر إيجـة الـذي تـراقص بـه المـوت أمامنـا، وتلـك هـي أصـعب المراحـل التـي واجهتنـا، فمـا بقـي لا يقـارن بتلـك الصـعوبة. لا تقلـق مـن جـانبي أنـي فقـط متعـب جسـديا وجـائع وأفكـر بمراحـل الرحلة أين كنا وأين أصبحنا.

حينها مازحته قائلا له....

- يـا بنـي؛ كنـا نتوسـم بهـم خيـرا ونتوسـل بـأن يسـمحوا لنـا بزيـارة بلـدانهم.. كـانوا يرفضـون مطالبنـا، لـم يمنحونـا فيـزا لزيـارة بلـدانهم، ولكننـا فـي رحلتنـا هـذه فـي يـوم واحد عبرنا ستة دول، ههههههههه.

صار يضحك قائلا ..

- صدقت يا أبي، كلامك صح، هههههه.

حينهـا دلفـت خارجـا متجهـا إلـى الأسـواق القريبـة مـن الميـناء حيـث أبتعـت سندويشـات دجـاج وعلـب ببسـي وميـاه معدنيـة. وبعـد أن تعشـينا مـع غـروب الشـمس، فصـلونا لقسـمين، مجموعـة العوائـل ومجموعـة العـزاب، فقـالوا لنـا بـأن رحلـة هـذه الليلـة سـتكون مخصصـة للعوائـل فقـط، فيمـا سـتكون رحلـة يـوم غد مخصصة للعزاب، بذلك سهلوا علينا أمرنا.

حينها منحونا تذاكر السفر والتي قيمتها حسبت على أساس أسرة الغرف، سعر تذكرة السرير بـ 200 يورو، بعد ذلك توجهنا مباشرة إلى الباخرة الكائنة في القاطع الثاني من الميناء، حيث أدركنا الباخرة قبل انطلاقها بنصف ساعة..

بركوبنا الباخرة كنا قد شطبنا ألمانيا من مشوارنا الطويل، حيث كانت الباخرة عملاقة، تتكون من ثمان أو تسع طوابق على ما أظن لأن الغرف التي آوتنا كانت في الطابق السابع والمطاعم في الطابق الثامن والمسرح والمرقص في الطابق التاسع حيث لم نستطع أن نلف ونتجول بها لسعة حجمها، ثم التعب كان قد أخذ منا جهدنا فشاق أبداننا وشل رغباتنا.

حلة الباخرة

في رحلة الباخرة مر علينا الزمن بسلاسة، وكأنها رحلة من من ليالي ألف ليلة وليلة، ممكن أن أوصفها بباخرة الرجاء في ليلة لم تشهدها عيوننا من قبل، تجلّت لنا باخرة كأنها خارجة من صفحات التاريخ، باخرة السندباد، لكننا كنا أبطال الحكاية هذه المرة. ساد سكون فائق، وانسابت الساعات كأنها ماء رقراق يلامس أطراف الروح. أسِرّتنا ناعمة كحنان أمّ، والفرش نقيّة كبياض حلم، والصور على الجدران تتنفس هدوءًا كأنها ترشدنا للسلام.

في تلك اللحظة، شعرت بذاتي تلامس الفضاء، تتحدى المستحيل، تتسلق سلم الرجاء وتعتنق فكرة السعادة وكأنها حق مكتسب. لم تكن الباخرة مجرّد وسيلة نقل، بل تجسيدٌ حيّ لإرادة لا تعرف الخنوع، أضحت الإرادة التي حملتنا على مواجهة التحدي عاصمة في داخلنا، كباخرة لا تختلف عن الباخرة العملاقة الناقلة لنا بشيء وهي تشق عباب البحر، بل ربما إرادتنا هي أكبر من حجم الباخرة ذاتها، لأنها كانت بحد ذاتها باخرة حلم ضخمة عملاقة حملت همومنا وغايتنا نحوى المصير الذي تأملناه، أقلتنا من الهوان الذي كُنّا عليه إلى الأمان المبتغى. وصرنا نحن، من كان يحلم بالأمل، نمتطي باخرة الحلم، التي وإن كانت تطفو على البحر، إلا أن قلوبنا كانت تطفو بها على الأمل.

مـن لحظـة إقرارنـا لقراراتنـا المصـيرية فـي أوطاننـا، وحتـى بلوغنـا شـواطئ السـويد، سـارت بنـا أمـواج الهجـرة بخطـا ثابتـة فـوق أمـواج المصـاعب الواحـدة تلـو الأخـرى، والتـي لـم تتـرك لنـا إلا خيـار الإبحـار نحـو الأمـل. وشـكّلت لنـا فهمًـا جديـدًا للحيـاة بتفاصـيلها، ونحـن نعبـر مراحلهـا المعقّـدة بشـق الأنفـس. كانـت الرحلـة رحلـة صـراع متواصـل، تسـلّقنا بهـا سُـلّم التحـديات درجـةً بعـد درجـة، صـاغت لنـا حيـاة مقدسـة، علّمتنـا أن المنفـى لـيس هروبًا، بل اختبارٌ للإرادة...

إرادتنـا لـم تكـن وليـدة ظـرف، بـل نشـأت مـن جـوف المسـتحيل، نبتـت فـي صـلابة أحلامِنـا. نقلتنـا مـن حقـول الفكـر المنحـل إلـى مراعـي الأحـلام النديـة، تجـاوزت بنـا حقـول العقـد فـي محطـات عديـدة؛ مررنـا فـي حقـل الـذرى، وفـي بحـر الطـين علـى الجانـب التركـي، تجاوزنـا بحـر إيجـة المرعـب وبمـا حملتـه لنـا مـن معانـاة فـي جزيـرة متلينـي وتعقيـداتها، ثـم تجـاوزت سـرطان الطريـق مـن أثينـا حتـى يوتوبـوري فـي السـويد، ذلـك الطريـق المـتخم بالعقد، تجاوزناه وبإرادة فولاذية.

زوّدتنـا إرادتنـا بجـيش مـن الطاقـة، والخبـرة، والفكـر النيـر، سـارت بنـا كالجَمـل فـي قلـب الصـحراء، تجـاوزت صـحارى الخـوف والتعـب بأعجوبـة، واجهنـا الظنـون بشـجاعة ونحـن نـروي عطشـنا بالتأمـل. وفـي كـل منعطـف كنـا نرتقـي الظـن بـاليقين، حتـى أدركنـا مرامنـا الأخيـر.. كنـا قـد حملنـا حقيبـة مـن وجـدانٍ وصـحوة، إيمـانٍ وعقيـدة، وتخـاطر هـواجسٍ لا حـدود لهـا. . ولـو حسـبنا المسـافات علـى الـورق، لمـا بلغنـا نتيجـة تُـذكَر،

لقد تجاوزنا حسابات الورق والمنطق، عبرنا حواجز المطلق والمستحيل، كسرنا حاجز اليأس المتجسد في قسوة الطبيعة. صرنا نُحلّ معادلات الحياة بسهولة. لقد كانت الرحلة، بكل تفاصيلها تمرينًا وجدانيًا على الحلم، دليلًا روحيًا للمستقبل، وعبورًا لا يُنسى نحو مآربٍ استحققناها بالكدّ والصبر. لقد كانت رحلة معقّدة، أشبه بمسألة رياضية عسيرة تحتاج إلى عقل نير وصفاء بال، خضعنا لحلولها بهدوء وترو فتجاوزنا بها رحلة ابن بطوطة، حتى بلغنا مآربنا المنشودة.

خطوات رحلتنا علقت في الذاكرة كقناديل وهاجة، بددت ظلام اليأس عن مساربنا. ستُخلَّد هذه الرحلة لأجيال وأجيال، بتوثيق أحداثها وسرد تفاصيلها البضة في طيات هذه الرواية. ورغم الألم الذي عايشناه، هناك من تحمل أضعافه، من فشل في عبور البحر مرارًا، ومن دفع حياته ثمنًا لتلك المجازفة غرقًا، ومن قطع المسافات بين اليونان والنمسا مشيًا على الاقدام، يخترق الغابات والوديان حتى تورمت وتقرحت أقدامهم كما تورمت عقولهم بالعُقَد.

نمنا تلك الليلة بطمأنينة لا تشوبها خشية، غافلين عن عمق البحر الذي احتوانا فوق سنام أمواجه، لأننا وجدنا إرادتنا أعمق منه، وأصلب من دوران الزمن نفسه. إرادتنا، التي رسمت خارطة الطريق بصلابة عجيبة، حملتنا على كتفيها، واجتازت بنا أكثر من خمسة آلاف كيلومتر لهي إرادة جبارة، تراءت لنا كصيغة شفافة للمستقبل، فكرة مطاطية نُشكلها بشغف، نُداعبها ونستشف منها صور الغد بنور من وحي الله.

كنا نسير بيقين خلف سعينا، بعزم يماثل عزم الباخرة وهيَّ تشق عباب البحر بثبات لا يلين، وهيَّ تسير بنا بذات الروح المفعمة بالأمل.. نمنا بهدوء في حضن أحلامنا دون أن نشعر بموج البحر أو بموج القلق، ارتخت أعصابنا، سرقتنا الراحة من قبضة البحر وموجه، كأنها رمتنا سهما في قوس الكرى، لا ندرك شيئًا إلا حين استيقظنا على ضوء الحلم وقد رست بنا الباخرة في ميناء يوتوبوري في صباح السادس من أكتوبر 2015، عند الساعة السابعة والنصف تمامً

غادرنا يوتوبوري بصمتٍ مثقلٍ بالترقب، وركبنا القطار صوب ستوكهولم، المدينة التي تنبض بالأحلام المعلقة والفرص المجهولة. كنا نبحث عن باب نلجه إلى مستقبلٍ مختلف، بوصلتنا كانت "نورا" - تلك المرأة العمياء التي كنا على معرفة بها مسبقًا، والتي خدعتنا بهيئتها الواثقة، مدعيةً بأنها موظفة في دائرة الهجرة. والتي كانت منشغلة بهيافتها وفرجِها أكثر من أن تعتني بنا وبمستقبلنا.. أشارت علينا بالتوجه إلى مدينة فلين، الواقعة في قلب مقاطعة سرملاند، جنوب ستوكهولم بمئة وخمسين كيلومترًا تقريبًا. أوهمتنا أنها ستفتح لنا بابًا من أبواب الأمل، لكن خلف ذلك الباب وجدنا الحقيقة، جاثمةً بثقلها. فقد تبيّن أنها مجرد طاهية في أحد الكامبات التابعة لتلك الدائرة لا تهش ولا تنش.

كانت خيبة الأمل بحجم المسافة التي قطعناها، لكننا، كأرواحٍ غريبة تبحث عن موطئ قدم، حملنا أمتعتنا من الثقة المكسورة، ومضينا في الرحلة.

وبإشـــارة منهـــا بصــــمنا علــــى ثغــــر مدينـــة "فلـــين Flin" فـــي 2015\10\8 وهــي أحــدى مــدن مقاطعــة ســرملاند دون أن نفقــه شيئا عن اجراءات الهجرة.

*****

السويد

بعد غيـابٍ طويـل وعنـاء سفر، التفت إلـيّ ابنـي وسـألني بصـوتٍ يحمل البراءة والخذلان: —

- يا أبي، لماذا تركنا ديارنا؟

لـم أجـد جوابـاً يطمئنـه، وأنـا نفسـي لـم أجـد طمأنينـة فـي رحـاب هـذه الأرض الجديـدة. تيممنـا بتربتهـا وصـلّينا فيهـا، توقعناهـا معبـدا ومحرابـا للإنسـانية، لنكتشـف لاحقـاً أنهـا لـم تكـن سـوى مسـرحاً للفتنـة، وملهـى تتـراقص فيـه القـيم حتـى تتهشّـم. علـى ترابهـا تيتمـت الأحـلام، وتفرّقـت الأسـر، وصـرنا نسـكن دوائـر متداخلـة مـن التيـه والضـياع، تتشـابك خيـوط العقـد فـي ذاكرتنـا ولا تنفك عنها.

منـذ اللحظـة الأولـى، واجهنـا نظـراتٍ مشـبعةً بالريبـة مـن مـوظفي دائـرة الهجـرة. رأينـاهم يشـجعون المـرأة علـى افتعـال المشـاكل مـع الـزوج، علـى نبـذ الرجـل. يحثـوهم علـى كسـر الـروابط الأسـرية، ويـدفعون المـرأة نحـو مـا يسـمونه "التحـرر الفـردي"، فيتسـلل الشـك إلـى البيـت، ليكـون الطـلاق كحـلٍ مفضـل. لـم يكتفـوا بخطـف الاطفـال وانتـزاعهم مـن بـين أحضـان والـديهم وأسـرهم المسـلمة، لينشـؤوا فـي بيئـاتٍ لا تشـبه أخلاقهـم ولا ثقـافتهم، مشـبعة بالمثليـة والعدوانيـة، بيئـاتٍ تُطـبعهم علـى نماذج لا تمت لهم بصلة.

كانـت سياسـة الهجـرة تحمـل انتقائيـة غريبـة، حيـث تُمـنح الإقامـة لمـن يتبنّـى نزعـاتٍ انفصـالية أو سـلوكياتٍ متطرفـة، فيمـا يُهمـل الإنسـان المسـتقيم. شـاهدنا أحكامـاً صـادمة تُكـافئ الانحـراف بالانـدماج، وتهمّـش مـن يحمـل قيمـاً متجـذرة فـي ضـميره وسـلوكه. حتـى المنظمـات، كالصـليب الأحمـر، أغـرت الضـعفاء علـى التخلـي عـن دينهم وهـويتهم مقابـل إقامـة. لقد حكم القاضـي علـى الشـاب الافغـاني بـالبراءة ومنحـه الاقامـة الدائمـة علـى

جريرتــه بعــد أن اغتصــب أربعــة قاصــرات! ادعــى بأنــه حقــق هدف الاندماج في المجتمع السويدي.

وبعــد خمــس ســنوات مــن الكفــاح، والصــبر، والانــدماج بمــا اســتطاع إليــه قلبــي ويــدي ســبيلاً، صــدر قــرار الــرفض والطــرد. لــم يُنصــفوا ابنــي الــذي كــان قاصــراً ومريضــاً بالســكري، تعلــم لغــتهم ودرس فــي مدارســهم، وعنــدما بلــغ يومــه الأول مــن ســن الرشد، أصبح حضوره غير مرغوب فيه.

ليتهم رأوا الإنسان، لا الشروط التي أرادوها أن تُشكّلنا بها.

حــين أذكــر ابنــي، فــإنني أستحضــر آلاف العــائلات التــي وجــدت نفســها فــي نفــس المصــير القاســي، مــن شــتى الجنســيات. أغلــبهم ظــل ينتظــر بارقــة قــرار إيجــابي دون جــدوى، بعــض العوائــل اضــطرت أن تنتظــر لعشــرات الســنين، لكــن الأبــواب ظلّــت مؤصــدة، والأمــل معلقــاً علــى خــيط مــن ســراب. إحــداها كانــت عائلــة فلســطينية، هُــددت بســحب الســكن منهــا إذا مــا آوت ابنهــا الــذي بلــغ ســن الرشــد دون أن يمــنح إقامــة رســمية... هكــذا يُكافــأ الوفــاء والاحتضــان فــي عــالمٍ يتجاهــل الإنســان إن لــم يطــابق شروطه.

غُدر بنـا حـين منعـت السلطات ابنـي مـن إكمـال عامـه الأخيـر فـي الثانويــة، وتجاهلــت ســنين المــرض والمثــابرة، كأنمــا كــل مــا مررنــا بــه لا يســتحق حتــى التفاتــة. لــم يُراعــوا ألــم الرحلــة، ولا عناء الاندماج، ولا مرارة الترقب المرهق.

ثـم جـاء الطعـن الآخـر مـنِ مَـن يفتـرض بـه أن يكـون نصـيرًا للضـعفاء: كنـا قـد التزمنـا مـع محـامٍ عراقـي يُـدعى "مجيـد الناشـئ"، مـن طائفـة الصـابئة. كـان هـذا الرجـل يـراوغ بمهـارة، يـتقن جمـع الأمـوال مـن المنكـوبين ويـوزع علـيهم وعـودًا كاذبـة، دون أن يُقـدّم خدمـة حقيقيـة لأي مهـاجر. اكتشـفناه محتـالًا، يلهـث خلـف الـربح، غيـر آبـهٍ لمـا يعانيـه أصـحاب الملفـات التـي راكمهـا؛ يهـتم بقلّـة منهـا، ويتـرك البـاقين يغرقـون فـي دوامـة الإهمال والتشتت، وكأنهم لا يستحقون حتى محاولة الإنقاذ.

نحـن لـم نهـرب مـن أوطاننـا إلا وقـد التهمتهـا نيـران الحـرب والخـراب، فوجـدنا أنفسـنا فـي جحـيمٍ جديـد - جحـيم العنصـرية والقـرارات الجـائرة، وسـخف الأحـزاب المتنفـذة، ونصـب المحـامين أمثـال مجيـد الناشـئ الـذين اسـتغلوا ألمنـا ولـم يحملـوا همّنا.

أشـبه دائـرة الهجـرة بـدائرة سـوداء، كالثقـب الأسـود، لا ينفـذ منهـا نـور الرحمـة ولا بريـق العدالـة. دائـرة يتكثّـف فيهـا الظلـم وتُصـاغ فيهـا القسـوة كمراسـيم بـاردة، لا تأبـه لقلوبنـا المتعبـة ولا لحالاتنـا النفسـية المنهكـة. تركونـا معلقـين فـي خـواء الـزمن كجثـثٍ نَخِـرة تنسـجها عوامـل الانهيـار مسـتعدة للتفسـخ. ذابـت آمالنـا، تكسّـر مسـتقبلنا، وتاهـت خطـوات أبنائنـا دون أن نـرى مخرجًا واضحًا يأخذنا لبرّ الأمان.

لـم نـأتِ لنلهـث خلـف لقمـة عـيش، بـل هربنـا مـن قسـوةٍ نسـجتها تحالفـات الـدول الكبـرى التـي دنّسـت أرضـنا وسـرقت سـلامنا، وعلـى رأسـها بريطانيـا وأمريكـا، بسياسـتهم المجـردة مـن

الأخلاق. لسنا جوعى كما يتخيّل البعض، ولسنا متخلفين كما ينظر إلينا آخرون، بل نحن نموذجٌ لأمةٍ هجّرتها النيران، مكوّنة من أطباء ومهندسين وكتّاب ومدرّسين وحالمين بالأمل.

غادرنا أوطاننا لا لنحيا، بل لنتفادى الموت. فررنا من الطائفية والعنصرية لتطاردنا عنصرية أخرى بشعارات لامعة وأبواب مغلقة. لم نترك منازلًا متهالكة، بل قصورًا وأموالًا وشهادات، على أمل أن نجد هنا معاملة إنسانية تليق بنا كبشر.

كل لحظة قضيناها في العراق كانت اختبارًا للنجاة من المفخخات، الشظايا، الغازات، الأمراض. الرصاص المتطاير فوق الرؤوس كالهوام، والموت يتفنن بأشكاله في اختيارنا ضحيةً له....

أخبرني ابني، والدمعة تختنق في عينيه:....

- أشعر وكأنني مشرد بلا مصير... سجين بلا محكمة.
- صدقت يا بني، لقد استُبدل جحيم الحرب بجحيم العنصرية، وصرنا أسرى في سجنٍ واسع بلا أسوار، نسير فيه نحو مجهولٍ بلا خرائط.

كلّ يومٍ نموت ببطء، وكلّ صباحٍ نعيد حساباتنا حول الأمل، وكلّ ساعةٍ نُهشم حلمًا أودعناه في أعماقنا. أوربا كانت حلمًا، وها هي تتكشّف عن كذبةٍ عظمى، حياة رتيبة، خالية من

دفء الإنسان، حياة تتكرّر بلا فاصل إنساني يخفف من وطأة العمر المجهد.

وفي نهاية الطريق، عندما همست لابني بأننا لا نملك سوى أن نمضي... قلت له:.......

- إياك أن تنخدع بالمظاهر يا بني... فإن أكثر الناس حرصًا على عدم إثارة الفزع في قلوب الطيور، هو الصياد ذاته الذي يقتلها. لأنه يعرف أن الصمت يسهل القنص... لا تنخدعوا بالمظاهر، فالقسوة كثيرًا ما تختبئ خلف الهدوء.

الخاتمة

في نهاية الطريق، لم يكن الجحيم نارًا تتأجج، بل وجوهًا فقدت ملامحها، وقلوبًا تعبت من الخوف. وقف "الأب" وسط الركام، يتأمل المدينة التي ابتلعها الصمت، بعدما سقطت آخر قطرة نزف، وانطفأت آخر صرخة. لم يعد يبحث عن الانتقام، بل عن معنى لما تبقى من حياته.

اقتـرب "الأبـن" منـه، عيناهـا تحمـلان كـل مصـاعب الطريـق، وكل الأحلام التي تأملها. قال له بصوت خافت: ....

- يـا أبـي ربمـا لـم نخـرج مـن الجحـيم... لكننـا لـم نعـد نحترق.

ابتسـم الأب لأول مـرة منـذ سـنوات، ومشـى معهـا نحـو الأفـق، حيث لا وعد بالأمان، لكن هناك فرصة للبدء من جديد.

النهاية

للكاتب ستة عشرة كتابا بين رواية ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب

مجموعة الروايات:-

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة من العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- نقط الحروف
9- الاقدام المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- الفراغ
12- صور مضيئة

كنا نسير بيقين خلف سعينا، بعزم يماثل عزم الباخرة وهيَّ تشق عباب البحر بثبات لا يلين، وهيَّ تسير بنا بذات الروح المفعمة بالأمل.. نمنا بهدوء في حضن أحلامنا دون أن نشعر بموج البحر أو بموج القلق، ارتخت أعصابنا، سرقتنا الراحة من قبضة البحر وموجه، كأنها رمتنا سهما في قوس الكرى، لا ندرك شيئًا إلا حين استيقظنا على ضوء الحلم وقد رست بنا الباخرة في ميناء يوتوبوري في صباح السادس من أكتوبر 2015، عند الساعة السابعة والنصف تمامً